قصة
الأدب في مصر

تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

الجزء الثاني

دار الجيل
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الأدب المصرى فى ظلال الدولة الأيوبية

٥٦٧ – ٦٥٧ هـ
١١٧١ – ١٢٥٩ م

التاريخ السياسى للدولة :

قامت الدولة الأيوبية فى مصر من عام ٥٦٧ هـ على يدى مؤسسها : السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقد دعم كيان دولته ، ومحا من مصر المذهب الفاطمى ، وأحل محله المذهب السنى ، وعنى بنشر العلم وتشجيع العلماء ، ووقف فى وجه الصليبيين وقفات خالدات فى تاريخ الشرق الإسلامى . وكان عادلا محببا من قلوب الناس . وكانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز (١) ، ونشر العدل فى الرعية وحكم بالقسط بين البرية ، وبنى المدارس والخوانق وأجرى الأرزاق على العلماء والصلحاء ، مع الدين والورع والزهد والعلم ، وهو الذى ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم (٢) وأصبحت عاصمة البلاد فى عهده ، ويذكر السيوطى أنه رحل بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من السلفى (٣) . وتوفى عام ٥٨٩ هـ عن سبعة وخمسين عاما .

مات السلطان فخلفه على عرش مصر ابنه العزيز عماد الدين عثمان ، فسار سيرة حسنة ومات سنة ٥٩٥ هـ ودفن فى قبة الإمام الشافعى ، فأقيم ولده المنصور مكانه ، ولكن عم أبيه الملك العادل نزعه عام ٥٩٦ هـ وتولى مكانه .

والملك العادل أبو بكر بن أيوب هو أخو السلطان صلاح الدين ، وكان شديد الحب للعلماء ، وأبلى بلاء حسنا فى مقاومة الغزو الصليبى للبلاد ومات عام ٦١٦ هـ .

وخلفه ابنه الملك الكامل محمد (٦١٦ هـ – ٦٣٥ هـ) ، وقد حكم مصر حوالى أربعين عاما ، كان فى العشرين عاما الأولى نائبا عن أبيه ، وكان فى العشرين عاما الأخيرة يحكم بنفسه بعد موت أبيه ، وكان الكامل معظما للسنة النبوية وأهلها راغبا فى نشرها والتمسك بها ، مؤثرا الاجتماع مع العلماء ، والكلام معهم حضرا وسفرا (٤) ،

---

(١) ٢٦ جـ ٢ حسن المحاضرة ط ١٣٢٧ هـ   (٢) ٢٦ جـ ٢ حسن المحاضرة ط ١٣٢٧ .

(٣) ٢٦ جـ ٢ حسن المحاضرة   (٤) ٢٣٠ جـ ٦ النجوم الزاهرة .

وقد أنشأ دار الحديث بالقاهرة ، وعمر القبة على ضريح الشافعى ، وكان معظما للسنة وأهلها (١) ، وتوفى يوم الأربعاء حادى عشر من رجب عام ٦٣٥ هـ ، وأقيم بعده ابنه الملك العادل أبو بكر ، ولكن الملك الصالح أيوب نزع الملك منه وتولى حكم مصر عام ٦٣٧ هـ .

وكان الملك الصالح مهيبا جدا ، دبر المملكة على أحسن وجه ، وبنى المدارس الأربعة بين القصرين ، وعمر قلعة بالروضة ، وهو الذى أكثر من شراء الترك وعتقهم وتأميرهم ، ولم يكن ذلك قبله فقام الشيخ عز الدين بن عبد السلام القومة الكبرى فى بيع أولئك الأمراء وصرف ثمنهم فى مصالح المسلمين (٢) ، ومات فى ليلة النصف من شعبان عام ٦٤٧ هـ ، وهو مستعد لقتال الصليبيين فى المنصورة ، فأخفت زوجته شجرة الدر موته : حتى حضر ابنه الملك المعظم توران شاه فتولى الملك فى ذى القعدة عام ٦٤٧ هـ ، وقاتل الافرنج وكسرهم ، وكان فى عسكر المسلمين الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأسر الملك لويس السادس ملك فرنسا ، وحبس فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، ثم نفرت قلوب الجيش من توران شاه فقتلوه فى ١٧ محرم عام ٦٤٨ هـ ، وولوا شجرة الدر مكانه وكان يخطب لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة العباسى ، ولم يل مصر امرأة فى الإسلام قبلها ، ولما وليت تكلم الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى بعض تصانيفه على ما إذا ابتلى المسلمون بولاية امرأة ، وأرسل الخليفة العباسى المستعصم يعاتب أهل مصر فى ذلك ، وأقامت شجرة الدر فى المملكة ثلاثة أشهر ثم عزلت نفسها ، واتفق القواد على أن يملكوا الملك الأشرف موسى بن صلاح الدين يوسف بن المسعود ابن الملك الكامل ، فملكوه فى جمادى الأولى عام ٦٤٨ هـ ، وجعلوا عز الدين أيبك التركمانى مملوك الملك الصالح قيما عليه ، وعظم شأن المماليك الأتراك من يومئذ ، وفى عام ٦٥٢ هـ خلع عز الدين الملك الأشرف واستقل بالملك ، وهو أول من ملك مصر من المماليك الأتراك ، وتزوج شجرة الدر ، ثم خطب عليها ابنة صاحب الموصل ، فقتلته شجرة الدر عام ٦٥٥ ، وخلفه ابنه المنصور ، حتى قضى على ملك الدولة الأيوبية الأمير يوسف الدين قطز ، الذى لقب نفسه بالملك المظفر ، وذلك عام ٦٥٧ هـ .

ومن الجدير بالذكر أن ملوك الدولة الأيوبية كانوا يتلقون مراسيم ولايتهم من خلفاء بغداد العباسيين ، مع استقلالهم السياسى والإدارى عن خلافة بغداد.

---

(١) ٣٣ ج ٢ حسن المحاضرة (٢) ٣٤ ج ٢ حسن المحاضرة .

القضاء على الصبغة الشيعية للدولة :

وبزوال الدولة الفاطمية من مصر وقيام الدولة الأيوبية مقامها ، انمحت معالم الفقه الإسماعيلي الشيعي ، فقد غالى الأيوبيون في القضاء على كل أثر للشيعة ، وأفتوا بإبطال إقامة الجمعة في الأزهر (١) ، ولبثت إقامة الجمعة معطلة . فيه نحو مائة عام ، وذلك من عام ٥٦٧ — ٦٦٥ هـ .

وفي عهد الدولة الأيوبية أنشئت عدة مدارس تنافس الأزهر في رسالته العلمية ، فبنى صلاح الدين مدرسة للشافعية بجوار مسجد عمرو ، ومدرسة أخرى للمالكية عرفت باسم «دار الغزل» ، ثم عرفت بالمدرسة القمحية ، ثم بنى مدرسة ثالثة للفقهاء الحنفية أطلق عليها اسم «المدرسة السيوفية» ، كما بنى مدرستين أخريين لفقهاء المذهب الشافعي خاصة ، وهو المذهب الذي كان عليه أكثر أفراد البيت الأيوبي نفسه ، وكانت مدرسة منها بجوار الإمام الشافعي ، والأخرى بجوار المشهد الحسيني . ويحصي المقريزي المدارس التي بنيت في القاهرة وحدها بثماني عشرة مدرسة (٢) .

وقد بنيت في القاهرة والفسطاط معا نحو خمس وعشرين مدرسة : منها المدرسة الكاملية وتسمى دار الحديث ، وقد أنشأها الملك الكامل عام ٦٢١ هـ وكملت عمارتها سنة ٦٢٢ هـ ، وتولى مشيختها أبو الخطاب عمر بن دحية ، ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن دحية (٣) ، ومن مشايخها أيضا القسطلاني الشافعي وابن دقيق العيد .

ومن هذه المدارس المدرسة الصالحية وقد بناها الملك الصالح عام ٦٣٩ هـ وهي أربع مدارس للمذاهب الأربعة ، وكانت من أجل مدارس القاهرة (٤) .

ومنها المدرسة الفاضلية بناها القاضي الفاضل عام ٥٨٠ هـ ، وكان في مكتبتها مائة ألف كتاب مجلد (٥) .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تتخصص في دراسة بعينها ، وكان الغرض من إنشاء هذه المدارس هو منافسة الأزهر وصرف الطلاب عنه .. وقد كان لقيام هذه المدارس وكثرتها خلال القرنين السابع والثامن ، أي حتى بعد عصر الأيوبيين ، أثر

---

(١) أصدر قاضي القضاة الشافعي صدر الدين عبد الملك بن درباس فتوى بأنه لا يجوز إقامة الجمعة في بلد واحد في مكانين فأبطل إقامتها بالأزهر وأقرها بالجامع الحاكمي

(٢) ١٩٣ — ٢١٦ جـ ٤ خطط المقريزي . (٣) ١٤٢ جـ ٢ حسن المحاضرة .

(٤) ١٤٢ جـ ٢ حسن المحاضرة . (٥) ٢٥٥ جـ ٢ الخطط للمقريزي

كبير في سير الدراسة في الأزهر ، إذ نافسته هذه المدارس منافسة شديدة وجذبت إليها أعلام الأساتذة ، وقضى الأزهر في هذه المدة عصرا من الركود الطويل .

وقد كان الايوبيون من الغلاة في المذهب الشافعي ، وكانوا من أتباع الاشعري ، وكان الحنابلة بمفردهم يكونون معسكرا مستقلا يناهض معسكر الاشاعرة ، وكان من نتائج تصادم الأفكار بين أصحاب المذاهب المتعددة أن اشتدت روح التعصب والمغالاة ، فكان كل فريق يدفع صاحبه بما يملك من أسلحة الهجوم ، فكان أهل السنة يطعنون الشيعة بأنهم كفار زنادقة وفساق ملاحدة ، وقد أصدر بلاط بغداد في سنة ٤٠٢ هـ في عهد الخليفة القادر بالله فتوى رسمية موقعا عليها من كبار الفقهاء والقضاة بهذا المعنى ، طعنا في الفاطميين خلفاء مصر .

ومن ناحية أخرى لم يتوان الأشاعرة عن استعمال سلاح التكفير والتفسيق في شتى المناسبات ، حتى بلغ الأمر فصل الحنابلة كفرقة تلز في قرن مع النصارى واليهود والباطنية . ومن طريف ما يروى أن منشىء المدرسة الرواحية في دمشق نص في حجة وقفيته على هذه المدرسة نصا يمنع دخول اليهود والمسيحيين والحنابلة لهذه المدرسة

ولما كثرت المدارس في عهد الأيوبيين وأرادوا اجتذاب أساتذة الأزهر إليها أغدقوا لهم في العطاء ، وأجزلوا في المرتبات ، وبعد أن كان العلماء يعتمدون في العصور الأولى على أنفسهم في سد حاجات عيشهم عن الطريق السعي وراء الرزق أو استجلاب الربح من صنعة أو حرفة ، فكان منهم في العصر الأول البزاز والزجاج والصائغ والصباغ والفراء ، إلى ما لهم من شهرة في العلم ، أصبحوا في هذا العهد وما تلاه من عهود المماليك يعتمدون على الدولة وما تعطيهم من إعانات ، وما تدره عليهم من غلات أوقاف .

الحياة الثقافية في ظلال الدولة الأيوبية .

نبغ في العصر الأيوبي كثير من العلماء والأدباء والشعراء ، منهم : الحسن الفارسي الفقيه الحنفي العالم باللغة والادب والطب والهيئة المتوفى عام ٥٩٨ هـ (١) . ومنهم الحاجب النحوي (٥٦٦ — ٦٤٦ هـ) المشهور (٢) ، والشاطبي (٥٣٨ — ٥٩٠ هـ) (٣) ، وابن الفارض (٥٧٦ — ٦٣٢ هـ) الصوفي الزاهد الشاعر المعروف (٤) ،

(١) ١٢٦ جـ ١ حسن المحاضرة .   (٢) ١٩٤ جـ ١ حسن المحاضرة
(٣) ٢١٢ جـ ١ » »   (٤) ٢٢١ جـ ١ » »

وعز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام (٥٧٧ — ٦٦٠ ﻫ) (١) واشتهر فيه من الصوفية سيدى أحمد البدوى (٥٩٦ — ٦٧٥ ﻫ) (٢) ، وعبد الرحيم القنائى المتوفى عام ٥٩٢ ﻫ (٣) ، وسواهم .

ومن العلماء أيضا الحافظ المنذرى شيخ الإسلام (٥٨١ — ٦٦٠ ﻫ) ، والسخاوى المصرى (٥٥٨ — ٦٤٣ ﻫ) صاحب التفسير المشهور وشرح الشاطبية ، وابن سرايا (٥٧٠ — ٦٥١ ﻫ) المفسر العالم بالقراءات ، وابن المنير (٦٢٠ — ٦٨٣ ﻫ) وكان إماما فى النحو والأدب والأصول والتفسير .

ومنهم ابن برى المتوفى عام ٥٨٢ ﻫ ، وابن معطى المتوفى عام ٦٢٨ ﻫ ، وكانا إمامين فى العربية ، وابن مالك الأندلسى المتوفى عام ٦٧٢ ﻫ وقد أقام بمصر حينا كما أقام بدمشق وحلب ، وكذلك ابن الصلاح وتوفى عام ٦٤٣ ﻫ .

ومن الحكماء الوزير القفطى (٥٦٨ – ٦٤٦ ﻫ) . ومن المؤرخين ابن شددا (٥٣٩ – ٦١٥ ﻫ) ، وابن عبد الظاهر (٦٢٠ – ٦٩٢ ﻫ) .

ومن الأدباء ابن شيث من أدباء القرن السادس ، وابن أبى الاصبع المتوفى عام ٦٥٤ ﻫ ، وابن الساعاتى المتوفى عام ٦٠٤ ﻫ ، وأبو شامة المتوفى عام ٦٩٥ ﻫ ، والتلعفرى (٥٩٣ – ٦٧٥ ﻫ) ، وابن واصل المتوفى عام ٦٩٧ ﻫ ، والقاضى الفاضل المتوفى عام ٥٩٦ ﻫ ، والعماد الاصبهانى المتوفى عام ٥٩٧ ﻫ .

وقد اشتهر فى هذا العصر الكثير من الشعراء ، منهم : البهاء زهير (٥٨١ — ٦٥٦ ﻫ) وابن مطروح (٥٩٢ – ٦٤٩ ﻫ) ، وابن النبيه المتوفى عام ٦١٩ ﻫ ، وابن الساعاتى المتوفى عام ٦٠٤ ﻫ ، وابن سناء الملك المتوفى عام ٦٠٨ ﻫ ، وابن التعاويذى (٥١٩ – ٥٨٤ ﻫ) ، وسراج الدين الوراق المتوفى عام ٦٥٥ ﻫ ، وأبو الحسين الجزار . ولا شك أن نشأتهم الادبية كانت أثرا لثقافة الازهر اللغوية والادبية التى ظلت متوارثة فى عهد الايوبيين (٤) .

---

(١) ١٢٧ ج ١ حسن المحاضرة . (٢) ٢٢٣ ج ١ حسن المحاضرة

(٣) ٢٢٠ ج ١ » »

(٤) فى مكتبة كلية اللغة رسالة مخطوطة عن الأدب الأيوبى للأستاذ رياض هلال

الأدب فى هذا العهد

— ١ —

كان عهد الدولة الأيوبية عهد كفاح ونضال ضد الصليبيين الذين حاولوا إذلال العالم الإسلامى وإخضاعه لمشيئتهم ؛ وكان الأدب نثره وشعره فى ازدهار طول هذا العهد بسبب هذه البواعث الدينية والحربية والسياسية الجليلة ؛ وقد مهد الأيوبيون لهذه النهضة الأدبية ، بإنشاء المدارس والمكتبات ، وكان صلاح الدين نفسه أول ممهد لهذه السبيل .

ولقد أبلى صلاح الدين فى حرب الصليبيين أحسن البلاء ، وعنى بتحصين القطر المصرى وتنظيم شئونه . وقد امتد ملكه وفتوحه إلى الشام وفلسطين ، وكان انتصاره على الصليبيين باعثاً على رفع مكانته فى العالم الإسلامى ، فاتجهت إليه الأنظار ، وتعلقت به القلوب فى سائر الأقطار . وقد وصفه ابن شداد فى سيرته فقال (١) : « وكان صلاح الدين الأيوبى رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على الدليل بالبحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ، وفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه ، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنا وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه ، غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه ، جارية على نمط الاستقامة موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء . وقد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابورى (٢) عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب . وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم . . . وكان رحمه الله خاشع القلب رقيقه ، غزير الدمع إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه فى معظم أوقاته . وكان رحمه الله شديد الرغبة فى سماع الحديث ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير فان كان ممن يحضر عنده استحضره ، وسمع عليه فأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث

---

(١) كتاب سيرة صلاح الدين المسمى النوادر السلطانية ص ٥ .

(٢) هو أبو المعالى مسعود بن محمد الفقيه الشافعى تفقه بنيسابور ومرو على أئمتهما وقدم بغداد ودمشق ووعظ بهما ثم خرج إلى حلب وتولى التدريس بها ثم إلى همذان (ابن خلكان ٢ : ١٢٠) .

إجلالا له . وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه ، تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية ، وروى عنه أحاديث كثيرة » . ويقول ابن خلكان (١) :

« لما ملك السلطان صلاح الدين الدولة المصرية لم يكن بها شيء من المدارس ، فإن الديار المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء . فعمر في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وجعل عليها وقفاً كبيراً ، وجعل دار سعيد السعداء (٢) خادم المصريين خانقاه (٣) ووقف عليها وقفا طويلا وجعل في دار عباس الوزير العبيدي مدرسة للحنفية وعليها وقف كبير أيضاً ، والمدرسة المعروفة بزين التجار وقفها على الشافعية وقفها جيد أيضاً . وبنى بالقاهرة داخل القصر مارستانا (٤) وله وقف جيد ، وله مدرسة بالقدس أيضا وقفها كبير وخانقاه بها أيضا ، وله بمصر مدرسة للمالكية » ، ثم قال : « ولقد فكرت في نفسي من أمور هذا الرجل وقلت إنه سعيد في الدنيا والآخرة فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوب إليه في الظاهر ، فإن المدرسة التي بالقرافة ما تسميها الناس إلا بالشافعي ، والمجاورة للمشهد لا يقولون أيضا إلا بالمشهد ، والخانقاه لا يقولون إلا خانقاه سعيد السعداء ، والمدرسة الحنفية لا يقولون أيضاً إلا مدرسة السيوفية ، والتي بمصر لا يقولون

---

(١) ٢ : ٥٢٢

(٢) سعيد السعداء هو خادم الخليفة المستنصر الفاطمي ، وله جامع باسمه في شارع الجمالية ، وهو أحد الاستاذين المحنكين خدام القصر ، والمحنكون هم الذين يديرون عمائمهم على أحناكهم كما جاء في صبح الاعشى ج ٣ : ٤٨١ .

(٣) الخانقاه كلمة فارسية معناها بيت وقيل أصلها خونقا ، أو الموضع الذي يأكل فيه الملك . وقد أنشئت الخوانق ليقوم الصوفية فيها بعبادة الله (المقريزي ج ٢ : ٤١٤) .

(٤) المرستان أو البيمارستان كلمة أعجمية معناها بيت المرضى وهو المستشفى . وقد أشار إلى هذا المرستان المقريزي (١ : ٤٧) .

إلا مدرسة زين التجار ، والتي بمصر أيضاً لا يقولون إلا مدرسة المالكية ، وهذه صدقة السر على الحقيقة . . وهذه النعم من ألطاف الله تعالى به . وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف ، قريباً من الناس ، رحيم القلب كثير الاحتمال والمدارة ، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم وكان يميل إلى الفضائل ويستحسن الأشعار الجيدة ويرددها في مجالسه » .

وقد أنشأ الأيوبيون مدارس أخرى منها المدرسة الكاملية (١) بين القصرين أنشأها الملك الكامل بن العادل بن أيوب سنة ٦٢٢ ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى . وتعرف الآن باسم جامع الكاملية أو جامع الكامل بجوار جامع برقوق من الجهة البحرية ، والمدارس الصالحية (٢) أنشأها الصالح أيوب بين القصرين فى القاهرة ، وغير هذا مدارس كثيرة (٣) .

— ٢ —

ولقد كان للأدب فى عصر الأيوبيين خطر ، وكان للغة العربية وآدابها شأن . فان الأيوبيين وإن لم يكونوا عرباً بنسبهم كانوا عرباً بثقافتهم وتربيتهم ونشأتهم ، فقد نشئوا فى أحضان العربية وامتزجوا بعناصر عربية وإسلامية ، فكان لهم ميل إلى العربية واستعداد لتذوقها وتشجيع آدابها وتقريب شعرائها وكتابها ، وكانت هباتهم جزيلة ، وعطاياهم حافزة مغرية ، فنشط الشعراء والأدباء فى عهدهم ، وحفلت المجالس بهم ، وكثرت مطارحاتهم وتراسلهم ومناظراتهم

النثر الفنى فى هذا العصر

الكتابة الفنية :

وصف القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى (٤) حالة الكتابة فى العصر الأيوبى فقال : قد تقدم أن القاضى الفاضل رحمه الله كان قد كتب بين يدى الموفق بن الخلال فى وزارة صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، فلما استقل السلطان صلاح الدين المذكور بالملك وخطب لبنى العباس

---

(١) المقريزى ٢ : ٣٧٥ (٢) المقريزى ٢ : ٣٧٤
(٣) راجع المقريزى وغيره . (٤) ١ : ٩٦

فوض الى الفاضل الوزارة وديوان الإنشاء فكان يتكلم فيهما جميعا ، وأقام على ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين فكتب بعده لابنه العزيز وأخيه العادل أبي بكر ثم مات . وكتب للكامل بن العادل القاضي أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدرج إلى أن توفى . فكتب بعده للكامل الشيخ أمين الدين عبد المحسن الحلبي مدة قليلة ، وتوالت كتاب الإنشاء فى الولاية إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب فولى ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زهيرا ، ثم صرفه وولى بعده الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان فبقى إلى انقراض الدولة الأيوبية » .

وكان لرئيس ديوان الإنشاء رفعة ومجد وجاه ، ويصف ذلك القلقشندى فى كتابه فيقول :

« أما رفعة محله وشرف قدره فأرفع محل وأشرف قدر ، يكاد ألا يكون عند الملك أخص منه ولا ألزم لمجالسته ، ولم يزل صاحب هذا الديوان معظما عند الملوك فى كل زمن ، مقدما لديهم على ماعداه ، يلقون إليه أسرارهم ويخصونه بخفايا أمورهم ، وناهيك برتبة هذا محلها . قال صاحب (١) مواد البيان : ليس فى منزلة خدم السلطان والمتصرفين فى مهماته أخص من كاتب الرسائل ، فانه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولاغنى له عن مفاوضته فى آرائه والإفضاء إليه بمهماته وتقريبه من نفسه فى آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته واطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته ، فهو لذلك لايثق بأحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه ، ومحله منه فى عائدة خدمته وأثرة دولته محل قلبه الذى يؤامره فى مشكل رأيه حتى ينفتح ، ويراجعه فى مبهم تدبيره حتى يتضح ؛ ولسانه الذى يقرر بترغيبه أولياءه على الطاعة والموافقة ، ويقر بأوامره ونواهيه أمور سلطانه ، وينزلها منازلها فى متعهد مجالسها ، ويتمكن من سياسة أجناده وعمارة بلاده ومصلحة رعيته واجتلاب مودتهم واستخلاص نياتهم ، وعينه التى تلاحظ أحوال سلطانه ، ويرعيها مهمات شأنه ، وأذنه التى يثق بما وعته ، ولا يرتاب بما سمعته ، ويده التى يبسطها بالإنعام ، ويبطش بها فى النقض والإبرام » .

---

(١) هو على بن خلف من كتاب الإنشاء فى الدولة الفاطمية .

ومن أعلام ديوان الإنشاء في هذا العصر ، ابن شيث عبد الرحيم بن علي ، وكان كاتبا في ديوان الإنشاء ، وله كتاب « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » ، وقد عاش في زمان صلاح الدين وأخيه .

وكذلك ابن أبي الإصبع زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر ابن عبدالله بن أبي الإصبع المصري العدواني المتوفى عام ٦٥٤ هـ ، وكان شاعر القاهرة والجزار شاعر الفسطاط (١) ، وكان إماما في الأدب ، وله كتاب « بديع القرآن » ، وكتاب « تحرير التحبير » في البديع .

ومنهم القاضي الفاضل (٥٣٩ — ٥٩٦ هـ) صاحب الطريقة الأدبية المنسوبة إليه ، والعماد الأصبهاني (٥١٩ — ٥٩٧ هـ) .

صور من الكتابة الفنية في هذا العصر :

١ – لابن شداد (٢) من فصل من كتابه « النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية » :

« . . . . كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العـــدو ، فيسرقون من الرجال ، وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا إلى خيمة السلطان ، وعرضوه عليه ، وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ، ويعطيهم ما أخذوه .

« ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل ، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم ، فقالوا : إنه رحيم القلب ، وقد أذنا لك بالخروج ، فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك . فخرجت تستغيث إلى اليزك ، فأخبرتهم بواقعتها ، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان ، فلقيته وهو راكب ، وأنا في خدمته ، وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديدا ، ومرغت وجهها في التراب . فسأل عن قصتها ، فأخبروه ، فرق لها ودمعت عينه ، وأمر باحضار الرضيع ، فوجدوه قد بيع في السوق ، فارتده ، وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري ، وأخذه منه ، ولم يزل واقفا حتى أحضر الطفل وسلم إليها ، فأخذته وبكت بكاء شديدا ، وضمته إلى صدرها ، والناس ينظرون إليها ويبكون . وأنا واقف في جملتهم . فأرضعته ساعة . ثم أمر لها . فحملت على فرس . وألحقت بعسكرهم مع طفلها . فانظر إلى هـــذه الرحمة الشاملة لجنس البشر »

---

(١) المغرب لابن سعيد ٤ : ١٢١ (٢) هو القاضي بهاء الدين بن شـداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ . وكان من خاصة صلاح الدين بن أيوب . وملازمي ركابه .

٢ — وللقاضى الفاضل مما كتبه إلى صديق فى وصف قلعة حمص :

« والشيخ قد شاهد ما يشهد به من كونها نجما فى سحاب ، وعقابا فى عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامة ، عاقدة حبوة صالحها الدهر على ألا يحلها بقرعه ، عاهدة عصمة صالحها الزمن على ألا يروعها بخلعه » .

٣ — وله من كتاب أرسله إلى أحد أصدقائه وقدكان عتب عليه :

« وقفت على التحية الطيبة ، والكرامة الصيبة والألفاظ العذاب إلا أنها الغضاب ، والنعيم إلا أنه العذاب ، والمسامحة إلا أنها الحساب . ويكفى أنه مزج الصاب بعسله ، وأرعف قلمه بما لا يرعفه الشجاع من أنوف أسله . وهذا باب قد آن سده ، وسبيل قد وجب صده ، وعين دهر أصابت هذه المودة ، وقد آن لها أن تنطرف وتنصرف ، وبادرة هم قد حان أن تنكشف وتنكسف » .

والنصان الأخيران يوضحان لنا طريقة القاضى الفاضل من التعسف فى اقتناص أنواع البديع ، ومن الاتجاه إلى زخرف الالفاظ من غير عناية بالمعنى ، ومن غير قصد إلى تقوية الكلام بالجزل الرصين منه .

وهو فى الاول يعمد إلى نوع من التجنيس بين عقاب وعقاب ، وغمامة وعمامة ، ولم يوازن بين سجعاته . ويشابه بينها ، لانه أراد أن يشبه القلعة بالانملة ، وأن هذه الانملة قد خضبت بلون الاصيل ، وأن الهلال كان لها قلامة ؟ ولا شك أن هذا التزاحم فى الاخيلة يقتضى تطويل السجعة فطالت ، ويسهل عليك أن تلحظ مثل هذا فى النص الثانى ، فقد عمد فيه إلى التجنيس أيضا ، وأطال فى بعض سجعاته .

٤ — وكتب القاضى الفاضل عن الملك الناصر صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد فى البشرى بفتح بلد من بلاد النوبة (١) :

صلوات الله التى أعدها لاوليائه وذخرها ، وتحياته التى قذف بشهبها شياطين أعدائه ودحرها ، وبركاته التى دعا بها كل موحد فأجاب ، وانقشع بها غمام الغم وظلام الظلم فانجاب عن أنجاب ، وزكاته التى هى للمؤمنين سكن ، وسلامه الذى لا يمترى الموقنين فى ترديده حصر ولا لكن — على مولانا عاقد ألوية الإيمان

(١) صبح الاعشى ٦ : ٥١١ .

وصاحب دور الزمان ، وساحب ذيل الإحسان ، وغالب حزب الشيطان الذى زلزلت أمامه قدم الباطل ، وحلت خلافته تراثب الدهر العاطل ، واقتضت سيوفه ديون الدين من كل غريم ماطل ، وأمضت غرب كل عزم للحق مفلول واطلعت غارب نجم كل هدى آفل . المملوك يقبل الأرض بمطالع الشرف ومنازله ، ومرابع المجد ومعاقله ، ومجالس الجود ومحال السجود ومختلف أنباء الرحمة المنزلة ، ومرسى أطواد البسيطة المتزلزلة ، ومفتر مباسم الإمامة ومجر مساحب الكرامة . وليعلم العدو أن الخطب المظنون قد صرح خطابه ، والأمل المخدوع قد صفر وطابه(١) ، راسل ورأى سل السيوف يغمده ، وماكر وماكر لعله أن الحتف يعمده (٢) واندفع هاربا هائبا ، وخضع كاثبا كاذبا ، فضى المملوك قدما ، وحمله ظله وقد خاب من حمل ظلما ، وأجابه بأنه إن وطىء البساط برجله وإلا وطئه برأسه ، وإن قدم على المملوك بأمله وإلا أقدمه بيأسه ، وإن لم يظهر أثر التوبة وإلا أقام عليه الحد بسكرة الموت من كأسه .

٥ — وكتب عن السلطان صلاح الدين إلى الناصر لدين الله الخليفة ببغداد بفتح بيت المقدس (٣) :

أدام الله الديوان العزيز النبوى الناصرى ، ولا زال مظفر الجد بكل جاحد ، غنى التوفيق عن رأى كل زائد .

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صـــــدر عنه مما كان يجر مجرى التباشير بصبح هذه الخدمة ، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ، فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل . وبشرى للخواطر فى شرحها مآرب . ويسرى للأسرار فى إظهارها مسارب . ولله فى إعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى ، وقد صارت بنور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، واستثبت عقائد أهله على بصائرها ، وكان الدين غريبا فهو الآن فى وطنه ، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس فى ثمنه .

٦ — ومن إنشاء القاضى الفاضل ما كتبه عن السلطان صلاح الدين إلى صاحب مكة جوابا عن كتاب منه له فى معنى وصول غلال بعث بها إلى مكة .

---

(١) الوطاب جمع وطب وهو سقاء اللبن ، وصفر وطابه أى ذهب أو مات .

(٢) يعضيه ويقدحه . (٣) ١٠٩ : ٧ صبح الأعشى

وصل كتابك أيها الشريف ، معربا عن المشايعة الشائعة أنباؤها ، والمخالصة الخالصة أسرارها الوافرة أنصباؤها ، وحسان الخلال التى اقتسم طرفى الحداعادتها وابداؤها ، ومكرمات الآل التى تساوى فى اقتناء المجد أبناؤها وآباؤها ، وفضائل الأفضال التى لا تخف على غير أهل العباء صلوات الله عليهم أعباؤها . ونشر كتابك من محاسنك ما انطوى ، ووردنا منه منهلا أروى وارده وارتوى ، ووقفنا منه على أثر فضل اشتمل على عين الكرم واحتوى ، ووفقنا وإياه من الحد مالا نخلفه نحن ولا هو مكانا سوى ، فاقتضانا مزيدا من رفع قدره ، واختصاصه من الانعام بكلّ غريب الموقع ندره ، وأصرنا كتابه إلى مستقر كاتبه من قلب الورد وصدره ، وكيف لايكن ذلك وقد اشمخرت لبيته الأنساب ، وخرت الأنصاب ، وسجدت الرقاب وردت له بعد ماتوارت بالحجاب ، وشهدت بفضل توقيعهم الحرب ، وبفضل ليلهم المحراب .

٧ — وللعماد الأصبهانى فى فتح عكاء (١) :

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على التثليث ، مديلا للطيب ، مزيلا للخبيث ، وسارعسكره ، وثارعثيره (٢). وظهرت راياته ، وبهرت آياته ، ونعرت كوساته (٣) وصاحت بوقاته ، وجالت خيوله ، وسالت سيوله وطلعت فى سماء العجاج نجوم خرصانه (٤) وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه ، وحفرت حوافر الصلادم (٥) ، أصلاب الصلاد الصلاب ، وفصحت باعراب الحماحم صواهل الجياد العراب ، والأسنة مشرعة ، والأعنه مسرعة ، وبحور السوابغ متموجة ، وغدران السوابغ (٦) مترجرجة ، وبوارق البياريق متبوجة (٧) وأوضاح (٨) الجرد (٩) وغررها كأوضاح النصر وغرره متبلجة . . . وأصبح يوم الخميس وركب فى خميسه ووقف كالأسد فى عريسه ، فخرج أهل البلد يطلبون الأمان ، ويبذلونا لإذعان ، فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال ، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال ، وكان فى ظنهم أنه يستبيح دماءهم ويسبى ذريتهم ونساءهم ، وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة ، واغتنموا تلك المهلة . . . . وأقام

---

(١) الفتح القسى ص٢٩ (٢) العثير : التراب (٣) الطبول (٤) الرماح
(٥) الشديدة الحافر (٦) السوابغ : الدروع التامة الطويلة (٧) لامعة
(٨) جمع وضح وهو الغرة فى الجبهة والتحجيل فى القوائم .
(٩) جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر .

السلطان بباب عكاء على التل مخيما ، وعلى سائر بلاد الساحل مصمماً ، ولملكتها متمما .

٨ — وقال فى فتح بيت المقدس :

ثم رحل من عسقلان للقدس طالباً ، وبالعزم غالباً ، وللنصر مصاحبا ، ولذيل العز ساحبا ، قد أصحب (١) ريض مناه ، وأخصب روض غناه ، وأصبح رائج الرجاء ، أرج الارجاء ، سيب العرف ، طيب العرق ، ظاهر اليد ، قاهر الأيد ، سنا عسكره قد قاض بالفضاء فضاء ، وملأ الملا فأفاض الآلاء ، وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق ، وكأنما أعاد العجاج رأد الضحى (٢) جنح الغسق ، فالارض شاكية من إجحاف الجحافل والسماء حاظية بأقساط القساطل (٣) وسار ساراً بالاحوال الحوالى ، مروية أحاديث فتوحه العوالى من العوالى ، مطوية مدارج مناجحه على ماتنشر الآمال من الامالى ، وقد حلت وعلت من مغارس النصر ومطالعه الجانى والجالى ، والإسلام يخطب من القدس عروسا ، ويبذل لها فى المهر نفوسا ، ويحمل اليها نعمى ليحمل عنها بوسى ، ويهدى بشراً ليذهب عبوسا ، ويسمع صرخه الصخرة المستدعية المستعدية لإعدائها (٤) على أعدائها ، وإجابة دعائها ، وتلبية ندائها .

---

(١) انقاد . والريض الدابة أول ما تقاد .

(٢) رأد الضحى : وقت ارتفاع الشمس فى أول النهار .

(٣) القسطل : الغبار .

(٤) أعداه على عدوه : نصره عليه وقواه

أشهر الكتاب :

القاضي الفاضل

٥٢٩ — ٥٩٦ هـ

حياته :

هو أبو علي عبد الرحيم ، ولد بعسقلان سنة ٥٢٩ هـ ، وحضر مع أبيه إلى الديار المصرية في أيام الظافر أحد الخلفاء الفاطميين ليتعلم فن الكتابة بديوان الإنشاء ، واتصل في الإسكندرية بابن حديد بعد أن عرفه بوالده فاستكتبه ، وكانت مكاتبات ابن حديد ترد إلى القاهرة بخطه ، وهي في غاية البلاغة ، فحسده كتاب الإنشاء على فضله ، وعاقوا من تقدمه عليهم ، فسعوا به إلى الظافر ، وقالوا : إنه قصر في آداب المكاتبة ، وكان صاحب ديوان الإنشاء في هذا العهد القاضي ابن الزبير فنفى عنه التقصير ، وشهد له بالفضل ، فاستدعاه الظافر إلى القاهرة ليكتب له .

ولما ملك صلاح الدين مصر اتخذه وزيره وصاحب ديوانه ، وكان سريع الخاطر ، حاضر البديهة ، كتب مئات من الرسائل ، وكانت كلها تجري على الطريقة الفاضلية المعروفة .

ويقول العماد الأصفهاني عنه في كتاب الخريدة : « رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذي ما سمع له بمماثل في الأوائل ، من لو عاش في زمانه لتعلق بغباره ، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية ؛ التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ويطلع الأنوار ويبدع الأزهار ، وهو ضابط الملك بآرائه ، ورابط السلك بلألائه ، إن شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة ، أين قس من فصاحته؟ وأين قيس في مقام حصافته؟ ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته؟ » .

كتاب ديواني له : (١)

ورد كتاب المجلس السامي ـ نصر الله عزائمه ، وأمضى في رؤوس الأعداء صوارمه (٢) ، وشد به بنيان الإسلام ودعائمه (٣) ، واسترد به حقوق الإسلام

(١) أي مكتوب من ديوان الانشاء وكان يعادل الديوان العرفي للحاكم في عصرنا هذا . (٢) الصوارم: السيوف . (٣) جمع دعامة وهي الأساس .

من الكفر ومظالمه (١) ، وأخلف نفقاته في سبيل الله ومغارمه (٢) ، وجعلها مغانمه (٣) - وكان العهد به قد تطاول ، والقلب في المطالبة ما تساهل ، ولحت أشغاله بالطاعة التي هو فيها ، وما كل من تشاغل تشاغل ، فهنأه الله بما فيه رزقه ، وتقبل في سبيل الله ما أنفقه ، وعافى الجسم الذي أنضاه (٤) في جهاد عدوه وأخلفه ، وقد وفق من أتعب نفسا في طاعة من خلقها ، وجسما في طاعة من خلقه ، فهذه الأوقات التي أنتم فيها أعراس الأعمار ، وهذه النفقات التي تجرى على أيديكم مهور (٥) الحور في دار القرار . قال الله سبحانه في كتابه الكريم : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

وأما فلان وما يسره الله له ، وعونه عليه ، من بذل نفسه وماله ، وصبره على على المشقات واحتماله ، وإقدامه في موقف الحقائق قبل رجاله ، فتلك نعمة الله عليه ، وتوفيقه الذي ما كل من طلبه وصل إليه . وسواد العجاج (٦) في تلك المواقف ، بياض ماسودته الذنوب من الصحائف ، « ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » ، فما أسعد تلك الوقفات ، وما أعود بالطمأنينة تلك المرجفات (٧) ، وقد علم الله سبحانه وتعالى متى ماعلم من غيرى من المسلمين من الدعاء الصالح في الليل إذا يغشى (٨) ، ومن الذكر الجميل لكم في النهار إذا تجلى (٩) .

والله تعالى يؤيد بكم إيمانكم ، وينصركم وينصر سلطانكم ، ويصلحكم ويصلح بكم زمانكم ، ويشكر هجرتكم التي لم تؤثروا عليها أهليكم ، ولا أموالكم ولا أوطانكم ، ويعيدكم إليها سالمين سالبين ، غانمين غالبين ، إنه على كل شيء قدير .

شخصية الكاتب :

هذه الرسالة للقاضي الفاضل الكاتب المشهور وصاحب الطريقة الأدبية المنسوبة إليه ، المتوفى عام ٥٩٦ هـ ، وهو عبد الرحيم بن علي البيساني ، ولد

---

(١) جمع مظلمة (٢) جمع مغرم وهو مايلزم به الرجل نفسه من مال في سبيل الله أو الناس (٣) جمع مغنم (٤) أتعبه حتى صار نضوا أي هزيلا
(٥) جمع مهر وهو صداق المرأة .
(٦) الغبار الذي يثار في المعركة من وقع أقدام الخيول .
(٧) الأهوال والشدائد المرعبة (٨) يشتد ظلامه (٩) يتضح نور الشمس فيه

بعسقلان من فلسطين ، وحضر مع أبيه إلى مصر فى أواخر عهد الدولة الفاطمية ليتعلم فن الكتابة ، فاشتغل بديوان الإنشاء فى الإسكندرية وظهر فضله فيما كان يرسله للسلطان من الرسائل ، فنقل إلى القاهرة ، واشتغل فيها بديوان الإنشاء ، ولازم أكابر القضاة والكتاب فى الديوان وأخذ عنهم . ولما استولى صلاح الدين على مصر جعله وزيره ورئيس ديوان الإنشاء ، وبقى فى الوزارة حتى مات صلاح الدين ، فوزر لابنه العزيز ، ثم لأخيه من بعده ، ومات سنة ٥٩٦ هـ .

وقد نبغ فى الأدب والكتابة الأدبية فى عصره نبوغا كبيرا ، حتى صار إمام مذهب فى الأدب ، وصاحب الطريقة فى الأسلوب ، ويرجع نبوغه فى الكتابة الأدبية إلى عوامل عديدة ، منها :

١ — ميله الفطرى إلى صناعة الكتابة .
٢ — شدة ذكائه وتوقد قريحته .
٣ — سعة اطلاعه وكثرة ما حفظه من أدب العرب .
٤ — اشتغاله بديوان الإنشاء وتوليته رياسته .
٥ — اتصاله بكبار القضاة والكتاب وأخذه عنهم .
٦ — المناصب الكبيرة التى تولاها والأحداث الخطيرة التى حدثت فى أيامه .

وقد ظل الكتاب متأثرين بطريقة ابن العميد ، مع مبالغتهم فيها ، إلى أن نبغ القاضى الفاضل فى الكتابة ، واستطاع أن يولد طريقة فى الكتابة ، أخذ أصولها عن الكتاب السابقين ، وجارى فيها ذوق عصره فى الكتابة ، وسميت هذه الطريقة باسمه ، وهى تنبنى على الأسس الآتية :

١ ـ عنايته بالأسلوب واللفظ أكثر من عنايته بالمعانى .
٢ ـ التزامه السجع فى كتابته ، وإكثاره من المحسنات البديعية ، ولا سيما التورية والجناس .
٣ ـ كثرة الاقتباس والتضمين فى رسائله .
٤ ـ طول الجمل فى أسلوبه ونظمه .

ولقد كانت كتابة القاضى الفاضل مع ما فيها من تكلف مستحسنة منه ، لسعة اطلاعه وغزارة مادته ، وسرعة بديهته وصفاء خاطره ، إلا أن طريقته ظهرت سيئاتها فى العصور التى تلت عصره ، إذ جاء بعده كتاب لم يرزقوا ما رزق من ذوق

وأدب ، فقلدوه فى طريقته معتمدين على مداراة ضعفهم بالمحسنات والزخارف ، كما تفعل المرأة القبيحة عند ماتدارى قبحها بالأصباغ والألوان ، فانحطت الكتابة ، وأصبحت ضربا من المبالغة فى الصناعة ، وقد استمرت هذه الطريقة ذائعة بين الأدباء إلى عهد غير طويل .

آثار مذهب القاضى الفاضل فى هذه الرسالة :

وأول ما نلاحظه على هذه الرسالة هو ظهور مذهب القاضى الفاضل الادبى فيها ظهورا واضحا :

١ ـ فالسجع فيها ملتزم التزاما كاملا ، وفيها ألوان من الجناس والطباق .

٢ ـ وتجىء فيها الجمل الإعتراضية الدعائية .

٣ ـ والجمل فى الرسالة طويلة .

٤ ـ ويضمن القاضى الجملة أحيانا بعض آيات القرآن الكريم مثل : « في الليل إذا يغشى » و « فى النهار إذا تجلى » .

٥ ـ التزام الدعاء للمكتوب إليه فى بدء الرسالة وخاتمها ، إلى غير ذلك من الخصائص الادبية الغالبة على الرسالة .

موضوع الرسالة :

وهذه الرسالة من الكتب الديوانية التى كان يكتبها القاضى الفاضل وهو فى ديوان الرسائل ، وقد بعث بالرسالة إلى الملك الايوبى من مصر ، وكان الملك فى ميدان الحرب يجاهد أعداء الإسلام .

فهنأه القاضى الفاضل بما بذل فى الحرب ضد الصليبيين من جهود وأموال ، وأفصح عن تضحياته وبطولته ، وأشاد بمناقبه ومآثره ، ودعا له بالتوفيق والخير

معانى الرسالة :

وقد تضمنت الرسالة معانى كثيرة أهمها :

١ ـ الدعاء للمكتوب إليه فى صدر الرسالة ، مع التنوية بجهاده ضد الصليبيين بسيفه وماله .

٢ ـ بيان تأخر رسائله عن دار السلطنة ، مع تعلق قلوب الشعب به ، ودوام سؤالهم عنه ، وتتبعهم لجهاده وجهوده .

٣ ـ ثم يهنىء الملك ويدعو له ، لما بذل من مال ، وأنفق من جهد ، وضحى

بنفسه وصحته ووقته من نفيس ، وأن ذلك كله هو ثمن الجنة فى الآخرة .

٤ ـ ثم يشيد بثواب الإنفاق فى سبيل الله .

٥ ـ وينوه فى الرسالة برجل آخر من كبار رجال الدولة أنفق ماله وبذل نفسه ، فى الحرب ضد خصوم الإسلام وأعدائه .

٦ ـ ثم يشيد بتلك المواقف الكريمة فى سبيل الله ، ويبين جزاءها العظيم عند الله ، وثوابها الكريم فى الدار الباقية ، وعواقب أمرها الجليلة على المسلمين من النصر والطمأنينة والعزة والمجد .

٧ ـ ثم يدعو للمكتوب إليه بالنصر والتأييد والسلامة والعودة الغانمة السالمة

وحدة الرسالة :

والوحدة ظاهرة على الرسالة غالبة عليها ، سائدة فيها ، هذه الوحدة فى الموضوع والفكرة والمعانى ، وكلها تدور حول الغرض المقصود من الرسالة .

نقد الرسالة :

ويظهر فى هذه الرسالة بعض الضعف البيانى فى أسلوب الكاتب ، من مثل قوله : «والقلب فى المطالبة ماتساهل ، ولحت أشغاله بالطاعة التى هو فيها وما كل من تشاغل تشاغل» .. ولكن الرسالة على وجه العموم تصور مذهب القاضى الفاضل تصويراً كاملا .

نماذج من شعر القاضى الفاضل :

قال من قصيدة خمرية وصف فيها بلاغته وتلاعب فيها بالمعانى مفتخرا :

قضى نحبه الصوم بعد المطال ... وأطلق من قيد فتر الهلال (١)

وروض كاتب جنبي اليمين ... وأتعب كاتب جنبي الشمال (٢)

فدع ضيقة مثل شد الإسار ... إلى فرجة مثل حل العقال

---

(١) قضى نحبه : يريد انقضى شهر الصيام وكان بقاؤه مقيدا بإهلال هلال شوال ، فلما أهل انطلق من قيده وذهب .

(٢) يريد : ولما ذهب روح بذهابه عن الملك الموكل بكتابة حسناتى عن يمينى ، وأتعب الملك الموكل بكتابة سيئاتى عن يسارى لأن حسنات رمضان كانت كثيرة وسيئات شوال وما يليه ستكون فى العدد أكثر من حسنات رمضان .

وقم هاتها مثل ذوب النضار ومو ج البحار وطعم الزلال (١)
جزى الله عنى عروس الدوالى ولا أخطأتها كئوس العزالى (٢)
بما أطعمت من لذيذ الثمار وما ألبست من نسيج الظلال
وما سلسلت من مذاب السرور وما خفضت من جماح الغلى (٣)
فكم زخرفت جنة للعذاب وكم رفعت قبساً للضلال (٤)
أغالط بالكأس حكم الزمان فيوم على ويوم بما لى (٥)
لجاءت بما فى عيون النساء ومرت بما فى رءوس الرجال (٦)
وأسلو الغزال بها إذ أرى بكاساتها دم ذاك الغزال
وسكران كرد من سكره زمان على كل عقل عال
فسكر الشباب وسكر الشراب وسكر الصدود وسكر الوصال
فلا تذكرن عهود الوصال فعهدى بها والليالى ليالى
ولم أبك عهداً رجاء الرجوع ولكن أجدده بالصقال (٧)
بعثن الليالى بيأس جديد على قديما لجاست خلالى (٨)
فما جاء عن منطق ذم جان ولا جاء عن جوهرى ذم حالى (٩)
ولم أستغث تحت ظل الخطو ب بجرجرة البزل تحت الرحال (١٠)
خشنت لحال كشوك القتاد ولنت لأخرى كشوك السيال (١١)

---

(١) أى هات الخمرة فى لون الذهب مزبدة كموج البحر باردة كالماء الزلال .

(٢) الدوالى : عنب أسود غير حالك ، يدعو لكرمة هذا العنب . والعزالى : جمع عزلاء وهى مصب الماء من الراوية والقربة ونحوهما . ويريد بها عزالى السحاب . . دعا لها بالسقيا بسبب أنها تطعم الناس من ثمرها وتظلهم بعرائشها الخ .

(٣) التغالى : المغالاة (٤) يشير إلى آثار الخمر فى عقل شاربها وما تصوره له من أفانين التخيلات . (٥) أى ويوم يأتى بما هو لى أى بفائدة لى .

(٦) لجاءت الكأس بما فى عيون النساء من التكسر والفتور . ومرت الخ : أى وذهبت بما فى رءوس الرجال من العقل . (٧) أى ولم أبك عهدا من هذه العهود رجاء أن يعود كما كان ولكنى أصقله بعد ما تقدم بوصفى له وبكائى عليه .

(٨) إما أن يعود ضمير بعثن على العهود المتقدمة وإما على رأى من يلحق علامة الجمع بالفعل عند إسناده للجمع الظاهر (٩) أى أنى لا أذم أحدا جانيا كان أو حاليا بالفضيلة (١٠) البزل : الجمال المسنة . أى لا أصيح كجرجرة البزل .

(١١) السيال : جمع سيالة ، وهو نبات له شوك أبيض طويل ، إذا نزع خرج منه سائل مثل اللبن . وهو يلين لنازعه على العكس من القتاد ، وهو شجر صلب له شوك كالإبر ولا يستطاع نزع شوكه إلا بمشقة واحتمال أذى .

العماد الأصفهانى

٥١٩ — ٥٩٧ هـ

هو أبو عبد الله محمد بن صفى الدين ، كان فقيها شافعى المذهب ، نشأ بأصبهان ، وقدم بغداد فى حداثته وتفقه بالمدرسة النظامية ، وأتقن فنون الأدب . ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد (١) ، فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط . ولما توفى ابن هبيرة انتقل العماد إلى دمشق سنة ٥٦٢ وسلطانها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، ومتولى أمورها وتدبير دولتها القاضى كمال الدين محمد بن الشهرزورى (٢) فتعرف به وحضر مجالسه ، وعرف الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وكان يعرف عمه العزيز من قلعة تكريت فأحسن إليه وأكرمه وعرفه السلطان صلاح الدين من جهة والده .

ونوه القاضى كمال الدين بذكره عنـــد السلطان نور الدين وعدد له فضائله واستعداده لكتابة الإنشاء ، وحصل بينه وبين صلاح الدين فى تلك المدة مودة أكيدة وامتزاج تام ، وعلت منزلته عند نور الدين وصار صاحب سره ، وسيره إلى بغداد رسولا فى أيام الخليفة المستنجد ، ولما عاد فوض إليه التدريس بدمشق ، وبعد وفاة نور الدين اتصل بصلاح الدين وقصد خدمته ، ثم استمر يغشى مجالسه وينشده المدائح حتى نظمه فى سلك حاشيته واستكتبه واعتمد عليه وقربه ، فصار من جملة الصدور المعدودين يضاهى الوزراء ويجرى فى مضمارهم . وكان القاضى الفاضل فى أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان ويتوفر على مصالح الديار المصرية ، والعماد ملازم للباب بالشام وغيره .

وللعماد مؤلفات كثيرة منها : خريدة القصر وجريدة العصر ، والبرق الشامى ، والفيح القسى فى الفتح القدسى ، وكان بينه وبين القاضى الفاضل مكاتبات ومحاورات وله يصف الهرمين :

كان الدخول إلى مصر بالزى الأجمل ، والعز الأكمل ، وتلق السلطان أخوه ونائبه الملك العادل ، وتلقانا خير مصر ووصلت إلينا ثمراتها وجليت علينا زهراتها فظهر بنا نشاطها وزاد اغتباطها ، ودخل السلطان داره ، ووفق الله فى جميع الأمور إيراده وإصداره

(١) ابن خلكان ٣٢٦ : ٣ (٢) ابن خلكان ٥٩٧ : ١

وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع الأغانى ، والتنزه فى الجزيرة والجيزة والأماكن المزيزة ، ومنازل العز والروضة ودار الملك ، والنيل والمقياس ومرامى السفن ومجارى الفلك ، ورواية الأحاديث النبوية والمباحثة فى المسائل الفقهية والمعانى الأدبية ، قال : واقترحنا على القاضى ضياء الدين أن يفرجنا فى الأهرام فقد شغفنا بأخبارها فى الشام ، فخرج بنا إليها ودار بنا حواليها ، ودرنا فى تلك البرابى والبرارى والرمال والصحارى ، وهالنا أبو الهول ، وضاق فى وصفه مجال القول ، ورأينا العجائب وروينا الغرائب ، واستصغرنا فى جنب الهرمين كل ما استعظمناه ، وتداولنا الحديث فى الهرم ومن بناه ، فكل يأتى فى وصفها بما نقله لا بما عقله ، واجتهدوا فى الصعود إليه فلم يوجد من توقله (١) ، وحارت العقول فى عقوده ، وطارت الأفكار عن توهم حدوده ، فياله من مولود للدهر قبل الطوفان انقرضت القرون الخالية على آبائه وجدوده ، وسمار الأخبار تذكر حديث أجداث عاده وثموده ، ويدل إحكامه وعلوه على همة بانيه فى بأسه وجوده ، وإن فى الأرض الهرمين ، كما أن فى السماء الفرقدين ، وهما كالطودين الراسخين ، وكالجبلين الشامخين ، وقد فنيت الدهور وهما باقيان ، وتقاصرت العصور وهما راقيان ، وكأنهما لأم الأرض ثديان ، وعلى ترائب التراب نهدان ، ولسلطان العالم علمان ، وإلى مراق الأملاك سلمان وهما لليل والنهار رقيبان ، ولرضوى وشمام (٢) نسيبان ، ومن زحل والمريخ قريبان ، ولعوادى الخطوات خطيبان ، ولثور الفلك روقان ، ولشخص الكرة الترابية ساقان

ومن رسائله ما كتبه العماد منشورا عن لسان الملك العادل نور الدين لاتخاذ الحمام وتدريبه على الطيران لنقل الكتب :

« . . . هى رائد الأنباء ، المخصوصات بفضيلة الإلهام والإيحاء ، وهى فيوج (٣) الرسائل المأمونة الإبطاء ، والسابقات الهوج (٤) فى الاهتداء ، والحاملات ملطفات الأسرار فى أقرب مدة إلى أبعد غاية ، والموصلات مهمات الأخبار فى وقتها من أقاصى الأمصار بأكمل هداية ، والقاطعات فى ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامى ، والنافذات بنجح المرام إلى المرامى ، وهى تطوى

---

(١) توقل فى الجبل : صعد فيه .   (٢) رضوى وشمام : جبلان .

(٣) جمع فوج وهو الجماعة من الناس . والمعروف فى كتب اللغة أن الجمع فؤوج لا فيوج .   (٤) المسرعة .

الفراسخ البعيدة والأشواط فى ساعة ، وتنتهى إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعة ، وقد عم بها نفع المرابطين ، والغزاة والمجاهدين فى سبيل الله ، فى إهداء أخبار الكفرة إليهم فى أماكنها ، دالة على مكايدها ومكامنها ، طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا ، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا ، وإنها لميمونة المطار ، مأمونة العثار ، سالمة على الأخطار ، مهدية فى الأسفار ، أمينة على الأسرار ، سابقة إلى الأوكار ، صادرة بالأوطار من الاقطار... »

وقد وصف العماد القاضى الفاضل بقطعة من النثر الفنى منها : « . . . وهو المولى القاضى الأجل ، الفاضل الأسعد ، أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف أبى المجد على بن الحسن بن البيسانى ، صاحب القران ، العديم الأقران ، وواحد الزمان ، العظيم الشان ، رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذى ماسمع له بمماثل فى الأوائل ، ممن لو عاش فى زمانه لتعلق بغباره ، أو جرى فى مضماره . فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع . يخترع الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار . وهو ضابط الملك بآرائه ، ورابط السبل بآلائه . إن شاء أنشأ فى يوم واحد بل فى ساعة مالو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة . أين قيس فى مقام حصافته ، وحاتم وعمرو فى سماحته وحماسته ؟ وفضله بالإفضال حال ، ونجم قبوله فى أفق الإقبال عال ، لامن فى فعله ، ولا مين فى قوله ، ولا خلف فى وعده ، ولا بطء فى رفده . الصادق الشيم ، السابق بالكرم ، ذو الوفاء والمروءة والصفاء والفتوة ، والتقى والصلاح ، والندى والسماح . منشر رفات العلم ، وناشر راياته ، وجالى غيابات الفضل وتالى آياته . وهو من أولياء الله الذين خصوا بكرامته ، وأخلصوا لولايته ، قد وفقه الله للخير كله ، وفضل هذا العصر على الأعصار السالفة بفضله ونبله . فهو مع مايتولاه من أشغال المملكة الشاغلة ، ومهماته المتفرقة فى العاجلة ، لا يغفل عن الآجلة ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صلواته ، وحفظ أوراده ووظائفه ، وبث أصفاده (١) وعوارفه ، ويختم كل يوم القرآن المجيد ، ويضيف إليه ماشاء الله من المزيد . . . » .

---

(١) جمع صفد : وهو العطاء ، ومثلها العوارف .

الشعر فى العصر الأيوبى

صور ونماذج له

قال ابن مطروح (١) يصف حسناء تسير بليل :

وما أنس لا أنس المليحة إذ بدت   دجى فأضاء الأفق من كل موضع
فحدثت نفسى أنها الشمس أشرقت   وأنى قد أوتيت آية يوشع (٢)

وقال فى الغزل :

يا من لبست عليه أثواب (٣) الضنى   صفرا موشعة بحمر الأدمع
أدرك بقية مهجة لو لم تذب   أسفا عليك نفيتها عن أضلعى

وقال أيضا :

ملك الملاح ترى العيـــو   ن عليـه دائرة يطق(٤)
وبخيم بين الضـــلو   ع وفى الفؤاد له سبق (٥)

وقال ابن النبيه (٦) يصف الحياة والموت :

الناس للموت كخيل الطراد   فالسـابق السابق منها الجواد .

---

(١) هو جمال الدين يحيى بن عيسى الشهير بابن مطروح من أهل صعيد مصر . ولد بأسيوط ، ونشأ بقوص ، واتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، وخدمه بالكتابة ، وكان زميلا للبهاء زهير . ثم اعتزل الخدمة ومات سنة ٦٤٩ هـ .

(٢) يوشع : وهو صاحب موسى عليهما السلام ، وقد وقفت له الشمس فى قصة معروفة .   (٣) ثوب موشع : فيه خطوط وطرائق .

(٤) اليطق : كلمة تركية ، ومعناها : جماعة من الجند يبيتون حول خيمة الملك يحرسونه .   (٥) السبق : خيمة الملك.

(٦) هو أبو الحسن على بن محمد الشهير بابن النبيه المصري صاحب الشعر الرقيق والغزل البديع . كان من خدام بنى أيوب ملوك الشام والجزيرة من أقارب صلاح الدين . واختص منهم بالملك الأشرف موسى الملقب بشاه أرمن . توفى بنصيبين من مدن الجزيرة سنة ٦١٩ هـ . عن نحو ٦٠ سنة .

والله لا يدعو إلى داره ... إلا من من استصلح من ذى العباد
والموت نقاد على كفه ... جواهر يختار منها الجياد
والمرء كالظل ، ولابد أن ... يزول ذاك الظل بعد امتداد
لا تصلح الأرواح إلا إذا ... سرى إلى الأجساد هذا الفساد
أرغمت ياموت أنوف القنا ... ودست أعناق السيوف الحداد (١)

وللبهاء زهير فى الشكوى(٢) :

ليت شعرى هل زمانى ... بعد ذا البخل يجود ؟
ما أرى الشدة إلا ... كلما مرت تزيد
ينقضى يوم فيوم ... فى حديث لا يفيد
فمتى اليوم الذى أبـ ... ـلغ فيه ما أريد ؟

وقال فى عتاب الحبيب والتشوق إليه :

يعاهدنى : لا خانتى ؟ ثم ينكث ... وأحلف : لا كلمته ! ثم أحنث
وذلك دأبى لا يزال ودأبه ... فيا معشر الناس اسمعوا وتحدثوا
أقول له : صلنى ! يقول : نعم غدا ! ... ويكسر جفنا هازئا بى ويعبث !
وماضر بعض الناس لوكان زارنى ؟ ... وكنا خلونا ساعة نتحدث
أمولاى ، إنى فى هواك معذب ! ... وحتام أبقى فى العذاب وأمكث ؟
فخذ مرة روحى ترحنى ولم أكن ... أموت مرارا فى النهار ، وأبعث (٣)
وإنى لهذا الضيم منك لحامل ... ومنتظر لطفا من الله يحدث ؟
أعيذك من هذا الجفاء الذى بدا ... خلائقك الحسنى أرق وأدمث (٤)
تردد ظن الناس فينا وأكثروا ... أقاويل : منها ما يطيب ، ويخبث
وقد كرمت فى الحب منى شمائل ... ويسأل عنى من أراد ويبحث ؟

---

(١) القنا : جمع قناة وهى الرمح .
(٢) هو بهاء الدين زهير بن محمد المهلبى الصالحى . ولد قرب مكة . وجاء مصر ، فنشأ بقوص نشأة أدبية ، واتصل بالملك الصالح المتقدم ذكره فكان عنده رئيس ديوان الإنشاء (بمنزلة وزير) : وتوفى سنة ٦٥٦ هـ . (٣) يقال : أخذ الشىء مرة ، أى دفعة واحدة (٤) المكان الدمث : اللين السهل ، ودماثة الأخلاق رقتها .

وقال فى التغزل ، وتلاعب بالتورية والطباق ومراعاة النظير :

غيرى على السلوان قادر   وسواى فى العشاق غادر
لى فى الغرام سريرة   والله أعلم بالسرائر
ومشبه بالغصن قلـ   ـبى لا يزال عليه طائر
حلو الحديث ، وإنها   لحلاوة شقت مرائر (١)
أشكو وأشكر فعله   فاعجب لشاك منه شاكر ؟
لا تنكروا خفقان قلـ   ـبى ، والحبيب لدى حاضر
ما القلب إلا داره   ضربت له فيها البشائر
يا تاركى فى حبه   مثلا من الأمثال سائر
أبدا حديثى ليس بالـ   ـمنسوخ إلا فى الدفاتر
ياليل مالك آخر   يرجى ولا للشوق آخر
ياليل طل ، يا شوق دم ،   إنى على الحالين صابر
لى فيك أجر مجاهد   إن صح أن الليل كافر (٢)
طرفى وطرف النجم فيـ   ـك كلاهما ساه وساهر
يهنيك : بدرك حاضر   ياليت بدرى كان حاضر (٣)
حتى يبين لناظرى   من منهما زاه وزاهر
بدرى أرق محاسنا   والفرق مثل الصبح ظاهر (٤)

وقال يتغنى بأرض الوطن : مصر العزيزة :

سـق واديا بين العريش وبرقة   من الغيث هطال الشآبيب هتان (٥)

---

(١) المرائر : جمع مرارة ، وهى هنة شبه كيس لازقة بالكبد .

(٢) فى كافر تورية من الكفر ، أى أن له أجر المجاهد الذى يقتل كافرا ، لأن الشاعر يقطع الليل كله ساهرا . أو من قولهم : الليل كافر ، أى ساتر .

(٣) بدر المعشوق : هو الكوكب المضىء بالليل . وبدر الشاعر : هو المعشوق .

(٤) فى الفرق تورية : فرق الشعر ، وفرق ما بين الأمرين .

(٥) الشآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر . الهتان : المنصب المتتابع

وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى ... هنالك أوطانا إذا قيل أوطان
بلاد متى ماجئتها جئت جنة ... لعينك منها كل ماشئت رضوان (١)
تمثل لى الأشواق أن ترابها ... وحصباءها مسك يفوح وعقيان (٢)
فيا ساكنى مصر تراكم علمتم ... بأنى مالى عنكم الدهر سلوان ؟
وما فى فؤادى موضع لسواكم ... ومن أين فيه ؟ وهو بالشوق ملآن
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا ... فتهدأ أحشاء وترقأ أجفان
على لذاك اليوم صوم نذرته ... وعندى على رأى التصوف شكران

وللعماد يرثى السلطان صلاح الدين فى قصيدة طويلة منها :

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية ... مرجوة رهباته وهباته ؟
أين الذى كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربه طاعاته ؟
بالله أين الناصر الملك الذى ... لله خالصة صفت نياته ؟
أين الذى مازال سلطانا لنا ... يرجى نداه وتتقى سطواته ؟
أين الذى شرق الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته ؟
أين الذى عنت الفرنج لبأسه ... ذلا ومنها أدركت ثاراته ؟
فعلى صلاح الدين يوسف دائما ... رضوان رب العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فان يغب ... تحضر لرحمة ربه سقياته
من للثغور وقد عداها حفظه ... من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت ... من سلها وركوبها غزواته

وللبهاء زهير يمدح السلطان الصالح نجم الدين أيوب :

فاليك يانجم السماء فانى ... قد لاح نجم الدين لى يتألق
الصالح الملك الذى لزمانه ... حسن يتيه به الزمان ورونق
ملك يحدث عن أبيه وجده ... سند لعمرك فى العلا لا يلحق
سجدت له حتى العيون مهابة ... أو ما تراه حين يقبل تطرق ؟
رحب الجناب خصيبة أكنافه ... فلكم سدير عندها وخورنق
قيدت فى مصر إليك ركائبى ... غيرى يغرب تارة ويشرق

---

(١) الرضوان : الرضا . (٢) العقيان : الذهب الخالص .

وحللت عندك إذ حللت بمعقل ... يلق لديه مارد والأبلق (١)
وتيقن الأقوام أنى بعدها ... أبداً إلى رتب العلا لأسبق
فرزقت مالم يرزقوا ونطقت ما ... لم ينطقوا ولحقت مالم يلحقوا

وقال فى المشيب :

فقد انجلى ليل الشبا ... ب وقد بدا صبح المشيب
ورأيت فى أنواره ... ما كان يخفى من عيوبى

وقال :

أنا فى الحب صاحب المعجزات ... جئت للعاشقين بالآيات
كان أهل الغرام قبلى أميـ ... ين حتى تلقنوا كلماتى
فأنا اليوم صاحب الوقت حقاً ... والمحبون شيعتى ودعاتى
ضربت فيهم طبولى وصارت ... خافقات عليهم راياتى
خلب السامعين سحر كلامى ... وسرت فى عقولهم نفثاتى
أين أهل الغرام أتلو عليهم ... باقيات من الهوى صالحات
ختم الحب من حديثى بمسك ... رب خير يجىء فى الخاتمات

ولابن مطروح :

خذوا حذركم من طرفها فهو ساحر ... وليس بناج من دهته المحاجر
فان العيون السود وهى فواتر ... تقد السيوف البيض وهى بواتر
ولا تخدعوا من رقة فى كلامها ... فان الحيا للعقول تخامر
منعمة لو صادف الورد خدها ... بكت وجرت من مقلتيها بوادر
من القاصرات الطرف غارت لحسنها ... ضرائرها والنيرات الضرائر
فلو فى الكرى مر النسيم بطيفها ... سرى راندا من طيبها وهو عاطر
قلائدها تشكو الظما ووشاحها ... وإن شرقت من معصميها الأساور
بعيدة ما بين الخلخل والطلى ... ترى الطرف عنها ينثنى وهو حاسر (٢)
إذا ما اشتهى الخلخال أخبار قرطها ... فياطيب ما تملى عليه الضفائر
ويا عاذلى بالله ما أنت عاذر ... أعن مثل هذا الحسن تثنى النواظر
أعن قدها تثنى يدى وهو أهيف ... وعن فها تحمى فمى وهو عاطر

---

(١) مارد : حصن بدومة الجندل والأبلق حصن بتيماء . (٢) الطلى : الاعناق.

وحين أراد الفرنسيون العودة إلى دمياط قال فى ذلك ابن مطروح :

قل للفرنسيس(١) إذا جئته ... مقال صدق من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا ترى منهم ... إلا قتيلا أو أسيرا جريح
وفقك الله لأمثالها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أظهروا عودة ... لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

وقال كمال الدين بن النبيه يمدح الملك الأشرف موسى بن أبى بكر بن أيوب :

يا نار أشواق لا تخمدى ... لعل ضيف الطيف أن يهتدى
حسبته ماء فصادفته ... لمع سراب ليس يروى الصدى
تكلفت عينى له هجعة ... كنغبة الطائر فى المورد
صور فى مرآتها صورة ... تجل عن لمس فم أو يد
إن نعمت فى الليل روحى به ... فسوف يشقى جسدى فى غد
الصد والهجران قد جمعا ... بالله قل لى فبمن أقتدى
أشكو إلى الله ملولا إذا ... قلت انتهى فى هجره يبتدى

ومنها :

يا ملك الأرض وإن كان فى ... حصونه يا ملك الفرقد
ملأتها(٢) بالخيل والرجل وبالـ ... ـبيض المواضى والقنا الأملد
تكاد أن تزحف يوم الوغى ... إلى العدا من أفقها الأبعد

---

(١) كان ملك الفرنج لويس التاسع وقد أسره توران شاه بعد انتصاره على الصليبيين فى واقعة دمياط وحبسه فى دار ابن لقمان ، يحفظه الطواشى جمال الدين صبيح المعظمى ، وهى دار الحكومة التى كان ينزل بها القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء كلما جاء المنصورة فى عمل يتعلق بوظيفته ـ النجوم الزاهرة ٢٦٦ : ٢ ، المقريزى ٢٢٢ : ١ (٢) الضمير فى ملأتها وفى تكاد فى البيت بعده يعود على الحصون .

لبست منها تاج ملك على   كسرى أنو شروان لم يعقد

وقال يمدحه ويستعطفه :

أفديه ان حفظ الهوى أوضيعا   ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه   حلو فقد جهل المحبة وادعى(١)
يأيها الوجه الجميل تدارك الصـ   ـبر الجميل فقد عفا وتضعضعا
هل فى فؤادك رحمة لمتيم   ضمت جوانحه فؤادا موجعا ؟
هل من سبيل أن أبث صبابتى   أو أشتكى بلواى أو أتوجعا؟
إنى لأستحيى كما عودتنى   بسوى رضاك إليك أن أتشفعا
يا عين عذرك فى جبينك واضح   سحى لفرقته دما أو أدمعا
الله أبدى البدر من أزراره   والشمس من قسمات موسى أطلعا
الأشرف الملك الذى ساد الورى   كهلا ومكتمل الشباب ومرضعا
ردت به شمس السماح على الورى   فاستبشروا ورأوا بموسى يوشعا(٢)
سهل إذا لمس الصفا سال الندى   صعب إذ الحظ الأشم تصدعا
أيضيق بى حرم اصطناعك بعدما   قد كان منفرجا على ، موسعا
هذا وقد طرزت باسمك مدحة   لا ترتضى شنف الثريا مسمعا
وعلى كلا الحالين إنى شاكر   داع لأن الله يسمع من دعا

وقال علم الدين أيدمر يمدح السلطان الصالح نجم الدين أيوب ويصف الأبنية التى أنشأها بجزيرة مصر والبرج المجدد على المقياس ويذكر يوم التخليق(٣) :

الروض مقتبل الشبيبة مونق   خضل يكاد غضارة يتدفق
نثر الندى فيه لآلىء عقده   فالزهر منه متوج ومنطق (٤)
وارتاع من مر النسيم به ضحى   فغدت كمائم زهره تتفتق
وسرى شعاع الشمس فيه فالتقى   منها ومنه سنا شموس تشرق

---

(١) الظلم بالضم الجور ، وبالفتح الريق . (٢) كان يوشع يحارب الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل أن يفرغ من قتالهم ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه فدعا الله فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم ، وقد وردت القصة فى سفر يشوع فى العهد القديم الإصحاح العاشر . (٣) هو يوم فتح الخليج . وكانوا يذهبون إلى المقياس ويخلقون عموده بأنواع الطيب أى يدهنونه . (٤) منطق : محوط بنطاق.

والغصن مياس القوام كأنه ... نشوان يصبح بالنعيم ويغبق(١)
والطير ينطق معربا عن شجوه ... فيكاد يفهم عنه ذاك المنطق
غردا يغنى للغصون فتنثنى ... طرباً جيوب الظل منه تشقق
والنهر لما راح وهو مسلسل ... لا يستطيع الرقص ظل يصفق
لله يوم كان فضلك باهرا ... فيه ، ومنك جماله والرونق
يوم تجلى الدهر فيه بزينة ... لما غدا المقياس وهو مخلق (٢)
هو ثالث العيدين إلا أنه ... للهو ليس على العبادة يطلق

وقال أبو الحسن على بن الساعاتى فى فتح طبرية (٣) :

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الإسلام لما ... غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما ... يعز على العوالى أن يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء ... وأنت تقاتل الأعداء دينا
غدت فى وجنة الأيام خالا ... وفى جيد العلا عقدا ثمينا
فيا لله كم سرت قلوبا ... ويا لله كم أبكت عيونا
وما طبرية إلا هدى(٤) ... ترفع عن أكف اللامسينا
لقد جردت عزما ناصريا ... يحدث عن سناء طورسينا
فكنت كيوسف الصديق حقا ... له هوت الكواكب ساجدينا
وإن تك آخرا وخلاك ذم ... فإن محمدا فى الآخرينا

وقال القاضى السعيد ابن سناء الملك فى مدح السلطان صلاح الدين عند عزمه على فتح حلب :

بدولة الترك عزت دولة العرب ... وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب
إن العواصم كانت أى عاصمة ... انفسها بتعاليها عن الرتب

---

(١) يصبح : يشرب الصبوح وهو ما يشرب غدوة . ويغبق : أى يشرب الغبوق وهو ما يشرب بالعشى (٢) مدهون بالخلوق وهو نوع من الطيب فيه صفرة . (٣) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ٨٤ : ٢

(٤) الهدى على وزن فعيل : العروس .

تطوى البلاد وأهليها كتائبه … طيا كما طوت الكتاب للكتب

أرض الجزيرة لم تظفر بمالكها … بمالك فطن أو سائس درب

حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت … من الفساد كما صحت من الوصب

وقد حواها وأعطى بعضها هبة … فهو الذى يهب الدنيا ولم يهب

ومذ رأت صده عن ربعها حلب … ووصلها لبلاد الغير بالحلب

غارت عليه ومدت كف مفتقر … منها إليه وأبدت وجه مكتئب

واستعطفته فوافتها عواطفه … وأكثب الصلح إذ ناداه عن كثب

وحل منها بأفق غير منخفض … للصاعدين وبرج غير منقلب

فتح الفتوح بلا مين وصاحبه … ملك الملوك ومولاها بلا كذب

وقال سبط بن التعاويذى يمدح السلطان صلاح الدين الأيوبى وأنفذها من بغداد على يدى رسوله إلى دمشق :

حتام أرضى فى هواك وتغضب … وإلى متى تجنى على وتعتب ؟

ما كان لى لولا ملامك زلة … لما مللت زعمت أنى مذنب

أتظننى أضمرت بعدك سلوة … هيهات عطفك من سلوى أقرب

لى فيك نار جوى ما تنطفى … حرقاً وماء مدامع ماينضب

أنسيت أياما لنا ولياليا … للهو فيها والبطالة ملعب

قد كنت تنصفنى المودة راكبا … فى الحب من أخطاره ما أركب

فاليوم أقنع أن يمر بمضجعى … فى النوم طيف خيالك المتأوب (١)

ماخلت أوراق الصبا تذوى نضا … رتها ولا ثوب الشبيبة يسلب

حتى انجلى ليل الغواية واهتدى … سارى الدجى وانجاب ذاك الغيهب

ومنها :

بك ياصلاح الدين يوسف أكتسى النـ … ـائى ورق المقشعر المجدب

ذلت أخلاق الزمان لأهله … فأطاع وهو الخالع المتعصب

ونهضت للاسلام نهضة صادق الـ … ـعزمات ترأب من ثأه وتشعب (٢)

وغضبت للدين الحنيف ولم تزل … فى الله ترضى منذ كنت وتغضب

---

(١) تأوب : رجع (٢) ثأه : خرمه وفتقه . وشعب الشىء أصلحه وجمعه .

ولما وصل السلطان صلاح الدين إلى حمص وخيم بالعاصي جاءه الفقيه مهذب الدين الموصلي وأنشده :

أما وجفونك المرضى الصحاح … وسكرة مقلتيك وأنت صاحي
لقد أصبحت في العشاق فردا … كما أصبحت فردا في الملاح
وما سألوك عقـــد الصلح ودا … ولكن خوف معلمة رداح (١)
ملأت بلادهم سهلا وحزنا … أسودا تحت غابات الرماح

وقال عمر بن الفارض :

أدر ذكر من أهوى ولو بملام … فإن أحاديث الحبيب مدامى
ليشهد سمعي من أحب وإن نأى … بطيف ملام لا بطيف منام
فلي ذكرها يحلو على كل صيغة … وإن مزجته عذلي بخصام
وقال اسل عنها لائمي وهو مغرم … بلومي فيها قلت ؟ فاسل ملامي
بمن أهتدي في الحب لو رمت سلوة … وبي يقتدي بالحب كل إمام ؟
ولما تلاقينا عشاء وضمها … سواء سبيلي دارها وخيامي
وملنا كذا شيئا عن الحي حيث لا … رقيب ولا واش بزور كلام
فرشت لها خدي وطاء على الثرى … فقالت لك البشرى بلثم لثامي
فما سمحت نفسي بذلك غيرة … على صونها مني لغير مرامي

وقال :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة … سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وقال ابن قلاقس (٢) من قصيدة يمدح بها ياسر بن بلال :

---

(١) يريد : الكتيبة الثقيلة الجرارة .

(٢) هو أبو الفتح نصر الله بن عبد الله الشهير بن قلاقس اللخمي الاسكندري الملقب بالقاضي الأعز . كان شاعرا مجيد رحالا مداحا ، دخل المغرب وصقلية ، ومدح أمراءها ، كما مدح أعيان دولة الفاطميين . ثم ذهب إلى اليمن ومدح ملوكها . ومات بعيذاب ، وكان مرسى السفن المقلعة من مصر على بحر القلزم (الأحمر) إلى الحجاز ، وقد ولد عام ٥٣٢ وتوفي عام ٥٦٧ ﻫ .

سافر إذا حاولت قدرا ... سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى ... طيباً ، ويخبث ما استقرا
وبنقلة الدرر النفيـ ... ـسة بدلت بالبحر نحرا
وصلا إذا امتلأت يدا ... ك فإن هما خلتا فهجرا (١)
فالبدر أنفق نوره ... لما بدا ثم استترا (٢)
حركات عيسك ما أرد ... ت مهاد عيشك أن تقرا (٣)
فالمهد أسكن للصبي ... ى بحيث جاء به ومرا
إما تريني شاحب الـ ... ـوجنات قد ألبست طمرا (٤)
فوقائع الأيام تخـ ... ـرج أهلها شعثا وغبرا
مدت إلى الأربعـو ... ن يداً ، وقد قهقرت عشرا
واستحدثت في لمتى ... نقطا . فهلا كن جبرا ! (٥)
ماقلت : أف ! فإنها ... شرر بأف يعود جمرا
وكفاك أني إن نظر ... ت لها نظرت النجم ظهرا (٦)
كان الشباب الغض ليـ ... ـلا فاستنار الشيب فجرا
ولئن تقلب بي الزما ... ن كما اشتهى بطنا وظهرا
فبما قتلت صروفه ... وقتلته حساً وخبرا
غاض الوفاء ، وفاض ما ... ء الغدر أنهاراً وغدرا
فانظر بعينك هل ترى ... عرفا وليس تراه نكرا ؟

---

(١) وصلا أى صل وصلا . والمعنى ابق فى بلدك .
(٢) أنفق نوره ، أى لقى محبة وإعجابا ، وهو من أنفق القوم : إذا راجت تجارتهم .
(٣) حركات عيسك : أى اعمل حركة لعيسك إذا أردت قراراً لعيشك ، أى إن الغنى بالسعى وإنما يسكن الصبى فى مهده إذا اهتز وجاء به إلى ناحية ومر إلى أخرى .
(٤) الطمر : الثوب البالى . (٥) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن
(٦) أى كلما نظرت إلى الشعرات البيض فى لمتى اسودت الدنيا فى عينى وكأنى أنظر النجوم فى الظهر ، وذلك مأخوذ من المثل العامى « يريه النجوم فى الظهر » .

خلق جرى من آدم فى نسـله ، وهـلم جرا
ومروعى بالبحر يحـسب أنى أرتاع بحـرا
أو مادرى أنى بتسـهيل المصاعب منه أدرى

وقال مرتجلا وقد خر السقف عليه من أثر مطر هاطل :

ولما بدا ركب السحاب تسوقه حداة الرياح الهوج وهى تزمجر (١)
ركنت لبيت أستجن من الحيا به وإذا غيث من السقف يقطر (٢)
فلا فرق ما بين السحاب وبيته سوى أن ذا صاف ، وذاك مكدر

---

(١) الهوج . جمع هوجاء وهى الريح الشديدة التى لاتستوى فى هبوبها بل تتناوح.
(٢) استجن : استتر . والحيا : المطر .

شعراء مصريون فى العصر الأيوبى

علم الدين أيدمر

نشأ فى الدوحة السعيدية ، فنمت أزاهره ، حتى خرج آية فى كل فن ، وبرع فى المنثور والمنظوم ، مع الطبع الفاضل الذى عضده ، وبلغه من رياسة هذا الشأن ماقصده(١) . . وقد عاش فى عصر الدولة الأيوبية ، فى أوائل القرن السابع ، وعاصر البهاء زهير وابن مطروح وسواهما .

ويمتاز شعره بالإطالة ، وبالرقة والعذوبة مع المتانة ، وبظهور المحسنات والصنعة البديعية فيه ، يقول من شعره :

قضت لك الشيمتان : العدل والكرم ... أن تخضع الأمتان : العرب والعجم
وشرف الدين والدنيا بدولتك الـ ... ـغراء ، والأشرفان : العلم والعلم

ويقول :

ملك إذا امتدت يداه إلى العدا ... يوم الوغى تتقاصر الأعمار

ويقول :

هو الناهب الأرواح والواهب اللهى ... وبانى العلا والناسك المتورع

ويقول واصفاً حماماً أحمر العين والرجل :

وأليف غصن لا يفارقه ... صب الفؤاد به متيمه
يدعو بصوت أستبين به ... معنى الحنين ، ولست أفهمه
فيميل بى طرباً تمايله ... ويهزنى شوقاً ترنمه
يبدى أسى الباكى ورقته ... فى نوحه ، والدمع يكتمه
نحر الأسى إنسان مقلته ... لجرى لخضب رجله دمه

ويقول من موشح :

أنت ياموسى رجائى آنسا
نار جدواه فوافى قابسا
وحت فى حضرة قدس دائسا

---

(١) فوات الوفيات ٧٦:١

فى طوى السؤدد ، فاخلع نعلكا ... وادعه يأت بكبرى يوشع

وقد أجاد أيدمر المحيوى فى المدح ، وهو الغرض الأول فى شعره ، يقصد إليه قصداً ، ويلم بغيره عرضا من غير قصد ، يبدأ به قصيدة المدح أو يختم به الموشح ، وكان ما أتى به عرضاً يدخل فى الوصف أو فى الغزل ، ولنقف وقفات لدى كل غرض من تلك الأغراض التى طرقها .

قال أيدمر فى أحد ممدوحيه :

متفرغ للمجد ، لاهو من دد ... يلهيه عن كرم ولا منه دد
البيض من صنع القيون لدى الوغى ... يطربنه ، لا البيض مما يولد
والأسمر الخطار يبهج نفسه ... ويسرها لا الأسمر المتأود

ويقول للملك الصالح :

ملك يلوذ الدين منه بمعقل ... أشب ، سطاه سوره والخندق
فالدين بعد تفرق متجمع ... والكفر بعد تجمع متفرق

ويقول له :

فاسلم لدين قد هديت إليه من ... لايهتدى ، وجمعت مالا يجمع
وحميت حوذته ، فأصبح وهو فى ... أيام دولتك الأعز الأمنع

ويقول للملك الكامل :

فالله يشهد أن دين محمد ... بمحمد ، ولله الخليقة تشهد

ويقول له :

لولاه كان الدين سرحا ماله ... راع ، وزندا ماعليه سوار

ويقول :

من ألقت الدنيا مقالد أمرها ... بيديه وهو بها أحق وأليق
ذو صورة تنبيك عنه أنه ... ملك الملوك الحق حين يحقق

ومنها :

لجلست حيث جلست منه تزينه ... شرفا فطاف بك الملوك وأحدقوا
كل يغض من المهابة طرفه ... فتراه ، وهو لغير فكر يطرق
هيهات جزت مدى الملوك إلى مدى ... رجم الظنون إليه لا يتطرق

ويقول :

منح رآك الله أهلا أن تقا ... دما فتسلك الذى تتقلد
ذكرت مفاخرها الملوك وخير ما ... ذكرته منها أنها لك أعبد
ذكراك فيهم سجدة مسنونة ... فلذا متى تذكر لديهم يسجدوا
فاذا هم نظروا إليك فأعين ... حسرى ، وأفئدة تقوم وتقعد
ملك الملوك وخير من عقدت له التـ ... ـيجان فى قدم الزمان وتعقد

ويقول أيضا :

أيام قال الشرك بغياً للهدى ... دمياط لى ، ولك الغداة الموعد
وأتى بما ملأ البسيطة كثرة ... والله ربك هادم ما شيدوا
جيش إذا مسحت يداه بقعة ... جف المياه بها ، وذاب الجلمد
كالسيل إلا أنه لا ينقضى ... والليل إلا أنه يتوقد
وأتى بك الأسلام وحدك موقناً ... أن سوف تهزم جمعهم وتبدد
حتى إذا التقيا طلعت عليهما ... بالنصر تشق من تشاء وتسعد
فرددت شخص الشرك وهو مسربل ... خزيا ، ودين الله وهو مؤيد
حكمت بأسك فيهم : فكم ... وبجدل ، ومشرد ، ومصفد

واستمع إليه يقول :

قد قلت -إذ جاء بالفتح البشير به ... الله أكبر هذا غاية الأمل
ترنح الدهر ، واهتزت معاطفه ... وراح يسحب ذيل التيه والجذل
والأرض قد أخذت للناس زخرفها ... وازينت ،فهى فى حلى وفى حلل
مسرة فى قلوب الناس قد ظهرت ... حتى على شرف الجدران والقلل

وهو يؤمن بأن دمشق سوف تنال الخير والسعادة ، وسوف تصبح فى دعة وأمن ، مادامت فى وحدة مع مصر :

فليهن جلق أنها قد أصبحت ... فى مستقر الملك ، لا تتحول
وأنا الضمين بأن سيسلى جلقاً ... عما مضى من عمرها ما يقبل

وقال يمدح الملك الكامل :

الله جارك ، والورى أنصار ... فانهض ، ونل بهما الذى تختار
خضعت لهيبتك الأقارب والعدا ... وجرت بوفق مرادك الأقدار

ملك إذا امتدت يداه إلى الظبا   يوم الوغى تتقاصر الأعمار
من وجهه قمر ينير ، وسخطه   قدر يبير ، وحدسه إبصار
وإذا القلوب تطايرت فى موطن   نزلت عليه سكينة ووقار
ملك له من بأسه وغنائه   حصن أشم ، وجحفل جرار
ملك يميل إلى المكارم لا الدمى   وتهزه العلياء لا الأوتار
ملك تهيم به بنات قلوبنا   حباً ، وتعشق مجده الأشعار
لولاه كان الدين سرحا ماله   راع ، وزنداً ما عليه سوار

ويقول من موشح :

قال لى العاذل لما نظرا
من غدا قلبي به مشتهرا :
أكذا تعشق ؟ ماذا بشرا
حاش لله ؟ أراه ملكا   مثل ذا فاعشق ، وإلا فدع
هز عطف الغصن من قامته
مطلعا للشمس من طلعته
ثم نادى البدر فى ليلته :
أيها البدر تغيب ويحكا   ما احتياج الناس للبدر معى ؟

وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه ، وتوفى أيدمر نحو عام ٦٤٠ هـ .

عمـارة اليمنى

٥١٥ — ٥٦٩ هـ

شاعر سياسى كبير ، كانت حياته مزيجا من النعيم والشقاء ، ونهايته المحزنة جديرة بأن تثير العطف والإشفاق . ولد سنه ٥١٥ وتوفى سنة ٥٦٩ هـ مصلوباً ، وكان عربيا فقيهاً أديباً ، وله كتاب ذكر فيه أحواله وأخباره باليمن ثم بمصر ، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه فيها مذهب الإمام الشافعى . قال : ولى فى الفرائض مصنف يقرأ باليمن ، وفى سنة ٥٣٩ هـ زارنى والدى وخمسة من إخوتى بزبيد ، فأنشدته شيئا من شعرى فاستحسنه ، ثم قال : تعلم والله إن الأدب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بذم الناس ، واستحلفنى ألا أهجو مسلما ببيت شعر ، فحلفت له على ذلك .

وحج مع أم فاتك ملك زبيد ، وقد حصل له وجاهة عندها ، فأثرى وكثر ماله . ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن . ثم رجع سنة ٥٤٩ هـ فطلب منه والى الحرمين السفارة عنه إلى الدولة المصرية . قال : فقدمتها سنة ٥٥٠ هـ ، والخليفة يومئذ الفائز ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فلما حضرت للسلام عليهما فى قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم   حمدا يقوم بما أولت من النعم

وفى هـذه القصيدة يقول :

فهل درى البيت أنى بعد زورته   ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها   بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامـة أنوار مقدسـة   تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنـا   على الخفيين من حكم ومن حكم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقـداً   فوز النجاة ، وأجر البر فى القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما   وزيره الصالح الفراج للغمم

قال عمارة : « وكان الصالح يستعيدها مراراً ، والأستاذون والأمراء والكبراء يذهبون فى الإحسان كل مذهب ، ثم أفيضت على خلع من ثياب الخلافة مذهبة

ودفع إلى الصالح خمسمائة دينار ، وإذا بعض الأستاذين قد خرج لى من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى ، وحمل المال معى إلى منزلى ، وأطلقت لى من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلى » .

ولما اتثالت عليه الصلات ، وطاب له بمصر المقام قال :

ليالى بالفسطاط من شاطئ مصر سقى عهدك الماضى عهاد من القطر
ليال هى العمر السعيد وكل ما مضى من سواها لا يعد من العمر
أفادتنى الأقدار فيها مواليا صفت بهم الأيام من كدر الغدر
تواصوا على ألا ترد إرادتى ولو سمتهم نثر الكواكب فى حجرى

وكان من أظهر أخلاق عمارة الوفاء ، فلما قتل الصالح بن رزيك وجلس شاور فى دار الذهب ، وقام الشعراء والخطباء ينالون من بنى رزيك ، أبى عمارة أن يمسهم بهجاء ، فكان مما قاله :

زالت ليالى بنى رزيك وانصرمت والحمد والذم فيها غير منصرم

إلى أن قال :

ولم يكونوا عدواً ذل جانبه وإنما غرقوا فى سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمى عداك سوى تعظيم شأنك فاعذرنى ولا تلم
ولو فتحت فمى يوما بذمهم لم يرض فضلك إلا أن يسد فمى

فشكره شاور وأبناؤه على الوفاء لبنى رزيك .

ولما زالت دولة الفاطميين ، وكان لهم مخلصا ولفضلهم ذاكرا ، امتلأ قلب عمارة حزناً عليهم ، وحسرة على ما مضى من أيامهم ، ولكنه اضطر إلى مدح صلاح الدين ، فمن مدائحه فيه قوله :

صحت به مصر وكانت قبله تشكو سقاماً لم يعن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت فى عصره والدهر ولاد لكل عجيب
رد الإله به قضية يوسف نسقاً على ضرب من التقريب
جاءته إخوته ووالده إلى مصر على التدريج والترتيب

وهو كما ترى شعر عامى لم يخرج من القلب .

وما زالت ذكرى الفاطميين تعاوده ، والأسف عليهم يهتاجه ، حتى نظم قصيدته المشهورة فى رثاء دولتهم ، وهى تشرح كثيراً من أحوال الفاطميين

وعاداتهم وأيامهم ، وتعد من أجود الشعر فى رثاء الدول .

قال المقريزى وبسبب هـذه القصيدة قتل عمارة (رحمه الله) وتمحلت له الذنوب ، وأول هذه القصيدة :

رميت يادهر كف المجد بالشلل   وجيده بعد حلى الحسن بالعطل

ومنها :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة   على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها   من المكارم ما أربى على الأمل

وفيها يندد بالفظائع التى أوقعها بهم بنو أيوب :

ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة   فى نسل آل أمير المؤمنين على ؟
هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما   ملكتم بين حكم السبى والنفل

ومنها فى ذكر مكارم الفاطميين وأيامهم وعاداتهم :

دار الضيـافة كانت أنس وافدكم   واليوم أوحش من رسم على طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم   تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست   ورث منها جديد عنهم وبلى
وموسم كان فى كسر الخليج لكم   يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدان كان لكم   فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى عيد الغدير بما   يهتز مابين قصريكم من الأسـل
والخيل تعرض فى وشى وفى شية   مثل العرائس فى حلى وفى حلل
ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الـ   أطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهـل ملتكم   حتى عممتم به الأقصى من الملل
وللجوامع من أحباسكم نعم   لمن تصـدر فى علم وفى عمل

ابن الفارض

٥٧٦ — ٦٣٢ هـ

هو عمر بن علي بن المرشد الحموي ، ابن الفارض المصري المولد والدار والمثوى . كان صالحاً ورعاً إذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ، وإذا حضر مجلساً استولى السكون على من فيه ، ويمتاز شعره بأنواع البديع ، وهو ينحو فيه منحى الصوفية ، وكان يكثر من نعت الخمر ومن الغزل ، يريد بذلك الذات الإلهية على طريقة الصوفية . ومن شعره تائيتان كبرى وصغرى تبلغ الأولى أكثر من سبعمائة بيت ، والثانية تناهز المائة ، وفيها من أغراض الصوفية وطرقهم شيء كثير .

وكان ربعة في الرجال ، وسيما أبيض الوجه مشربا بحمرة ، وكان في أحوال نسكه تنتابه غشية يزيد وجهه عندها جمالا وتلألؤا ، ويتصبب العرق من جسمه حتى يبلل الأرض ، وإذا مشى تكاثر الناس حوله لتقبيل يديه ، وكان في أول عهده بالتجرد عن الدنيا ، يستأذن والده ليذهب إلى ناحية في سفح المقطم ، وكان يقيم هناك بعيدا عن الناس ليالي وأياما ، ثم يضطر إلى الرجوع إلى المدينة للبقاء مع أبيه حينا ، وكان أبوه في ذلك الحين في منصب شرعي جليل ، وكان من أعماله كتابة فروض النساء ، لذلك سمي ابنه بابن الفارض ، فكان الوالد يسر عند عودة ابنه إليه ، فلا يكاد يمكث حينا حتى تحن نفسه إلى العودة إلى الانفراد والخلوة ، وهكذا استمر على ذلك مراراً ، ثم عرض منصب القضاء على أبيه فأبى ، واستقال من عمله ، واعتزل الناس هو أيضا ، وتفرغ للعبادة في خلوة بالأزهر ، فلما مات أبوه رجع ابن الفارض إلى ما كان عليه من التجرد والبعد عن الناس والتحنث والزهد ، وبينما كان في أحد الأيام في المدرسة السيوفية ، قابل أحد الصوفية فنصح له أن يذهب إلى مكة فسافر إليها ، وأقام بها خمس عشرة سنة ، ثم عاد إلى القاهرة فكان موضع إجلال الناس ، يبالغون في تعظيمه ، ويتنافسون في التقرب إليه ، ثم حج إلى البيت الحرام ثانية ، وهناك قابل شهاب الدين أبا حفص عمر السهروردي ، ثم عاد إلى مصر وتوفي بها سنة ٦٣٢ هـ . ودفن بالقرافة بسفح المقطم .

وديوان شعره مشهور ذائع ، وهو شعر صوفي ، يكثر فيه البديع مع الإجادة

والرقة وطول النفس ، وكان شعر ابن الفارض موضع عناية الأدباء ، فتناوله كثير من الشراح ، وأشهر شراحه الشيخ حسن البوريني المتوفى سنة ١٠٢٤ هـ . وتناول فى شرحه ظاهر الألفاظ ، وما يؤخذ منها من المعانى ، وشرحه الشيخ عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ هـ شرحا صوفيا ، وقد اشتهرت تائيته الكبرى وعدد أبياتها ٧٦٢ ، ومنها :

هو الحب إن لم تقض لم تقض مأربا ... من الوصل فاختر ذاك أو خل خلتى
ودع عنك دعوى الحب واختر لغيره ... فؤادك وادفع عنه غيك بالتى
وجانب جناب الوصل هيهات لم يكن ... وها أنت حى إن تكن صادقا مت
وقالوا : تلاف ما بقى منك قلت : لا ... أرانى إلا للتلاف تلفتى
غرامى أقم ، صبرى انصرم ، دمعى انسجم ... عدوى انتقم ، دهرى احتكم ، حاسدى اشمت

ومن غزله الصوفى :

مالى سوى روحى وباذل نفسه ... فى حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها لقد أسعفتنى ... يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

وكل شعره من هذا الطراز ، رقة وانسجاما وجنوحا إلى البديع وانتحاء منحى التصوف .

وهو فى قصائده الصوفية ينظم حبا لله متفانيا فى شعوره وإحساساته ، كمن يجد الله فى جميع الأشياء . فهى تبدو كالدمى المتحركة فى خيال الظل . وهو العلة الأولى ، وكل الأشياء تصدر عنه وكلها مدبرة به :

ترى صور الأشياء تجلى عليك من ... وراء حجاب اللبس فى كل خافة
تجمعت الأضداد فيها لحكمة ... فأشكالها تبدو على كل هيئة
صوامت تبدى النطق وهى سواكت ... تحرك تهدى النور غير ضوية
وتضحك إعجاباً كأجذل فارح ... وتبكى انتحاباً مثل ثكلى حزينة
وتندب إن أنت على سلب نعمة ... وتطرب إن غنت على طيب نغمة
ترى الطير فى الأغصان يطرب سجعها ... بتغريد ألحان لديك شجية
وتعجب من أصواتها بلغاتها ... وقد أعربت عن ألسن أعجمية

ثم يلخص هذا كله فى قوله :

فكل الذى شاهدته فعل واحد ... بمفرده لكن بحجب الأكنة
إذا ما أزال الستر لم تر غيره ... ولم يبق بالأشكال إشكال ريبة

وحققت عند الكشف أن بنوره اهـ تديت إلى أفعاله في الدجنة

ويتحدث عن الجمال الإلهي الذي يتجلى في كل الأشياء الجميلة :

تراه إن غاب عنى كل جارحة ... في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمة العود والناي الرخيم إذا ... تألفا بين ألحان من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في ... برد الأصائل والإصباح في البلج
وفي مساقط أنداء الغمام على ... بساط نور من الأزهار منتسج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا ... أهدى إلى سحيرا أطيب الأرج
وفي التثامي ثغر الكاس مرتشفاً ... ريق المدامة في مستنزه فرج

ويرى أن على الروح أن تنشد الله بكد وتضحية :

وأين الصفا هيهات من عيش عاشق ... وجنة عدن بالمكاره حفت

ويقول أيضاً :

لأنت منى قلبي وغاية بغيتي ... وأنت مرادى واختيارى وخيرتى

وابن الفارض يتحدث عن شوقه إلى الجمال الإلهي وعن آلام الصوفي حتى يحقق شوقه :

ودعت قبل الهوى روحي لما نظرت ... عيناى من حسن ذاك المنظر البهج
لله أجفان عين فيك ساهرة ... شوقا إليك وقلب بالغرام شجى
وأضلع نحلت كادت تقومها ... من الجوى كبدى الحرا من العوج
وأدمع هملت لولا التنفس من ... نار الهوى لم أكد أنجو من اللجج
وحبذا فيك أسقام خفيت بها ... عنى تقوم بها عند الهوى حججى
أصبحت فيك كما أمسيت مكتئبا ... ولم أقل جزعا يا أزمة انفرجى
أهفو إلى كل قلب بالغرام له ... شغل وكل لسان بالهوى لهج
وكل سمع عن اللاحى به صمم ... وكل جفن إلى الإغفاء لم يعج
عذب بما شئت غير البعد عنك تجد ... أوفى محب بما يرضيك مبتهج

وهو في شعره عاشق يتأجج نظمه بحرارة عاطفته وحيوية احساسه الباطن . ولكن العشق نتيجة العلم ، فكل من يعرف الله يعشقه ، وهو يقول عن موهبة العلم ، وعما تقود إليه من الكشف :

فالدياجى لنا بك الآن غر ... حيث أهديت لى هدى من سناكا
ومتى غبت ظاهرا عن عيانى ... ألقه نحو باطنى ألقاكا

ثم يقول :

واقتباس الأنوار من ظاهرى غيـ   ـر عجيب وباطنى مأواكا

ويسترسل قائلا :

قال لى حسن كل شىء تجلى   بى تملى فقلت قصدى وراكا
لى حبيب أراك فيه معنى   غر غيرى وفيه معنى أراكا
إن تولى على النفوس تولى   أو تجلى يستعبد النساكا
فيه عوضت عن هداى ضلالا   ورشادى غيا وسترى انهتاكا
وحد القلب حبه فالتفاتى   لك شرك ولا أرى الاشراكا
يا أخى العذل فى من الحسن مثلى   هام وجداً به عدمت أخاكا
لو رأيت الذى سبانى فيه   من جمال ولن تراه سباكا

ويستعمل ابن الفارض فى قصيدته الخمرية لغة رمزية دقيقة الرمز. فهو يتحدث عن الخمر التى تسكر الشارب حتى قبل أن تخلق ، مشيرا بذلك إلى سكر الروح بخمر العشق الإلهى فى حالة وجودها السابق مع الله :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

ثم يسترسل قائلا :

لها البدر كأس وهى شمس يديرها   هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم

فالبدر هو الولى الكامل الذى يتجلى فيه الله تمام التجلى ، والذى يمتلىء بالعشق الإلهى ، والهلال هو اللاأدرى لايزال مستترا وراء ذاته الشخصية ، وحين يمتزج التملى المجرد بالدين ، والطالب كالمسافر الذى يهتدى بالنجوم .

ويتحدث من جديد عن الرؤيا التى تمنح إلى محب الله فى أبيات من أجمل أبياته . وهذه الرؤيا تأتى بعد الجهد والعناء :

زدنى بفرط الحب فيك تحيرا   وارحم حشاً بلظى هواك تسعرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقة   فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترى
ياقلب أنت وعدتنى فى حبهم   صبرا فحاذر أن تضيق وتضجرا
إن الغرام هو الحياة فمت به   صبا فحقك أن تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلى ومن   بعدى ومن أضحى لأشجانى يرى
عنى خذوا وبى اقتدوا ولى اسمعوا   وتحدثوا بصبابتى بين الورى

ويتحدث كذلك عن مكافأة الروح التى صبرت إلى النهاية :

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفى نظرة أملتها فغدوت معروفاً وكنت منكرا
فدهشت بين جماله وجلاله وغدا لسان الحال عنى مخبرا
فأدر لحاظك فى محاسن وجهه تلق جميع الحسن فيه مصورا
لو أن كل الحسن يكمل صورة ورآه كان مهللا ومكبرا

جمال الدين الجزار

٦٠٣ — ٦٧٩ ه

هو الشاعر المصرى جمال الدين يحيى بن عبد العظيم المعروف بالجزار ، كان أبوه وأقاربه جزارين بالفسطاط ، ولكنه تطلع إلى الأدب وشغف به ، حتى صار حامل لواء الشعر فى عصره .

كانت الفسطاط إذ ذاك لا تزال محتفظة بجلالها وسموها إلى جانب القاهرة كركن قوى للناحية الأدبية فى مصر ، فكان الفكر يتغذى من المسجد الجامع والمدارس الأخرى حوله ، كما يرتوى من الجامع الأزهر والمدارس الكثيرة التى أنشأها صلاح الدين ، إذ لم تكن عوامل العمران والسياسة قد بلغت بعد من القوة ما يمكنها من تحويل تيار ثقافة الفسطاط فى هذا الزمن القصير الذى أخذت القاهرة تنافسها فيه . وإلى جانب هذه البيئات العلمية الزاخرة لم يكن هناك حاجز يحول بين العلم وطالبيه أيا كانت درجة السن والمادة ، وإنما كان المدار على الرغبة الصادقة ، والفكر الموهوب ، فكانت كل هذه الوسائل معاونة للناشىء الصغير : يحيى الجزار ، على ورود مناهل العلم ، كلما ألح عليه ذكاؤه وطموحه ، ولو لم يحدثنا التاريخ عن بعض شيوخه ومن رووا عنه لعلمنا أنه كون نفسه بالاختلاف إلى تلك الدوائر العلمية الرحيبة فى الفسطاط ، أو على الأقل بالاحتكاك مع بعض الأدباء الذين يعرفهم والده أو يتعاملون معه ولكن أبا المحاسن ذكر أنه تلقى العلم عن « أحمد ابن الحباب » كما أخبر أن « الدمياطى » و « ابن الحلوانية » رويا عنه . وأتم ثقافته وقوم تفكيره بمعونة أبيه الذى كان يشد أزره ، ويدفعه إلى عبور هذا

السبيل ، فرحا بنجابة ولده ، متوسما فيه أسعد طالع ، يدلنا على ذلك مارواه ابن تغرى بردى (١) حيث يقول : « قيل إنه لما كان أبو الحسين (الجزار) صغيرا نظم أبياتا قلائل ، وكان أديب ذلك الزمان « ابن أبي الأصبع » (٢) فأخذه أبوه وتوجه به إليه، وقال ياسيدى قد نظم هذا الولد شعرا، وأشتهى أن يعرضه عليك فقال : قل ؛ فلما أنشده قال له: « أحسنت ! إنك والله عوام مليح ! ! » وبعد أيام حمل والده طعاما وحمله إلى ابن أبي الأصبع فقال له : لأى شىء فعلت ؟ فقال : لشكرك ولد المملوك فقال : أنا ماشكرته ،فقال : ألم تقل له إنك عوام مليح ؟ ، فقال : « ما أريد بذلك الا أنه خرج من بحر إلى بحر . ! » فمن ذلك الحديث نرى كيف كان يحيى ملحوظا من أبيه بعين الاهتمام وهو مافتىء على باب الشعر صبيا يحبو ويتعثر ، ولعله كان يختلف به هكذا على كبار الأدباء باذلا لهم ما يستطيع ، ليقوموا على رعايته وتربيته ، حتى يظهر ذلك النبوغ الملتمع فى الطفولة .

ولقد درج يحيى فى عصر زاهر أخذ بأسباب النهوض فى جميع مرافق الحياة .

والجزار ماجن بفطرته ، حلو النادرة ، لطيف المحاضرة ، سمير أنيس ، متودد إلى الناس ، لم يهج أحدا من شعراء عصره : وهو شاعر قدير عذب التركيب منسجمه ، غواص على المعانى ، فصيح الألفاظ ، كل هذه الصفات دفعته إلى الحياة التى أحبها وسهلتها له ، لحياته كانت بين أندية الأدب ، ومجالس الأنس والطرب : حياة للجسم فيها متاع ، وللروح فيها أنس ولذة .

قضى حياته يمدح الملوك والأعيان والأدباء ، ويعيش على جوائزهم ومنحهم ، لا يحمل هم غده إن نال اللذة والمتاع فى يومه ، فهو مبذر لا تكاد خلته تسد أبدا ، وهو على مايؤخذ من ظاهر شعره مسرف على نفسه ، لا يرعوى عن قبيح ولا يدفع نفسه عن شهوة ، وقد نبغ فى الشعر نبوغا كبيرا .

ومن مدحه الممزوج بالغزل ، وهو يمدح بها « صدر الدين القرمسينى » ناظر الإسكندرية :

رشأ كلما بدا وتثنى ... قلت بدر يديه غصن قويم

ريقه خمرة ، ومن فمه الكأ ... س ، وخداه الورد وهو النديم

---

(١) « المنهل الصافى » الكتاب الثالث من النسخة الخطية بدار الكتب .

(٢) سيأتى ذكره بعد .

ساحر المقلتين ، فاعجب لقلب   نفذ السحر فيه وهو الكليم
يازمان الوصال ما كان أحلا   ك ! فمن لى لو كنت شيئا يدوم
أين أيامنا التى سلفت وهـ   ى بجيد الزمان عقد نظيم
وثغور الرياض تبسم بالنو   ر إذا مابكت عليها الغيوم
والليالى كأنما هى أسحا   ر فكل الهــواء فيها نسيم
زمن مر وهو حلو ، وعيش   فات فيه من المنى ماأروم
قر صدرى به كأيام « صدر الـ   دين » لا تهتدى إليه الهموم
الرئيس المذكور ، والسيد المشـ   كور حكما ، والصاحب المخدوم
والإمام الذى هو البحر لكن   هو عذب ، والموج فيه العلوم
صاحب السطوة التى يقعد الدهـ   ر امتثالا لأمرها ويقوم
رب جود ، للقاصدين لمغنا   ه جنان فيها نعيم مقيم
بيته كعبة ، ومن بابه للعافـ   ـين ركن مقبل ملثوم
كفه زمزم تفيض على الوافـ   ـد جودا والمال فيها الحطيم
هو أولى بالرفع ان أعرب الدهـ   ـر ، وعمر العدا به مجزوم
نثر المال واغتدى ينظم المجـ   ـد فمنه المنثور والمنظوم
عارف بالبديع لم يخف عنه   النقص منا يوما ولا التتميم
ويجيز « الإيطاء » فى الجود لكن   شانا نحن فى المديح « اللزوم »
شاد مجدا بناه والده المر   جو فينا وجده المرحوم

ومن ذلك أيضا قوله فى الملك الناصر بن المعظم صاحب الكرك ، وهو من أفراد الأسرة الأيوبية :

ملك تشرف الملوك إذا ما   أصبحت فى الزمان وهى عبيده
شاد بالبأس والمكارم ملكا   أسسته آباؤه وجدوده
تفضح الدهر منه أخلاقه الزهـ   ـر ، ويزرى على السحائب جوده
ثابت الجأش عندما يقلق الجيـ   ـش ، ويخشى ريب الحمام أسوده
هو فى الحالتين غيث وليث   يرتجى وعده ويخشى وعيده

وكان له أصدقاء كثيرون يمدحهم ويحيونه بشعرهم ، ومنهم كمال الدين بن العديم وابن مطروح ، وسراج الدين الوراق ، وصدر الدين القرمسيني ناظر الإسكندرية ثم الغربية ، وإبراهيم بن نصر ، وسواهم .

وهذه إحدى قصائده وهو متردد بين البقاء على هذه الحالة البائسة أو الرجوع إلى مهنة الجزارة :

بك يا ابن نصر جئت أر   جو نصرة ، فانعم وبادر
وأجر من الزمن الذى   دارت على به الدوائر
أصبحت فى أمرى ولا   أشكو لغير الله ، حائر
واللحم يقبح أن أعو   د لبيعه والشعر بائر
ياليتنى لا كنت جزا   را ولا أصبحت شاعر ! !

وما أبدع ما قال :

لا تلمنى يا سيدى شرف الد   ين إذا ما رأيتنى قصابا !
كيف لا أشكر الجزارة ماعشـ   ـت ، حفاظا ، وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيـ   ـنى ، وبالشعر كنت أرجو الكلابا

جمال الدين بن مطروح

٥٩٢ — ٦٤٩ هـ : ١١٩٦ — ١٢٥١ م

شاعر مصرى أصيل عاش فى ظلال الدولة الأيوبية فى عصر الكفاح والنضال الدينى والعسكرى والسياسى بين مصر وأوربا المسيحية ، وصور معالم هذا النضال وأهدافه ، قال ابن مطروح فى أند حار الصليبيين :

قل للفرنسيس إذا جئته   مقالة صدق من قئول فصيح
آجرك الله على ما مضى   من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصر تبتغى أخذها   تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم   ضاق به عن ناظريك الفسيح
رحت وأصحابك ودعتهم   بقبح أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم   إلا قتيل أو أسير أو جريح
فردك الله إلى مثلها   لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضيا   فرب غش أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا إنه   أنصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم إن أضمروا عودة   لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشى صبيح

وله فى الملك الصالح :

يا بن الملوك الأكرمين ومن لهم　　همم بها سدوا الفضاء الأوسعا
وإذا النجوم سمت لتدرك مجدهم　　رجعت ولم تبلغ تدامم ظلعا
أيجوز أن أبقى ببابك ظامئا　　ونداك قد وسع الخلائق أجمعا
ولو ادعيت بأن مالك ناصح　　مثلى شهدت بصدق هذا المدعى
ومع النصيحة فالتخلق بالوفا　　خلق خلقت عليه لا متطبعا
ومحبة لدى ولحى مازجت　　وهوى حنيت عليه منى الأضلعا
ولطالما جربتنى فوجدتنى　　أجدى من الملأ الكثير وأنفعا
وأسد آراء وأثقب فكرة　　وأشد عارضة وألطف موقعا
فعلام بعد الإصطفاء نبذتنى　　نبذ النواة بقول واش قد سعى
وسمعت فى حق كلام معاشر　　أقصى منام أن أبيت مضيعا
حق العذول بأن يقول فيفترى　　لكن أجلك أن يقول فتسمعا
ان كنت خنتك ظاهراً أو باطنا　　فخسرت دنياى وآخرتى معا
أأودكم فى عنفوان شبيبتى　　وأحول اذ عهد الشبيبة ودعا

وله فى الصالح نفسه أيضاً :

يا من علا فى ملكه فاقترب　　ومن بدا فى نوره فاحتجب
ومن هو القصد لأهل النهى　　والمطلب الأسنى وكل الأرب
عودتنى الانس فلا تنسنى　　ووهبتنى الرحمة فيما تهب
ونفحة من نفحات الرضا　　تطفىء عنى لفحات الغضب
وقد قدمت اليوم يا سيدى　　عليك ضيفا آخذا بالحسب
معتمدا منك على راحم　　مستمسكا منك بأوفى سبب

وقال فى هذا اليوم بعينه :

قدمت عليك يارب البرايا　　فآمن روعتى يوم القدوم
وكيف ولا أخاف ولى ذنوب　　قدمت بها على الملك العظيم
فما قدمت بين يدى زادا　　ولكنى قدمت على كريم

وقال أيضا فى اليوم نفسه وأوصى أن يكتب على قبره :

أتجزع للموت هذا الجزع　　ورحمة ربك فيها الطمع ؟
ولو بذنوب الورى جئته　　فرحمته كل شىء تسع

البهاء زهير الشاعر المصرى

٥٨١ – ٦٥٦ هـ

شاعر مصرى مشهور ، امتاز فى شعره بتمثيل القومية المصرى ، وروح الشعب ، وظهور خصائص الفكر المصرى ، وغلب عليه البديع ، والرقة ، وظهرت فى شعره بعض الألفاظ العامية المصرية ، ويقول عن نفسه :

مازال شعرى فيه للروح راحة　　وللهم مسلٍ ، وللغم مصرف

وهو أبو الفضل زهير بن محمد بن على المهلبى ، كان من فضلاء عصره وأجودهم نظما ونثرا وخطا ، اتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب فولاه ديوان الإنشاء ، وقد حافظ على ولائه للصالح فى أثناء نكبته ، فلما عاد إلى الملك زاده منه تقربا واتصالا ، وكان بينه وبين ابن مطروح مودة ومحاورات أدبية ، ويمتاز شعره بالرقة وخفة الروح ، وهو فى هاتين نسيج وحده لا يشابهه فيهما مشابه ، حتى أصبح شعره مضرب المثل فى العذوبة والسهولة ، ومثالا للشعر المصرى فى أجمل صوره ، وقد تناول ديوانه فنون الشعر وأغراضه ، وله مجون لطيف ومزاح مقبول .

ومن قوله الرقيق فى الغزل الذى يشبه النثر لولا وزنه وقافيته :

إن شكا القلب هجركم　　مهد الحب عذركم
لو رأيتم علكم　　من فؤادى لسركم
قصروا مدة الجفا　　طول الله عمركم

وقال وقد تقدمت به السن :

قالوا كبرت عن الصبا　　وقطعت تلك الناحيه
فدع الصبا لرجاله　　واخلع ثياب العاريه
ونعم كبرت وإنما　　تلك الشمائل باقيه
وتفوح من عطفى أنـ　　ـفاس الشباب كما هيه
ويميل بى نحو الصبا　　قلب رقيق الحاشيه
فيه من الطرب القديـ　　ـم بقية فى الزاويه

ومن مجونه قوله :

لك ياصديق بغلة　　ليست تساوى خردله

تمشى فتحسبها العيون   على الطريق مشكله
وتخال مـــدبرة إذا   ما أقبلت مستعجله
مقدار خطوتها الطويـ   ـلة حين تسرع أنمـــله
تهتز وهى مكانها   فكأنما هى زلزله
أشبهتها بل أشبهتـك   كأن بينكما صـــله
تحكى صفاتك فى الثقا   لة والمهانة والبله

ومن قوله فى الرثاء :

ياواحداً ما كان لى غيره   بعدك وا قلة أنصارى
يامنتهى سؤلى ويامشتكى   حزنى وياحافظ أسرارى
الدار من بعدك قد أصبحت   فى وحشة يامؤنس الدار
إن كنت قد أصبحت فى جنة   إنى من فقدك فى نار
جارك قلبى كيف أحرقته   والله أوصى الجار بالجار

ومن قوله فى قصيدة يخاطب الملك الصالح :

هذا زهيرك لازهير مزينة   وافاك لا هرماً على علاته
دعه وحولياته ثم استمع   لزهير عصرك حسن ليلياته

وفى شعره يقول البهاء :

كلامى غنى عن لحون تزينه   له « معبد » من نفسه و « مخارق »
يغنى به الندمان وهو سلافة   وينشده الصوفى وهو رقائق

أما الناحية الواقعية فى شعره فكانت تتمثل فى وصف الحوادث التى كانت تقع له ساعة الفراق أو التلاق ، والليالى التى كان يقضيها على شاطىء النيل ، وما يلقاه فى أسفاره ومعاملته ونحو ذلك ، وفى هذه الناحية تلمح ميزة أخرى هى : دقة التصوير للحوادث والعوطف النفسية ، حتى يكاد الخيال يمثل فى إحدى قطعه الوصفية صور الأشخاص كأنها حية تروح وتغدو ، وهذا دليل العقل الناضج والخيال المنظم ، وهاك صورة صغيرة يرسم فيها موقف فراق :

جاءت تودعنى والدمع يغلبها   يوم الرحيل وحادى البين منصلت
وأقبلت وهى فى خوف وفى دهش   مثل الغزال من الأشراك ينفلت
فلم تطق خيفة الواشى تودعنى   ويح الوشاة لقد قالوا وقد شمتوا
وقفت أبكى وراحت وهى باكية   تسير عنى قليلا . . ثم تلتفت
فيا فؤادى : كم وجد وكم حرق   ويا زمانى : ذا جور وذا عنت !

ابن التعاويذى

٥١٩ — ٥٨٤ هـ

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله ، كان أبوه مولى لبنى المظفر ، والتعاويذى نسبة إلى التعاويذ جمع تعويذة وهى الحرز ، اشتهر بها جده لأمه ، وقد نسب إليه لأنه كفله صغيراً . قال عنه ابن خلكان : «كان شاعر وقته لم يكن فيه مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ، ورقة المعانى ودقتها ، وهو فى غاية الحسن والحلاوة ، وفيما أعتقده لم يكن قبله بمائتى سنة من يضاهيه (١) »... وكان كاتباً بديوان المقاطعات ببغداد وعمى فى أواخر عمره سنة ٥٧٩ ، وله فى عماه أشعار يرثى بها عينيه ويندب شبابه . وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل عماه وعمل له خطبة ظريفة قدمه بها . وقد مدح من خلفاء بنى العباس المستضىء والناصر ومدح صلاح الدين الأيوبى ، والقاضى الفاضل . وقد ذكر العماد الأصبهانى فى خريدته أن ابن التعاويذى كان صاحبه لما كان بالعراق فلما انتقل العماد إلى الشام واتصل بخدمة صلاح الدين كتب إليه ابن التعاويذى يطلب فروة ، وأرسل إليه رسالة ظريفة وقصيدة ، وقد كتب إليه العماد جواب القصيدة ثم قال فى حقه : « هو شاب فيه فضل وآداب ورياسة وكياسة ومروءة وفتوة . جمعنى وإياه صدق العقيدة فى عقد الصداقة ، وقد كملت فيه أسباب الظرف واللطف واللباقة » .

---

(١) ٢٥ : ٢ وفيات الأعيان .

ابن قلاقس

(٥٣٢ — ٥٦٧ هـ ١١٣٨ — ١١٧٢ م)

— ١ —

ولد فى ثغر الإسكندرية ، فى رابع ربيع الآخر عام اثنين وثلاثين وخمسمائة، وأبو عبد الله بن مخلوف بن على ، وسمى نصر الله ، ولقبه الناس بعد ذلك بالقاضى الأعز ، وشهر فى كتب الأدب بابن قلاقس ، وأرجح سبب لكنيته الأخيرة أن أحد الأجداد فى عمود نسبه يسمى بقلاقس ، فحمل حفيده الشاعر النسبة إليه .

ولد هذا الطفل العربى الذى كان على ما يظهر نحيفا ضئيل الجسم ، وظلت صفة النحافة ملازمة له ، لم تبرحه طوال حياته ،حتى قال حينما كبر يحدثنا أن ضآلة الجسم لا تحول بينه وبين العلا :

جوهر المرء نفسه وبها الفضـ ـل ، وما غير ذاك فهو فضول
والصغير الحقير يسمو به السـ ـير فيعنو له الكبير الجليل
فرزن البيدق التنقل حتى إذ حط عنه فى قيمة الدست فيل

ويروى بعض الرواة أنه لم تكن له لحية ، ولكن شعره يحدثنا أنه كان خفيف العارضين حيث يقول :

لا تغرنك اللحى من أناس درجوا كالحمير تحت المخالى
ولئن خف عارضاى فإنى لا أبالى بكل وافى السبال

وقد درس فى الأزهر ، وصحب الشيخ الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد السلفى ، وهو أحد الحفاظ الذين رحلوا فى طلب الحديث ، ولقى المشايخ الأعلام ودرس الفقه على مذهب الشافعى ، ثم ألقى عصا التسيار بالإسكندرية ، حيث قصده أهل العلم من البلاد النائية ، ويقال : إنه لم يكن فى آخر زمانه مثله ، ولقد بنى الوزير المصرى وزير الظاهر العبيدى له مدرسة بالإسكندرية وكل أمرها إليه ، فقام بأعبائها .

واتصل ابن قلاقس بهذا العالم وانتفع بصحبته كثيراً ، وهو فى شعره الذى

مدحه به، يدلنا على ما كان بينهما من أواصر المودة وقوة العلاقة، كان السلفي رجل حديث وقصة وأدب ولغة .

وقد عاش ابن قلاقس طوال حياته في عهد الدولة الفاطمية، تلك الدولة التي جعلت مصر سيدة لامبراطورية ضخمة تمتد من المحيط الأطلسي إلى نهر الفرات، غير أن شاعرنا كان في آخر عهودها، أي أنه كان في عهد ضعفها وانحلال قواها، إذ لم يكن الأمر والسلطان فيها للخليفة: يصرف الأمور ويدبر الشئون، ولكنهما كانا في أيدي الوزراء يفعلون ما يفعلون، ويدعون ما يدعون، ويولون الخلافة من يشاؤون، فقام التنافس على الوزارة . كل يرجوها لنفسه ويصرف في سبيل نيلها ما شئت من مال وجند، مما كان مدعاة لأن توجه مصر قواها إلى نصر بعض بنيها على بعض لا إلى عدو آخر مغير، ولهذا كان تاريخ الدولة الفاطمية في آخر عهدها تاريخا للنزاع الذي كان قائما حينذاك بين الوزراء، ولعل ضعف سلطة الخليفة في أكثر المدة التي عاشها ابن قلاقس هي التي لم تدعه إلى السعي للاتصال به، بل هو لم يتصل بأحد من رجال السياسة المصرية المبرزين إلا بشاور الذي تغلب على خصمه رزيك وانتزع منه الوزارة، ولا زال الغالب يجد النصير ويجد المادح، لهذا تسمع ابن قلاقس يقول له :

يا آل شاور أنتم دون الورى   للملك كالأرواح في أشباحه
وإلى معاليكم إشارة خرسه   وإلى أياديكم ثناء فصاحه

ويقول حينما انتصر على بني رزيك :

بك الإسلام قد لبس الشبابا   وكان سناه قد ولى فآبا
وهز الملك عطفيه بملك   تقلد أمره، وكفى، ونابا
وقد لبست به الدنيا حلاها   جلاها حسنها خودا كعابا
وقالوا: أطول الأملاك باعا   فقلت: نعم، وأنداهم جنابا
سلوا عنه بني رزيك لما   أفاد الحرب منهم والحرابا
فإن جعلوا الظلام لهم مطيا   فكم جعل النجوم لهم ركابا
ليهن الملك أن أمسى مصونا   عشية راح غيرهم مصابا

وله شعر يحدثنا فيه عما قام بين شاور وشيركوه الذي قدم لمساعدته، ثم أبى شاور أن يفي له بما عاهده فاضطر شيركوه إلى الانسحاب من مصر مؤقتا، ويقول في ذلك ابن قلاقس :

عارض الصفح فى يديك الصفاحا ... ورأى البأس ان تطيع السماحا
فرفعت الجناح عن جارم الذنب ... بعفو خفضت منه الجناحا
ووضعت السلاح حين أراك الـ ... حزم والرأى أن وضعت السلاحا
أىّ ثغر سما إليه أبو الفتـ ... ـح فلم يبتدر إليه افتتاحا
بخيول طارت بأجنحة النصـ ... ـر فراحت بها تبارى الرياحا
شاركت شيركوه فى النفس والما ... ل وصاحت به فصاحا فصاحا
طلب الأمن ، فاستجيب ، وما يعـ ... ـرف منك الطلاب إلا النجاحا
بعد ما ضيق الحمام عليه ... سبلا غودرت لديه فساحا
فليطل بعدها الفخار ، فقد را ... ح طليقا ليبضكم حيث راحا

وهو من أشهر شعراء هذه الدولة .

كان شاعرا مجيدا مدح القاضى الفاضل ، ودخل اليمن ومدح ياسرا وزيرها ، فأجزل صلته ، وفارقه وقد أثرى ، فركب البحر فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه ، فعاد إليه ومدحه بقصائد منها :

يا راوياً عن ياسر ... خبراً ولم يعرفه خبرا
اقرأ بغرة وجهه ... صحف المنى إن كنت تقرا
والثم بنان يمينه ... وقل السلام عليك بحرا
وغلطت فى تشبيهه ... بالبحر فاللهم غفرا
أو لست نلت بذا غنى ... جما ونلت بذاك فقرا
وعهدت هـذا لم يزل ... مدا وذاك يعود جزرا

ولد بثغر الإسكندرية سنة ٥٣٢ هـ وتوفى بعيذاب سنة ٥٦٧ هـ .

ابن سناء الملك

هو القاضى السعيد بن سناء الملك هبة الله ، كان شاعرا محظوظا فى الدنيا ، فنانا فى بدائعه وأخيلته ، وله ديوان جيمعه موشحات سماه دار الطراز. وهو مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨٤٠٥ أدب . . وكان للشعراء فى أيامه مجالس ومحافل يتناشدون فيها الأشعار ، وكانت له صلة وثيقة بالقاضى الفاضل وكانت بينهما رسائل ومطارحات شعرية ؛ ومن نثره فى وصف النيل فى سنة كان فيها ناقصا : أما أمر الماء فانه نضبت مشارعه ، وانقطعت أصابعه ، وتيمم

العمود لصلاة الاستسقاء ، وهم المقياس من الضعف بالاستلقاء . وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٨ .

وقد ترجم كتابيه « كشف المحجوب » والأشواق ، من العربية نيكلسون المستشرق الانجليزى المتوفى فى ٣٠ - ٨ - ١٩٤٥ .

وكان وافر السعادة محظوظاً فى الدنيا ، واتفق فى عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها وكان هو واسطة عقدها .

ومن جيد شعره القصيدة المشهورة التى منها :

سواى يخاف الدهر أو يرهب الردى   وغيرى يهوى أن يكون مخلدا
ولكننى لا أرهب الدهر إن سطا   ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا
ولو مد نحوى حادث الدهر كفه   لحدثت نفسى أن أمد له يدا

ومن قوله :

فلو أبصر النظام جوهر ثغرها   لما شك فيه أنه الجوهر الفرد
ومن قال إن الخيزرانة قدها   فقولوا له : إياك أن يسمع القد

وهو أول من أجاد الموشحات من المشارقة .

ابن الساعاتى

ومن الشعراء المبرزين : على بن رستم المعروف بابن الساعاتى ، له ديوان شعر أجاد فيه كل الإجادة ، وديوان آخر لطيف سماه مقطعات النيل ، وتوفى بالقاهرة عام ٦٠٤ هـ . ومن شعره :

لله يوم فى سيوط وليلة   صرف الزمان بأختها لا يغلط
بتنا وعمر الليل فى غلوائه   وله بنور البدر فرع أشمط
والطل فى تلك الغصون كلؤلؤ   رطب يصافحه النسيم فيسقط
والطير تقرأ والغدير صحيفة   والريح تكتب والغمام ينقط

ابن مماتى

هو الأسعد بن مماتى ، كان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، نظم سيرة السلطان صلاح الدين . وكتاب كليلة ودمنة . وله فى شخص ثقيل رآه بدمشق :

حكى نهرين ما فى الأر ض من يحكيهما أبدا
حكى فى خلقه ثوراً وفى أخلاقـه بردى

قال العماد : ولقيته فى القاهرة متولى جيش الملك الناصر . وكان هو وجماعته نصارى فأسلموا فى ابتداء الملك الصلاحى . وتوفى عام ٦١٦ هـ .

ابن النبيه المصرى

هو كمال الدين بن النبيه ، الشاعر المصرى الرقيق . مدح بنى أيوب . واتصل بالملك الأشرف موسى وكتب له . وأقام فى نصيبين ، وتوفى بها سنة ٦١٩ هـ .

وله القصيدة الرائعة :

باكر صبوحك أهنا العيش باكره فقد ترنم فوق الغصن طائره
والليل تجرى الدرارى فى مجرته كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب على يده مخلق تملأ الدنيا بشائره

ومنها :

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما وأنت ناه لهـذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله لكنه ربما مرت أواخره

* * *

من وحى الطبيعة المصرية

قال ابن ظافر (١) صرنا فى بعض العشايا على البساتين المجاورة للنيل ، فرأينا فيها بئرآ عليها دولابان متحاذيان ، وهما يئنان أنين الأشواق ، ويفيضان ماء أغزر من دموع العشاق ، والروض قد جلا للأعين زبرجده ، والأصيل قد راقه حسنه فنثر عليه عسجده ، والزهر قد نظم جواهره فى أجياد الغصون ، والسواقى قد أزالت من سلاسل فضتها كل مصون ، والنبات قد اخضر شاربه وعارضه ، وطرف النسيم قد ركض فى ميادين الزهر راكضه ، ورضاب الغيث قد استقر من الطين فى لمى ، وحيات المجارى حائرة تخاف من زمرد النبات أن يدركها العمى ، والبحر قد صقل النسيم درعه ، وزعفران العشى قد ألقى فى ذيل الجو درعه ، فأوسع ذلك المكان قلوبنا استحواذا ، وملأ أبصارنا وأسماعنا مسرة والتذاذا ، وجلسنا نتذاكر مافى تركيب الدواليب من الأعاجيب ، ونتناشد ما وصفت به من الأشعار الغالية الأسعار ، فأفضى بنا الحديث الذى هو ذو شجون إلى ذكر قول الأعمى (٢) التطيلى فى أسد نحاس يقذف الماء :

أســـد ، ولو أنى أنا قشه الحساب قلت : صخره
فـكأنه أســـد السما ء يمج من فيـــه المجره

فقال القاضى أبو الحسن على بن المؤيد . يتولد من هذا فى الدولاب معنى يأخذ بمجامع السامع ، ويطرب الرائى والسامع ، فتأملت ما قاله بين بصيرتى البصيرة ، واستمددت مادة غريزتى الغزيرة . فظهر لى معنى ملأنى إطرابا وإعجابا . وأطرق كل منا ينظم ماجاش به مد بحره ، وأنبأه به شيطان فكره ، فلم يكن إلا كنقرة العصفور ، الخائف من الناطور (٣)، حتى كمل ما أردناه من غير أن يقف واحد على ماصنعه الآخر فكان الذى قال :

---

(١) نفح الطيب ٢٩٢ : ٢

(٢) هو أبو جعفر الأعمى التطيلى ، وقال عنه فى مطمح الأنفس : له ذهن يكشف الغامض الذى يخفى ، ويعرف رسم المشكل ، وإن كان قد عفا ، . . . (صفحة ٢٨٥ من مطمح الأنفس) .

(٣) الناطور : حافظ الكرم .

حبذا ساعة العشى والدولاب يهدى إلى النفوس المسره
أدهم لايزال يعدو ولكن ليس يعدو مكانه قدر ذره
ذو عيون من القواديس يبكى كل عين من فائض الدمع ثره
فلك دائر يرينا نجوماً كل نجم يبدى لنا المجره

وكان الذى قلت :

ودلاوب يئن أنين ثكلى ولا فقدا شكاه ولا مضره
ترى الأزهار فى ضحك إذا ما بكى بدموع عين منه ثره
حكى فلكا تدور به نجوم تؤثر فى سرائرنا المسره
يظل النجم يشرق بعد نجم ويغرب بعد ما ترك المجره

فعجبنا من اتفاقنا وقضى العجب منه سائر رفاقنا .

من تاريخ مصر

كانت شجرة الدر أول سيدة تلى عرش مصر فى الإسلام، ولها تاريخ عجيب، أصلها من الوصائف (١) الروميات اللواتى كن فى قصر الأمير المصرى : الصالح (٢) نجم الدين أحد أولاد الملك الكامل . وامتازت بين أترابها (٣) فى القصر بالحسن والدهاء ووفرة الذكاء وشديد الاخلاص لسيدها الأمير . ولما مات الكامل انتقل الملك إلى ابنه الصغير العادل فقام أخوه الصالح يناوئه (٤) ويحاول أن ينتزع الملك منه ويرى أنه أحق به ووقعت بين الأخوين معارك دامية ومحن شديدة وقفت فيها شجرة الدر إلى جانب سيدها لتقويه وتشد أزره وتدعو الناس إلى تأييده حتى تم له ما أراد بخلع أخاه العادل وتولى مكانه وعندئذ أراد أن يكافىء جاريته التى شاطرته همومه ، وشاركته فى بؤسه ومحنته (٥) وكانت من عوامل فوزه وانتصاره ، فأعتقها وتزوجها وبالغ فى إكرامها وتنفيذ رغباتها حتى اتسع نفوذها، وأصبحت

---

(١) ما نسميه : الوصيفات أى : الخادمات . (٢) الملك السابع من الدولة الأيوبية ، وتوفى سنة ٦٤٨ هـ (٣) نظائرها . (٤) يناديه .
(٥) مصيبته .

وأصبحت متصرفة فى القصر كله بل فى المملكة جميعها . وقد تألق (١) نجمها حين قدم الصليبيون (٢) مصر بقيادة ملكهم : (لويس التاسع) ، وحاصروا دمياط ، والملك الصالح مريض ، والبلاد فى حيرة أمام العدو المغير ، فلم تضطرب من هول الحادث ، ولم تجزع للخطب المفاجىء ، بل أعدت للأمر ما يليق به ، فأشرفت على شئون الدولة بحذق ومهارة وراقبت تنظيم الجيش وسهرت على إعداده وتتبع أخباره . وقضى الملك الصالح نحبه قبل أن تنتهى الحرب إلى نتيجة حاسمة، فرأت من الحزم والحكمة أن تكتم خبر وفاته وبالغت فى الكتمان، حتى كانت تصدر الأوامر، وتبعث الرسائل إلى الجنود والحكام - بتوقيع الملك . كأنه حى وأرسلت إلى ابنه : (توران شاه) تستدعيه من الشام على عجل فلما حضر أعلنت وفاة أبيه وبذلت نفوذها فى توليته مكانه فنجحت فى ذلك كما يقول الباحث المؤرخ عنان .

غير أن (توران شاه) أفسد الحكم وأساء إلى شجرة الدر وإلى مماليك القصر فلم يغفروا هذه الإساءة وأضمروا له الشر . فلم يمض شهران على حكمه حتى قتلوه ونادوا بشجرة الدر ملكة على البلاد (٣) المصرية . وكان توليها الملك حادثاً فريدا فى تاريخ الأمم الإسلامية ، وأمرا فذا (٤) ، دوى فى مصر وغيرها إذ لم يسبق للمسلمين أن ولوا أمورهم امرأة (٥) فاضطربت النفوس وتهيأت للثورة لولا أن كتب الله لشجرة الدر توفيقا فى أول حكمها فقد استطاعت جيوشها أن تهزم الصليبيين أشنع هزيمة وتعصف بهم فى موقعة المنصورة الشهيرة وتأسر مليكهم وكثيرا من قوادهم وأمرائهم فأذلتهم وأخذت الفدية منهم وطردتهم إلى بلادهم صاغرين وتوددت إلى الشعب باحترام الدين وإعلاء شأنه وابتكرت (المحمل) الذى يسافر إلى الحجاز وأبدت فى ذلك كله حذقاً ودهاء وكياسة (٦) عجيبة فرضى فريق من الأمة عنها واطمأن لحكمها وبقى آخرون غاضبين فخافت غضبهم وخشيت ثورتهم، ورأت أن تتزوج بأحد المماليك وتنزل له عن الملك وتتقى شر الفتن والثورات . فاختارت لذلك (عز الدين أيبك) الذى سمى بعد ذلك : المعز، ونزلت له عن الحكم وعكفت على شئون قصرها تدبرها وتشرف عليها . ولكنها ظلت مع ذلك واسعة النفوذ عظيمة الجاه شديدة الاتصال بأعمال الحكومة حتى

---

(١) لمع . (٢) سنة ٦٤٧ هـ سنة ١٢٤٩ م . (٣) سنة ٦٤٨ هـ .
(٤) فريدا (٥) فى غير الهند (٦) الكياسة العقل والظرف

ضج الناس ، وخاف زوجها عاقبة أمرها ، وعجز عن صدها ، فهجر مسكنها في القلعة . واعتزم أن يذلها ، فتزوج أخرى . فتظاهرت بعدم الاهتمام ، ولكنها أضمرت في نفسها الانتقام منه . ودبرت مؤامرة لقتله ، فأرسلت تستعطفه وتتودد إليه ، وترجو أن يزورها . فتأثر برسالتها ، وخدع برقيق كلامها ، وذهب إلى قصرها ، فأكرمته ، وبالغت في مجاملته ، حتى أنس إليها ، واطمأن لها . وبينما هو في الحمام هجم عليه غلمانها وخدمها ، ففتكوا به على أشنع وجه ، ووقفت تصغي إلى صراخه ، وتطرب لاستغاثته ، فلا يرق لها قلب ، ولا يجزع لها فؤاد . ثم شاع خبر قتله ، فهاج الأمراء ، وطلبوا رأس شجرة الدر ، ولكن بعض أعوانها شفعوا لها ، ودافعوا عنها .

فلما تولى المنصور بن عز الدين الملك بعد أبيه — صمم على أن يثأر له (١) ، وينتقم من القتلة جميعا ، فقبض عليهم ، وأزهق أرواحهم . وأرجأ (٢) أمر زوجة أبيه إلى حين ، ولكن أعوانه وأقاربه لم يمهلوها تنعم بالحياة ، ولم يتركوها تتمتع بالهدوء قليلا ، فتسوروا (٣) القلعة ، واخترقوا البرج الذي تسكنه وانقضوا عليها كالأسود الجائعة ، تهجم على الفريسة الوادعة (٤) ، فأعملوا فيها السلاح ، وقضوا عليها شر قضاء . وبهذه الفاجعة المروعة انتهت حياة شجرة الدر .

---

(١) يأخذ بثأره . (٢) أخر . (٣) تسلقوا . (٤) الهادئة

مفخرة للأيوبيين

ومن مفاخر الأيوبيين : إنشاؤهم مدينة « المنصورة » التى انشئت لتكون حصنا من حصون الدفاع عن الوطن العزيز ، ومشى على أديمها أسلافنا الأبطال الذين دافعوا عن حمى الوادى المقدس ، وشهدت أروع الانتصارات فى تاريخ مصر الخالدة ، وأسهمت فى جميع العصور مساهمة كبيرة فى شتى ميادين النشاط القومى والثقافى والفكرى والأدبى .

ولقد نشأت المنصورة فى عهد الحملات الصليبية على مصر والشرق العربى ، فقد كان الشرق العربى منذ (٤٨٩ - ٦٦٦ هـ : ١٠٩٩ - ١٢٧٣ م) ميدانا لحروب دينية مدمرة ، سميت باسم الحروب الصليبية ، قام بها مسيحيو أوربا ، رغبة منهم فى وضع الأراضى المقدسة فى فلسطين تحت سيطرتهم ، ولتحقيق أهداف أخرى متشعبة الأطراف . ونجحت الحملة الأولى فى تحقيق بعض الأهداف ، وفشلت الثانية بفضل دفاع نور الدين السلجوقى ملك الشام عن بلاده ، كانت بطولة صلاح الدين الأيوبى عاملا قويا فى تخفيف شدة ضغط الصليبيين على فلسطين فى الحملة الثالثة ، ومنيت الحملة الرابعة بالفشل والهزيمة ، ومن ثم وجه الصليبيون وجههم شطر مصر مركز الدفاع عن الشرق العربى ، ليقضوا على قوتها ، وليتمتعوا بخيراتها وليطمئنوا على بقاء فلسطين فى يدهم

ومن أجل ذلك قام المسيحيون بثلاث حملات حربية على مصر ، كانت أهدافها احتلال أرض مصر ، ولكنها لم تظفر بشىء مما كانوا يريدون ، وكانت ثانيتها بقيادة الامبراطور فرديك ، وثالثتها بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وفى صفر عام ٦١٥ هـ وقفت على شواطىء مصر أمام دمياط سفن ضخمة ، تحمل جيشا ضخما كان أول حملة صليبية على مصر ، وبلغ الملك الكامل الأيوبى أمر هذه الحملة ، فخرج بجيش كبير من القاهرة لمقابلة الصليبيين ، ونزل بالقرب من دمياط ، وعلى الرغم من دفاعه المجيد عن المدينة ، وبطولة جيشه النادرة ، فقد سقطت دمياط فى أيدى الصليبيين فى ٢٥ شعبان عام ٦١٦ هـ ، بعد حصار شاق طويل ، وقد رحل الملك الكامل الأيوبى عن دمياط بعد سقوطها ، وعسكر جيشه تجاه طلخا على رأس بحر أشموم فى موقع حصين مختار ، من أوائل رمضان عام ٦١٦ هـ ، وأخذ يزيد فى تحصين هذا الموقع ، ويبنى فيه منازل وفنادق وحمامات وأسواقا ، ومن

ثم نشأت مدينة جديدة صغيرة سميت باسم المنصورة ، تفاؤلا بالنصر على جيوش الأعداء ، وبنى الكامل له فى هذه المدينة قصرا سماه القصر السلطانى ، وعزز الكامل موقعه الحربى الجديد ، وأخذ الصليبيون يزحفون على الجيش المصرى تجاه المنصورة فى عام ٦١٧ هـ بقوات كبيرة .

ناضل الكامل الصليبيين فى معارك كثيرة بجوار المنصورة ، وفى هذا الوقت كان الفيضان على أشده ، فأمر الكامل بقطع جسور النيل فأحاطت المياه بالأعداء من كل جانب ، وقطعت عليها الطرق ، فاضطروا إلى طلب الصلح ، وتم فى رجب عام ٦١٨ هـ ، حيث منح الصليبيون الأمان إن عادوا إلى بلادهم ، وعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثمانى سنوات واستعاد المسلمون دمياط فى ٩ رجب عام ٦١٨ هـ ، وبذلك استعادت أرض الوطن الحرية والسلام . وقد ظلت المدينة تعتز بذكرى أعظم انتصار حربى فى تاريخ الوطن إلى أن تلاه انتصار آخر فى أوائل عام ٦٤٧ هـ رست أمام ثغر دمياط حملة حربية ضخمة ، بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا (١)

---

(١) كان قائد الصليبيين فى هذه الحرب هو لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد جاء فى جيش كثير العدد ، عظيم العدد ، قد حشد فيه نخبة من الشجعان من أهل أوربا ، ولما علم الملك الصالح الأيوبى ملك مصر (٦٣٧ – ٦٤٧ هـ) بقدومهم ، أعد لهم الجيوش والأساطيل . وبلغ الصليبيون دمياط فى صفر سنة ٦٤٧ هـ . وكتب لويس إلى الملك الصالح يهدد ، ويخوفه بما فعله الأسبان بمسلمى الأندلس . فكتب القاضى بهاء الدين زهير فى جواب الرسالة : « أما بعد ، فإنه وصل كتابك وأنت تهدد بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا فرد إلا جددناه ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه . ولو رأت عينك ، أيها المغرور ، حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخريبنا ديار الأواخر والأوائل – لكان لك أن تعض أناملك بالندم . ولا بد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسيء الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . . . ثم كانت بين الجيشين وقائع آخرها وقعة المنصورة ، التى هزم فيها الصليبيون هزيمة منكرة ، وأسر منهم ألوف كثيرة ، ومن بينهم الملك لويس وكثير من قواده ، وحبس فى دار لقمان بالمنصورة ، ووكل به خادم اسمه صبيح ثم وقع الصلح ، وأطلق الأسارى وانصرفوا إلى بلادهم ، فلما بلغ المصريين أنه يستعد لحرب أخرى ، كتب إليه جمال الدين ابن مطروح :

وكانت هى ثالث حملة صليبية على مصر ، وضرب الصليبيون المدينة واقتحموها ، فتركها الجيش المدافع عنها ، واستولى عليها الغزاة فى أواخر صفر من العام المذكور ، بما فيها من مؤن وعتاد . وتقهقر الملك الصالح الأيوبى ، وأخذ فى إقامة خط دفاعى قوى عند المنصورة ، وبدأ يناوش الصليبيين . وفى هذه الفترة الحرجة توفى الملك ، فأخفت زوجته « شجرة الدر » خبر موته ، واستدعت سرا ابنه الملك

قل للفرنسيس إذا جئته   مقالة صدق من قئول نصيح
أتيت مصراً تبتغى ملكها   تحسب أن الزمر والطبل ريح ؟
فساقك الحين إلى أدهم   ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم   بحسن تدبيرك بطن الضريح .

إلى أن يقول :

وقل لهم إن أضمروا عودة   لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشى صبيح :

وذكر السيوطى حضور الإمام أبى الحسن الشاذلى (وكان قد كف بصره) موقعة الافرنج بالمنصورة ، فى الحرب الصليبية السابعة ، وفيما كتبه ابن عطاء الله : وكان الشيخ العلامة ابن المنير من تلاميذ الشاذلى الذين تخلفوا عن هذه الموقعة ، فبقى آسفا عليها لا يريم ، وكان مع أبى الحسن فى شهود هذه الموقعة من تلاميذه : الإمام عز الدين بن عبد السلام ، وابن دقيق العيد ، والعلامة الأخميمى (والد ابن دقيق العيد) ومكين الدين الأسمر (وهو ابن عصفور النحوى) وزكى الدين المنذرى ، وآخرون لا يحصيهم عدد ، كلهم استجابوا لدعوة الشيخ حين أخر الحج وتفرغ للجهاد

وكان شاعر الموقعة هو شاعر الصوفية الإمام البوصيرى ، وديوانه المخطوط يعج بقصائد الجهاد والذود عن العقيدة والوطن ، كما يعج بمكافحة الاقطاع والدعوة إلى الإصلاح ومعروف أن ذلك كان فى عهد الملك الصالح أيوب وتوران شاه ، ويعرف الناس مواقف الإمام الصوفى أحمد بن عطاء الله السكندرى ، من السلطان حسام الدين لاشين وكيف كان يغلظ عليه فى رد الحقوق إلى الرعية ، وكيف كانت مواقف أبى العباس المرسى من الولاة ، وكيف أنه لم يقبل إطلاقا أن يرتب لزاويته ولا لإخوانه شىء من الاوقاف ؛ حتى لا يتوكلوا . أو ينصرفوا عن الأكل من عمل أيديهم .

المعظم توران شاه من الشام . واشتدت الحرب بين الجيشين . وفى ٥ ذى القعدة من عام ٦٤٧ هـ اجتاز الغزاة بحر أشموم ، وهجموا على الجيش المصرى ووصلت طلائعهم إلى باب القصر السلطانى فى المنصورة ولكن طائفة من جيش المسلمين ردتهم على أعقابهم ، وفى ١٩ ذى القعدة وصل توران شاه إلى المنصورة وتولى قيادة الجيش، وأعلن نبأ وفاة والده وتوليه بعده العرش ، وقد أبلى بلاء مجيدا فى الدفاع عن بلاده . وعجز لويس التاسع عن فتح المنصورة ، وكثر المرض فى جيشه ، فرغب فى التقهقر ، ولكن « توران شاه » كان قد قطع عليه الطريق ، وفى يوم الأربعاء الثالث من المحرم عام ٦٤٨ هـ كانت المعركة الفاصلة ، التى هزم فيها الصليبيون ، وفروا إلى دمياط ، وأسر لويس التاسع ملك فرنسا هو وأسرته ، واعتقلوا فى الدار التى كان ينزل فيها القاضى فخر الدين ابن لقمان كاتب الإنشاء للملك ، ومزق جيش الصليبيين شر ممزق ، وفى هذه الأثناء ثار مماليك توران شاه عليه وقتلوه ودفن فى ٢٩ من المحرم ، فتولت « شجرة الدر » الملك وخطب لها على المنابر .

طلب الصليبيون الصلح وبذلوا فدية كبيرة على أن يفك سراح لويس التاسع هو وأسرته ، ويسلموا دمياط للمسلمين ، ويرحلوا عن بلاد مصر كلها ، فوافقت الملكة ومستشاروها على ذلك ، واستعاد الجيش المصرى دمياط ورفع العلم السلطانى عليها فى الثالث من صفر عام ٦٤٨ ، وبذلك نجت أرض الوطن من شر الصليبيين وأطماعهم إلى الأبد .

وقد استمرت المنصورة معقلا من معاقل الحرب والدين والوطنية والعلم والأدب بعد الأيوبيين حين انتهت الدولة الأيوبية ، وحكم مصر بعدها المماليك فالأتراك . وفى هذه العصور زيد فى تحصين المدينة ، وأولاها الأمراء والحكام عناية كبيرة ، فزادت مساحتها ، وكثرت مبانيها ، وأنشئت فيها المدارس والمساجد وأصبحت من أهم المدن المصرية وأشهرها .

وفى العصر الحديث زادت العناية بالمنصورة ، فأنشئت فيها المدارس الإبتدائية والثانوية ودور القضاء . والمساجد والمستشفيات وأنشىء بها مجلس بلدى ومكتبة عامة وصارت عاصمة مديرية الدقهلية . وقد ازدهرت المدينة وكثرت مبانيها وشقت فيها الشوارع الضخمة ونسقت بها المتنزهات الجميلة ، ونشطت حركتها التجارية والصناعية والزراعية ونبغ منها العلماء والأدباء

والشعراء وتعلم فى مدارسها كثير من الشبان الذين خدموا وطنهم فى شتى نواحى الحياة . وبالمنصورة كثير من الأسر العريقة ، وقد صارت المدينة قبلة الأنظار لهدوئها وجمالها وحسن جوها وللتقدم الباهر الذى وصلت إليه فى جميع مرافق الحياة

وفى آخر عام سنة ١٣٦٦ ﻫ أى منذ خمس سنوات تقريبا ، مضى على إنشاء هذه المدينة الجميلة ٧٥٠ عاما وهو تاريخ طويل حافل مقرون بأمجد الذكريات وأعظمها فى تاريخ الوطن كله . وقد دعوت بهـــذه المناسبة الوطنية الجليلة إلى الاحتفال بهذه الذكرى الخالدة احتفالا رائعا يتناسب وجلالها وأهميتها فى تاريخ الوطن المجيد . وقلت : إنه من الضرورى أن يمهد للاحتفال بما يأتى :

(١) إنشاء قاعة محاضرات عامة فى المدينة .

(٢) إنشاء قسم فى المكتبة البلدية بالمنصورة خاص بتاريخ المدينة .

(٣) تأليف لجنة لوضع كتاب عن المنصــورة وتاريخها وأشهر الذين نبغوا من أبنائها فى شتى العصور .

(٤) اطلاق أسماء الأعلام التى اشتركت فى معركتى الوطن العظيمتين عام ٦١٧ﻫ وعام ٦٤٧ ﻫ بالقرب من المنصورة على أهم شوارع المدينة .

(٥) إنشاء متحف حربى بالمنصورة تجمع فيه الآثار الحربية الباقية لهاتين المعركتين الكبيرتين .

(٦) إنشاء جامعة فى المنصورة .

(٧) تأليف لجنة لبحث ما تحتاج اليه المدينة من إصلاحات ، والشروع فى القيام بهـا .

وقلت : وكذلك إنه يجب أن يقام « أسبوع الاحتفال » بهذه الذكرى الخالدة على أروع صورة : فيحتفل فى اليوم الأول بافتتاح الاحتفال فى قاعة المحاضرات الجديدة حيث يلقى قادة الدولة كلماتهم عن هذه الذكرى . وفى اليوم الثانى يحتفل بافتتاح جامعة المنصورة وكافة المنشآت الجديدة .

وفى اليوم الثالث يقام عرض عسكرى فى المدينة ، وفى اليوم الرابع يسير طلبة المدينة فى مواكب تمثل مصر فى شتى العصور ، وفى الأيام الثلاثة الباقية تنظم حفلات شعبية يشترك فيها الجميع احتفالا بهذه الأعياد الوطنية .

ولكن لم يتحقق شىء من ذلك كله . . ويطول بنا المقام لو أحصينا من نبغوا من المنصورة فى العلم والثقافة والأدب والشعر طول العصور . .

بعض مراكز الثقافة فى هذا العصر

تعددت مراكز الثقافة والأدب فى هذا العصر ، وكان من أهمها : القاهرة والفسطاط والإسكندرية وأسيوط والفيوم (١) وسواها من مراكز مصر.

وكانت الإسكندرية من مراكز الثقافة فى هذا العصر (٢) منذ سكنها الحافظ السلفى سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) وصارت يهاجر إليها فى الحديث والقراءات .

وقد سبقت مصر فى إنشاء المـــدارس للمذاهب السنية ، فقد أنشأ الوزير رضوان بن الولخشى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) مدرسة للفقيه أبى الطاهر بن عوف. وكذلك أنشأ بها العادل بن السلار وزير الخليفة الفاطمى الظافر مدرسة للحافظ السلفى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) . وكان بها فى العصر الفاطمى علماء أعلام محدثون ناصروا السنة وكانت الرحلة اليهم . كما أن الحافظ السلفى دخل الإسكندرية وبها علماء أجلاء نشؤوا فيها وآخرون رحلوا اليها واستوطنوها ، وكان لهم أثر كبير فى نهضتها العلمية فأخذ عنهم وأخذوا عنه . ومنهم العلامة ابن أبى مطر وابنه ، فقد كانا من جلة علماء الإسكندرية فى القرن الرابع الهجرى وسمع عليهما خلف ابن محمد الخولانى المتوفى سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) . ومحمد بن ميسر فقيه الإسكندرية فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وعبد الرحمن بن عوف بن عمرو العلاف ، سمع عليه عبيد بن محمد القرطبى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠١ م) وابن عباد الإسكندرانى وكان من شعراء القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ومن شعره :

كأنه شمسة من فضة حرست خوف الوقوع بمسمار من الذهب

ومحمد بن الخشى الإسكندرى المتوفى فى حدود الخمسمائة ، ومن شعره فى إنسان ينعت بعين الملك :

ألا ان ملكا أنت تدعى بعينه جدير بأن يعمى ويصبح أعورا

---

(١) ومن كتب التاريخ المصرى : تاريخ الفيوم لفخر الدين الصفدى ألفه عام ٦٤١ هـ وقد طبع فى بولاق عام ١٣١٦ هـ

(٢) من بحث للأستاذ حسن عبد الوهاب ــ مجلة الكتاب .

فان كنت عين الملك حقـا كما ادعوا   فان له العين التى دمعها جرى

ومن شعره أيضا :

قال لى العاذل فى حبـه   وقوله زور وبهتان

ما وجه من أحببته قبلة   قلت ولا قولك قرآن

وابن مكنسة الإسكندرانى إسماعيل بن محمد المتوفى فى حدود الخمسمائة ، وكان شاعراً رقيقا وله أشعار كثيرة منها :

يارب عربيد إذا ما انتشى   أربى على المجنون فى مسه

قالوا لقد تاب ووالله ما   يتوب أو يجعل فى رمسه

وإنما توبته هـذه   عربدة أيضاً على نفسه

وأبو المنصور ظافر بن القاسم الإسكندرى الشاعر المعروف بالحداد المتوفى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) ، ومن شعره :

وكأنما الدولاب يزمر كلما   غنت وأصوات الضفادع شيز

وكأنما القمرى ينشد مصرعا   من كل بيت واليمام يجـيز

وابن الفحام عبد الرحمن بن أبى بكر بن عتيق بن خلف الصقلى المقرى المجود ، وله مصنفات فى التجويد والقراءات السبع وكان من شيوخ القراء ، سكن الإسكندرية وقصده الطلاب من شتى البلاد لعلو إسناده ، توفى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) . وفخر الإسكندرية ابن الحطاب محمد بن إبراهيم الرازى ثم المصرى المعدل الشاهد مسند الديار المصرية وشيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) والإمام الطرطوشى محمد بن الوليد بن خلف الفقيه الصوفى المالكى ، وكان عالماً زاهداً . حول قسما من داره إلى مدرسة فوفد عليه العلماء والطلاب مدة حياته إلى أن توفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) . وأبو القاسم بن مخلوف المغربى ثم الإسكندرى ، أحد علماء المالكية ، تفقه به أهل الإسكندرية إلى أن مات سنة ٥٣٣ (هـ ١١٣٨م) . والحافظ المقدسى : أبو الحسن على بن أبى المكارم الاسكندرانى المالكى ، وكان فقيها فاضلا من أكابر الحفاظ المشاهير فى الحديث وعلومه ، أدرك الحافظ السلفى وصحبه وتوفى سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) . . وصدر الإسلام أبو الطاهر إسمعيل بن بكر بن عيسى بن عوف السكندرى ، تفقه على الإمام الطرطوشى وسمع منه ومن أبى عبدالله الرازى ، وكان إمام عصره فى مذهب الامام مالك ، وعليه المعول فى الفتوى . وقد

سمع عليه صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر موطأ الإمام مالك ، وتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) عن ٩٦ سنة .

وفى هذا كفاية . وقد ذكرنا ذلك للتدليل على انتعاش الحركة العلمية والحديث وعلوم القرآن قبل قدوم السلفى إليها . وهذا مامزه السلفى أيضاً بذكره من لقيه بها فى أثناء دخوله الإسكندرية ومقامه بها .

ومن أعلام الإسكندرية الخالدين الحافظ السلفى : أحمد بن محمد بن سلفة ، والحافظ الكبير أبو طاهر بن أحمد السلفى الأصبهانى . وكان إماماً جليلا واسع الرحلة ديناً ورعاً ثبتاً فقيهاً لغوياً انتهى إليه علو الإسناد مع الحفظ والإتقان . قدم مصر واستوطن الإسكندرية سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) ، فأفاد واستفاد وهرع إليه الطلاب للاستفادة من علمه ، وأصبحت الإسكندرية كعبة المستفيدين يحج إليها العلماء من أقطار الأرض للأخذ عنه . وفى سنه ٥٤٦ هـ أنشأ له مدرسة العادل بن السلار أقام بها . وقد بلغ من تقدير ملك مصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب أن سمع عليه هو وأولاده موطأ الإمام مالك ، وفى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) انتقل إلى رحمة الله عن ١٠٦ سنة وقيل ٩٨ سنة وقد وضع معجما سماه معجم السفر رتبه على حروف المعجم . جمع فيه تراجم من لقيهم من العلماء بالإسكندرية أو من مر بها وقصده للسماع منه والأخذ عنه . ونسخة الأصل كانت فى مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة ،واستنسخ منها نسخة الشيخ عبد الحى الكتانى لمكتبته القيمة بفاس ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية تنقص الأول والأخير مأخوذة بالتصوير الشمسى . وفى هـذا المعجم تراجم علماء أجلاء وشعراء اسكندرانيين فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) زاملوا السلفى وتتلمذوا عليه ، منهم : أبو الفتح بدر بن نمير بن يونان الأنطاكى المعروف بنصر ، تفقه على مذهب الشافعى ، وكان أديباً بارعاً وشاعراً مجيداً له مايزيد على خمسين قصيدة ، توفى سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) . وأبو المعالى رافع بن يوسف بن زيدون القيسى ، لازم الإمام السلفى عند بناء المدرسة العادلية وبعدها ، وكان يعيد الدروس على أربعين من الصبيان ، توفى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) . وأبو الرضا زيد ابن محمد بن عبد الحميد بن الطرابلسى المجلد بالثغر . كان يشتغل بتجارة الكتب وتجليدها ، وكان يحفظ كثيراً من الشعر وعنه أخذ السلفى . وأبو الحسن على ابن يوسف بن عبيد الكندى المطرز ، وكان شاعراً مجيداً ولازم السلفى إلى أن

مات . وأبو محمد بن الحسن ابن عشير العبدرى النحوى . كان متصدراً فى جامع الإسكندرية لإقراء القرآن وتدريس النحو ، سمع السلفى كثيراً من شعره . والقاضى أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن حديد قاضى الإسكندرية . وكان سنيا مالكى المذهب من أعرق أسر الإسكندرية وبيتهم بيت علم ، توفى سنة ٥٢٩ هـ . وأبو محمد عبد الله بن سعيد بن خلف الخولانى الكتبى ، كان حسن الخط وله ميل إلى الأدب وإلى الشعر ورسائل الكتاب . ويقول السلفى : كان لى به أنس تام واستفدت منه كثيراً ، وجلد لى مجلدات ونسخ لى جزئيات . وأبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله صدقةو الكاتب المصرى . وهو مصرى المولد اسكندرانى الموطن سمع على أبى العباس الرازى كثيراً ، وكان محبا للحديث وأهله ولازم السلفى وسمع عليه . وأبو الحسن على ابن عبد الله بن أبى الأشيم ، عالم جليل أمه من أسرة بنى حديد قضاة الإسكندرية . صحب الأدباء وأنشد الشعر وكتب كثيراً من الكتب الأدبية ودواوين الشعر واقتنى الكثير منها الحافظ السلفى واستفاد منه ، وتوفى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) وكان مالكى المذهب ومن أهل السنة . وأبو الحسن على بن محمد بن على الكتبى المعروف بابن الجيزى . يقول السلفى : سمعت أبا الحسن عليا يقول : « فهرست أنا كتب أبى على الحسن بن على الحضرمى فبلغت ٣٧٤٢ مجلداً . وأبو محمد عبد العزيز إسمعيل بن بربك بن توهيب ، وكان سنياً مالكى المذهب وكان أديباً شاعراً . يقول السلفى أخذت عنه من شعر متأخرى شعراء أبناء مصر كابن جيش وابن الدر وابن القلقاط وآخرين ، وتوفى سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) . وهو أخو عبد الوهاب بن توهيب الشاعر . وأبو الحسين المعروف بابن المفرض . كان مقدم الشهود بالإسكندرية وقد نيف على التسعين حتى توفى فى شعبان سنة ٥٢٤ هـ ويقول السلفى عنه : إنه لازمنى واستفدت منه . وهو ووالده من أسرة الصفراوى من أعيان الإسكندرية وعلمائها وكلهم مالكية من أهل السنة . وأبو محمد عبد الوهاب بن إسمعيل بن بربك بن توهيب الوراق ، ولم يكن بين وراق الإسكندرية وشعرائها أكبر منه سناً فى وقته ، وله أكثر من خمسين قصيدة ، وتوفى سنة ٥٤٧ هـ . وابن العريف ، شيخ من أهل البيوتات المشهورة بالإسكندرية . كان يجيد الرماية ، وسمع على السلفى وعلى غيره من علماء الإسكندرية . ويذكر ابن العريف أنه قرأ القرآن بروايات فى صغره على أبى الحسن بن الملين البغدادى ، وعلى أبى الربيع الأندلسى وابن مسلم الصقلى

وخلف السالمى ، وتوفى فى المحرم سنــــة ٥٣٧ هـ . وأبو الحسن على بن يحيى الكتامى الجلالى المعروف بالناهض ، وكان كبيرا وكان يحفظ من أشعار متأخرى الشاميين كثيراً ، ورأى منهم شعراء طرابلس . ولد بالإسكندرية وبها مات فى آخر المحرم سنة ٥٢٣ .

ومن أعلام الاسكندرية الخالدين كذلك : أبو الحسن على بن محمد بن على بن الحسين بن يحيى الجبزى الكتبى . كان من أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب يقول السلفى : اشتريت منه كثيراً واستفدت منه فوائد أدبية . وسمعته يقول: سمعت أبا القاسم مكى بن محمد بن مروان النحوى يقول : سمعت القاضى أبا الحسين السيرافى بمصر يقول : بلغت كتبى المجلدة أحد عشر ألف مجلد وسبعمائة وعشرا ، ومن المنثور ماإذا عولت على تجليده أردت ثلثمائة دينار .

وأبو الحسن على بن عبد الرحمن الصقلى العروضى ، وكان من كتاب الإسكندرية وشعرائها ومن أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب . اشترى منه السلفى كتباً كثيرة واستفاد منه فوائد أدبية .

وأبو المكارم هدية بن عامر بن فتوح الحضرمى المهندس . كان نابغاً فى الهندسة وفنونها وتلقى الحديث أيضاً على الحافظ السلفى .

وفى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) أمر صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر بانشاء مدرسة وبيمارستان ودار للمغاربة بالإسكندرية . وهذه هى الجامعة التى عاينها ابن جبير الرحالة ووصفها بقوله : « من مناقب هــــذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحارس الموضــــوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعليمه وإجراء يقوم بجميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدم لمعاونتهم . كما عين أطباء يتنقلون لعيادة من لم يستطع الذهاب إلى البيمارستان . هذا عدا المخصصات المقررة للمغاربة »

والمرجح أن هذا البيمارستان كان يدرس فيه الطب كما هو المتبع فى ذاك الوقت وأسست هذه الجامعة عقب وفاة السلفى وخصصت لدراسة مختلف العلوم ، وفتحت

أبوابها لأجلة العلماء من شمالي أفريقيا والأندلس ، فانتعشت الحركة العلمية وأينعت ، وكان قوامها بقايا معاصري السلفي وتلاميذه من علماء وأدباء الإسكندرية فنهضوا بها ، وتعددت مراكز التحصيل فيها من مساجد ومدارس . ولذلك نرى العلامة محمد بن عبد الوهاب المعروف بابن خزيمة ـ وقد قدم الإسكندرية سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤م) وأقام بها أربعين سنة ـ يصفها بقوله : « بها حدائق وماء رائق وأهلها للخير فاعلون ، لا تبطل القراءة منها ولا طلب العلم ليلا ولا نهاراً ، وبها ٨٠٠ مسجد منها ١٩٠ للخطبة ، وبها ١٨٠ مدرسة لطلب العلم ، حتى كان بالمدينة خطاطون يكتبون على الفتاوى ، ولما زار الإسكندرية سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م) العلامة محمد بن يوسف سبط ابن الجوزي وصفها بقوله : « قدمت الاسكندرية فوجدتها كما قال تعالى : « ذات قرار معين » ، معمورة بالعلماء معمورة بالأولياء : كالشيخ محمد السارى والشاطبي وأبي شامة ، ووجدتها أولى بقول القيسراني في وصف دمشق :

أرض تحل الأماني في أماكنها	بحيث تجتمع الدنيا وتفترق
إذا شدا الطير في أغصانها وقفت	على حدا تقها الأسماع والحدق

وكذلك حدث على بن ظافر عن مجالس الأدب وأدباء الإسكندرية وشعرائها في أواخر القرن السادس وأول السابع الهجري أحاديث ممتعة في كتابه « بدائع البدائه » ، ومنه نقف على نكت أدبية وأشعار طريفة أعطتنا فكرة واضحة عن الأدب في الاسكندرية لا تسع هذه العجالة لاستيفائها فليرجع إليها من أراد في كتابه المذكور وأبو الحجاج يوسف المعروف بالنعجة ، وشهاب الدين يعقوب وأبو الحسن ابن النبيه ، وأبو القاسم بن نفطويه ، والفقيه أبو ثابت بن حسن الكريوني والأديب عبد المنعم بن صالح الحريري والقاضي الأعز المؤيد والقاضي المخلص أبو العباس أحمد بن يحيى بن عوف ، والفقيه أبو الحسن على بن الطوسي المعروف بابن السيوري وأبو الحسن بن على الحصري والعباس بن طريف الخراط الاسكندري ، قال ابن ظافر : « أخبرني ابن المؤيد رحمه الله قال : اجتمعت مع جماعة من أدباء أهل الاسكندرية في بستان لبعض أهلها ، فحللنا روضا تثنت قامات أشجاره ، وتغنت قينات أطياره ، وبين أيدينا بركة ماء كجو سماء ، أو مرقعة مراء ، فنثر عليها بعض الحاضرين ياسمينا زان سماءها بزواهر منيرة ، وأهدى إلى لجتها جواهر نثيرة ، فتعاطينا القول في تشبيهه ، وأطرق كل منا لتحريك خاطره وتنبيهه ، ثم أظهرنا ما حررنا ، ونشرنا ما حبرنا ، فأنشد العباس بن طريف

الخراط الاسكندرى :

نثروا الياسمين لما جنوه   عبثاً فاستقر فوق الماء
فحسبنا زهر الكواكب تحكى   زهر الأرض فى أديم السماء

وأنشد الأديب أبو الحسن على بن سيف الدين الحصرى :

نثروا الياسمين لما جنوه   فوق ماء أحبب به من ماء
فحكى زهره لنا إذ تبدى   زهر الشهب فى أديم السماء

قال ، وكان الذى صنعته :

نثروا الياسمين فى لجة الما   ء فخلنا النجوم وسط السماء
فكأن السماء فى باطن الأر   ض أو الدر طاف فوق الماء

قال : وسمع أبو عبد الله بن الزين النحوى القصة ولم يكن حاضراً معنا فقال :

نثر الغلام الياسمين ببركة   مملوءة من مائها المتدفق
فكأنما نثر النجوم بأسرها   فى يوم صحو فى سماء أزرق

قال على بن ظافر : وسألنى الأعز رحمه الله تعالى أن أصنع فى مثله فصنعت :

زهر الياسمين ينثر فى الما   ء أم الزهر فى أديم السماء
أم هما مبسم شنيب شتيت   فى رضاب الخريدة الحسناء
ظل يحكى عقود در على صد   ر فتاة فى حلة زرقاء
وإذا خلته حباباً حسبت الما   ء طيباً كالقهوة الصهباء

ومن أعلام الإسكندرية ومن خيرة شعرائها : ابن قلاقس نصر الله بن عبد الله ابن مخلوف بن على بن عبد القوى بن قلاقس الإسكندرى وكان أديباً فاضلا وشاعراً مجيداً ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ﻫ ونشأ بها وقرأ على السلفى وسمع منه ومن غيره . وتوفى بعيذاب سنة ٥٦٧ ﻫ (١١٧١ م) ومن شعره :

اشرب معتقة الطلا صرفا على   رقص الغصون بروضة غناء
من كف وطفاء الجفون كأنما   تسعى بنار أضرمت فى ماء
فى سحر مقلتها وخمرة ريقها   شرك العقول وآفة الأعضاء

وقال من قصيدة :

عقدوا الشعور معاقد التيجان   وتقلدوا بصوارم الأجفان

ومشوا وقد هزوا رماح قدودهم　　هز الكماة عوالى المران
وتدرعوا زرداً نخلت أراقا　　خلعت ملابسها على الغزلان

وقد زارها الرحالة خالد بن عيسى البلوى سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) ووصفها ثم ذكر من لقيه وأخذ عنه من علمائها فقال : « فأول من لقيته بها من الأئمة وحاملى الآثار والسنة : الشيخ الفقيه الإمام قاضى المالكية وجيه الدين أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن اللبان ، سمعت عليه فى منزله تآليف كثيرة وأجازنى الاجازة التامة المطلقة العامة . والشيخ الفقيه العدل شرف الدين أبو البركات عمر بن الشيخ الإمام العدل المرحوم فخر الدين شهاب الدين أبى محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى ، لقيته وأجازنى وشرف الدين أبو العباس أحمد ابن أبى الحسن الشهير بابن المصنى ، لقيته بمنزله بالإسكندرية فسمعت وقرأت عليه وأجازنى ، والشيخ سديد الدين أبو عبدالله محمد بن الشيخ عز الدين اللخمى الإسكندرى المشهور بابن عطية ، لقيته بمنزله وسمعت عنه الحديث الشريف ، وأجازنى إجازة تامة ، والشيخ العالم المصـــنف نور الدين أبو الحسن على بن يونس الهوارى التونسى لقيته بالإسكندرية فسمعت عليه وأجازنى إجازة تامة مطلقة ، والفقيه المحدث تقى الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن عرام الربعى الشافعى سبط أبى الحسن الشاذلى » .. ومن وصف البلوى ندرك أن تحصيل العلم تعدى المدارس والمساجد إلى دور العلماء ، ورغم ضياع المعالم الأثرية بالاسكندرية فقد وقفنا على أسماء مدارس ومساجد أخرى كانت مراكز تحصيل أنشئت فى القرنين السابع والثامن الهجرى نذكر منها :

دار الحديث التكريتية « مسجد أبو على » بشارع البلقطرية قسم الجمرك ، أنشأ هذه المدرسة عبد اللطيف بن رشـيد بن محمد بن رشيد الربعى التكريتى ، نزيل الاسكندرية ، سمع من النجيب ومن ابن عرفة وحدث ، وله نظم رقيق وكتابة جيدة وتوفى سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) وقد خصصها لقراءة الحديث الشريف والفقه على مذهب الشافعى ، وقد تجددت المدرسة وحولت إلى زاوية بسيطة فى القرن الثانى عشر الهجرى واحتفظت باللوحة التذكارية لتأسيسها ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ، أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجى رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد التكريتى لتلاوة الكتاب العزيز وقراءة الأحاديث النبوية وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام أبى عبدالله

محمد بن إدريس الشافعى رحمة الله عليه فى شهر المحرم سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحابه » .

وكان بالإسكندرية دار حديث ثانية عرفت بدار الحديث النبيهة تولى مشيختها بعد أخيه العلامة إبراهيم بن أحمد بن المحسن الغرافى الإسكندرى المتوفى سنة ٧٠٤ هـ (١٣٠٤ م) . وعلى هذا تكون الإسكندرية قد امتازت بوجود دارى حديث بها فى القرن السادس الهجرى فى الوقت الذى كان فى القاهرة دار حديث واحدة هى التى أنشأها الملك الكامل محمد بن الملك العادل سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٣ م) .

مفخرة للمسلمين

هذا وقد حاول مسلمو السودان الغربى فى أوائل القرن الثامن الهجرى أن يبلغوا الشاطىء الغربى من المحيط الإطلنطى « بحر الظلمات » وذلك منذ زمن بعيد وفكرة أصح من فكرته ـ قبل كشف أمريكا بنحو قرنين ، وكانت عظمى ممالك المسلمين فى القرنين السابع والثامن بعد الهجرة هى بلاد « مالى » ، وكانت تعرف باسم بلاد « التكرور » ، والتكرور كان أحد أقاليم هذه المملكة الواسعة . وكان ملكهم أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون : « منسى موسى » ، قال فى صبح الأعشى نقلا عن العبر : « وكان رجلا صالحاً ، وملكا عظيما ، إذ له أخبار فى العدل تؤثر عنه ، وعظمت المملكة فى أيامه إلى الغاية ، وافتتح الكثير من البلاد » قال فى مسالك الأبصار : حكى ابن أمير حاجب والى مصر عنه ، أنه فتح بسيفه أربعا وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع ، وقد حج « منسى موسى » أيام الناصر بن قلاوون سنة أربع وعشرين وسبعمائة قال فى صبح الأعشى نقلا عن مسالك الأبصار : « قال لى المهمندار خرجت لملتقاه من جهة السلطان . فأكرمنى إكراما عظيما ، وعاملنى بأجمل الآداب . ولكنه كان لا يحدثنى إلا بترجمان مع إجادته اللسان العربى » . قال : « ولما قدم قدم للخزانة السلطانية حملا من التبر ، ولم يترك أميرا ولا رب وظيفة سلطانية إلا بعث إليه بالذهب ، وكنت أحادثه فى طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان بحسب الأوامر السلطانية فيأبى ، خشية تقبيل الأرض للسلطان ، ويقول : « جئت للحج لا لغيره » ، فلما صار إلى الحضرة السلطانية قيل له : « قبل الأرض » فتوقف وأبى إباء ظاهرا ، وقال : « كيف يجوز هذا ؟ فأسر اليه رجل كان فى جانبه كلاما ، فقال : « أنا أسجد لله الذى خلقنى وفطرنى »

ثم سجد وتقدم إلى السلطان ، فقام له بعض القيام ، وأجلسه إلى جانبه وتحدثنا طويلا » ، وقد ورد فى صبح الأعشى ، قال فى مسالك الأبصار : « قال ابن أمير حاجب : سألته عن سبب انتقال الملك إليه ، فقال : إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مائتى سفينة ، وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا غايته ، أو تنفد أزوادهم . وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم، فقال : سارت السفن زماناً طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب، وكنت آخر القوم ، فرجعت بسفينتى. فلم يصدقه فجهز ألفى سفينة ألفاً للرجال ، وألفاً للأزواد ، واستخلفنى ، وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ، فكان آخر العهد به وبمن معه . » . . وقد قرأنا أن بعض الباحثين صادف فى أمريكا الجنوبية قبائل تشبه أن تكون عربية مسلمة ، فهل بلغ ملك السودان الغربى وأصحابه أمريكا فى القرن الثامن الهجرى ، وانقطعت الطريق بينهم وبين إفريقية ، فأقاموا هناك ؟ .

الأدب العربى فى عصر المماليك

٦٥٧ — ٩٢٣ ﻫ : ١٢٥٩ — ١٥١٧ م

التاريخ السياسى لهذا العصر

ينقسم العصر المملوكى فى مصر إلى دولتين .

١ — دولة المماليك البحرية (١) وتنتهى عام ٧٨٤ ﻫ - ١٣٨٢ م

٢ — دولة المماليك الشراكسة أو البرجية وتنتهى عام ٩٢٣ - ١٥١٧ م

أما دولة المماليك البحرية فتبدأ عام ٦٥٧ ﻫ ، وبدؤها الحقيقى عام ٦٤٨ ﻫ - ١٢٥٠ م حينما قتل توران شاه ، ودخلت مصر بعده فى نفوذ مماليك هذه الدولة ، الذين كان الصالح أيوب يكثر من شرائهم وينزلهم فى قلعة الروضة التى شيدها بجزيرة الروضة ، حتى سموا لذلك بالمماليك البحرية ، وقد بقى الملك فى أيديهم إلى عام ٧٨٤ ﻫ ، وكان عدد ملوكهم أربعة وعشرين سلطانا .

وأولهم السلطان عز الدين أيبك التركمانى الذى ولى الحكم عام ٦٤٨ ﻫ ، وتزوج شجرة الدر ، وقتل عام ٦٥٥ ﻫ ، فخلفه ابنه المنصور ، الذى تولى الوصاية عليه

---

(١) المماليك البحرية : هم فى الأصل مماليك الصالح نجم الدين أيوب ، كانوا معه مدة سجنه بالكرك وبقوا معه حتى تخلص سنة ٦٣٧ ﻫ . فلما ملك مصر أكثر من شرائهم ، وجعلهم أمراء دولته، وأسكنهم معه فى قلعة الروضة ، وسماهم البحرية، وكانوا على أيامه نحو ألف كلهم أتراك ، وأول من تسلطن منهم هو عز الدين أيبك سنة ٦٤٨ ﻫ .

أما المماليك البرجية أو الشراكسة فقد حكموا مصر من سنة ٧٨٤ إلى ٩٢٣ ﻫ وأولهم السلطان برقوق ، ومنهم المؤيد والأشرف برسباى وقايتباى وقانصوه الغورى . وبرقوق أولهم هو الذى خطب باسمه فى بعض بلاد العجم ، وفى الموصل ، وماردين وسنجار وضرب السكة باسمه فى كل هذه البقاع . وإنما سموا بالبرجية تمييزا لهم من البحرية ، لأنهم سكنوا برج قلعة المقطم .

« سيف الدين قطز » ، ثم أعلن قطز توليه الملك وخلع المنصور عام ٦٥٧ هـ — ١٢٥٩ م ، وبذلك تبدأ دولة المماليك البحرية فى تاريخ مصر .

كان « قطز » هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة ، تولى الملك عام ٦٥٧ هـ ، ولما سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م فى أيدى التتار ، وزحفوا نحو مصر ، التقى بهم « قطز » فى « عين جالوت » بفلسطين ثم فى « بيسان » وهزمهم هزيمة ساحقة ، وكان الفضل فى ذلك لقائده الأمير ركن الدين بيبرس » ، وفى عودتهم إلى مصر قتل « بيبرس » السلطان « قطز (١) » ، وتولى مكانه حكم البلاد .

تقلد السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى حكم مصر (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ : ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) ، وكان أشهر سلاطين المماليك البحرية ، وقد نظم أمور الدولة والجيش ، وأنشأ الأساطيل ، وعنى بتحصين الشام . . ولكى يعزز زعامته للاسلام دعا إلى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد ، وبايعه بالخلافة ولقبه بالمستنصر ، واستمد سلطة الملك منه نائبا عنه عام ٦٥٩ هـ — ١٢٦١ م (٢) ، وكان أول من بايع الخليفة العباسى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام (٣) ، وقد ذهب الخليفة لمحاربة التتار على رأس جيش مصرى ، فقتل قرب دمشق عام ٦٦٠ هـ فتولى بعده الخلافة فى مصر الخليفة العباسى أبو العباس أحمد ولقب الحاكم بأمر الله (٤) .

وكان للسلطان « الظاهر بيبرس » أعمال حربية ، وإصلاحات داخلية محمودة ، وفى أيامه طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة عام ٦٧٥ هـ ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية .

---

(١) كان قطز فى أول ولايته قد عزم على فرض ضرائب جديدة على المصريين لينفقها على الجيش الذى سيوجهه إلى حرب التتار ، فجمع العلماء لذلك فحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام وصاح : لايجوز أن يؤخذ شىء من الرعية حتى لايبقى فى بيت المال شىء وتبيعون مالكم من الحوائص فى الآلات ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ويتشاوروا فى ذلك هم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما فى أيدى الجندى من الأموال والآلات الفاخرة فلا (٣٦ جـ ٢ حسن المحاضرة)

(٢) راجع صفحة ٤٠ وما بعدها جـ ٢ من كتاب « حسن المحاضرة » للسيوطى

(٣) ٤٤ جـ ٢ حسن المحاضرة (٤) ٤٧ جـ ٢ حسن المحاضرة :

وبعد وفاة بيبرس خلفه ولدان له أحدهما بعد الآخر ولم تطل مدتهما ، وانتهى الأمر بتولى السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ، فبقى الملك فى بيته أكثر من مائة سنة ، وساد فى عهده العدل والسكينة .

وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وكان شجاعا مقداما مظفرا عادلا ، فقتل بعد ثلاث سنوات ، ومما يذكر له أنه هو الذى قضى على إمارات الصليبيين بالشام .

وخلفه أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٧٤١هـ : ١٢٩٣-١٣٤١م) وقد هزم التتار قرب دمشق عام ٧٠٢ - ١٣٠٣ هـ هزيمة ساحقة أثناء محاولتهم التقدم لفتح مصر ، وعنى الناصر بشئون بلاده الداخلية ونشر العلوم والمعارف ، وشيد المبانى الفخمة ، وتوفى الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله فى عهده عام ٧٠١هـ ، ودفن بجوار السيدة نفيسة فى قبة بنيت له ، وهو أول خليفة مات بمصر من بنى العباس ، وولى الخلافة بعده ابنه أبو الربيع سليمان ، ولقب المستكفى بالله ، وخطب له على المنابر فى مصر والشام (١) ، ولم يكن السلطان قد أمضى عهد والده له بالخلافة حتى سأل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد قاضى القضاة بمصر يومئذ : هل يصلح للخلافة أولا ؟ فقال الشيخ : نعم يصلح ، فلما أشار الشيخ باستخلافه أمضى عهد والده له (١) ، ومات فى شعبان سنة ٧٤٠ هـ فى قوص ودفن بها ، وتولى بعده الخلافة الواثق بالله رغم معارضة قاضى القضاة عز الدين بن جماعة ، ومات الناصر عام ٧٤١ هـ (١٣٤١ م) . ولم يترك خلفا يقدر على القيام بعبء الملك بعده ، ومن أبنائه السلطان حسن الذى بنى المدرسة العظيمة التى لم يخلف السلطان أعظم منها بناء ولا أتقن صناعة . وهى المشهورة الآن بجامع السلطان حسن بجوار قلعة القاهرة . وانتهى الأمر بانقراض هذه الدولة واستيلاء المماليك الشراكسة على الملك .

وقد عزل الخليفة الواثق وبويع لأحمد بن المستكفى ولقب المستنصر ثم لقب بعد ذلك الحاكم بأمر الله - لقب جده - وذلك بحضور ابن جماعة وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة ، وذلك عام ٧٤٢ هـ ومات الخليفة عام ٧٥٣ هـ . وبويع بعده لأخيه المعتضد بالله ، وظل خليفة حتى مات عام ٧٦٣ هـ . وظل بنو العباس فى مصر يتوارثون الخلافة إلى أمد بعيد .

---

(١) ٤٩ ج ٢ حسن المحاضرة .

وأما دولة المماليك الشراكسة فقد حكمت مصر من عام ٧٨٤ – ٩٢٣ هـ ، ومعظمهم من الشراكسة ، بعكس المماليك البحريين فكانوا من الترك . . ولم يكن الملك فى دولة المماليك الشراكسة وراثيا كما كان فى بيت قلاوون ، وعدد ملوك هذه الدولة ثلاثة وعشرون ، حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة ، وحكم فى التسع السنوات الأخرى أربعة عشر ، وقد كان لملوك هذه الدولة ولع بالعلوم والآداب والفنون ، وإن كانوا لم يحرصوا على العدل فى حكمهم .

وأشهر ملوكهم وأولهم : « الملك الظاهر سيف الدين برقوق » وقد مات عام ٨٠١ هـ – ١٣٩٩ م ، وخلف مدرسته العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بجامع برقوق .

وخلفه ابنه فرج الذى حارب تيمورلنك ، وعقد معه صلحا .

ومن ملوك هذه الدولة : « المؤيد شيخ » بانى الجامع المعروف بجامع المؤيد بجوار « باب زويلة » .

ومنهم : الأشرف برسباى ٨٢٥ – ٨٤١ هـ : ١٤٢٢ – ١٤٣٨ م ، وقايتباى ٨٧٣ – ٩٠٢ هـ : ١٤٦٨ – ١٤٩٦ م ، والغورى ٩٠٦ – ٩٢٢ هـ : ١٥٠١ – ١٥١٦ م ، وقد انتهى أمره بأن قتله السلطان سليم العثمانى فاتح مصر عام ٩٢٣ هـ ، وضم مصر إلى الدولة العثمانية .

وقد اعتنى الظاهر بيبرس (١) بأمر الأزهر فأعاد إليه خطبة الجمعة فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ ، وشجع العلم فيه وحذا حذوه كثير من الأمراء ، فزاد الأمير بيلبك الخازندار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الشافعى . ورتب فيها محدثاً ، وسبعة لقراءة القرآن ، ووقف على ذلك الأوقاف الدارة . وفى سنة ٧٦١ هـ أحب الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجامدار الناصرى عند ماسكن بجوار الأزهر أن يؤثر فيه أثراً صالحاً ، فأنشأ فيه مما أسداه إليه درساً لفقه الحنفية يلقى فى المحراب الكبير ، ووقف على هذا الدرس أوقافا كثيرة .

وعلى هذا النحو سار الأزهر فى عناية المماليك (٢) ، غير أنا نلاحظ أن

---

(١) المصرى – ١٤ – ٩ – ١٩٥٤ – محمد فهمى عبد اللطيف .

(٢) الأزهر – مجلة المقتطف – الشيخ منصور رجب

الجامع الحاكى أخذ يعنى به بعد أن أصلح من زلزال سنة ٧٠٢ هـ ، فلقد جاء الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، فأنشأ بالجامع الحاكى دروساً أربعة لإقراء الفقه على مذهب الأئمة الأربعة ، ودرساً لاقراء الحديث النبوى ، وجعل لكل درس مدرساً وعدة كثيرة من الطلبة ، فرتب فى تدريس الشافعية قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى ، وفى تدريس الحنفية قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجى الحنفى ، وفى تدريس المالكية قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ، وفى تدريس الحنابلة قاضى القضاة شرف الدين الجوانى ، وفى درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارثى ، وفى درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان ، وفى درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفى ، وفى التصدير لإفادة العلوم علاء الدين على بن إسماعيل القونوى ، وفى مشيخة الميعاد والمسجد عيسى بن الخشاب ، وأنشئت به مكتبة جليلة، وجعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم ،وعدة قراء يتناولون قراءته .

صور من عصر المماليك

— ١ —

الظاهر بيبرس البندقداري :

ولى الظاهر بيبرس ملك مصر في آخر سنة ثمان وخمسين وستمائة للهجرة النبوية، وفي أيامه أصبحت القاهرة مقر الخلافة الإسلامية، فقدوفد عليها في سنة ستين وستمائة من بقي من العباسيين بعد استيلاء التتار على بغداد ، فرحب بهم وبايع ابن الخليفة المقتول ، ولقبه بالمستنصر بالله ، ثم أراد أن يسترجع بغداد للعباسيين فأنفذ المستنصر جيشاً ، فلاقاه التتار في الطريق ، وشتتوا جيشه وقتلوه ، فبويع بالخلافة في القاهرة الحاكم بأمر الله وكان الظاهر بيبرس شجاعا حارب حروبا كثيرة كان النصر حليفه في معظمها ؛ ومد ملك مصر إلى بغداد وعاش مرهوب الجانب، واسع السلطان إلى أن توفي سنة ست وسبعين وستمائة .. وللظاهر بيبرس محاسن كثيرة ، فهو الذي أكمل عمارة المسجد النبوي بعد ما أصابه من الحريق ، وكان الخليفة المستعصم شرع فيها فقتل قبل أن يتمها ، جهز الظاهر في رمضان سنة إحدى وستين وستمائة صناعاً وأخشابا وآلات ، وطيف بها بالديار المصرية إجلالا لها وتعظيما لشأنها ، ثم سير بها إلى المدينة المنورة ، وأرسل منبرا فنصب هناك ، وحج في سنة سبع وستين، فغسل الكعبة بيده بماء الورد ، وسار إلى المدينة المشرفة ، ورأى الناس يلتصقون بالقبر النبوي ، فقاس ما حوله بيده وأرسل في العام الذي يليه إطارا من خشب فأدير حول القبر الشريف ، وهو الذي جعل القضاة أربعة ، من كل مذهب قاض ـ ولم يعهد ذلك قبله ، وأمر في أيامه بإراقة الخمور وإبطال المفسدات ، وإسقاط المكوس المترتبة عليها، وفي أيامه طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة وذلك في سنة خمس وسبعين وستمائة ، وكان يوماً مشهودا . فكان أول من فعل ذلك بالديار المصرية، وكانت له صدقات كثيرة ، من ذلك عشرة آلاف إردب قمح للعجزة والمعوزين وأرباب الزوايا ، وكان يرتب في أول رمضان مطابخ لأنواع الأطعمة للفقراء والمساكين ووقف وقفا على تكفين أولاد الغرباء ، وبنى الجامع المعروف باسمه بالقاهرة ، ورمم قلعة الجبل ، وغير ذلك من الأعمال الجليلة التي خلدت له جميل الذكر ، وحسن الأحدوثة .

— ٢ —

السلطان المؤيد :

هو الشيخ المحمودى المعروف بالسلطان المؤيد أحد سلاطين المماليك المصريين ، ولد سنة ٧٧٠ هـ وتولى ملك مصر سنة ٨١٧ هـ وتوفى سنة ٨٢٢ هـ بعد ملك دام خمس سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام ، ومما يروى عن سبب بنائه أنه كان بموضعه خزانة يسجن بها أرباب الجرائم ، فحبس المؤيد ، فقاسى فى ليلة من ليالى سجنه شدائد وأهوالا ، فنذر لله تعالى إن خرج من سجنه وتيسر له ملك مصر ليجعلن هذه البقعة مسجداً لله عز وجل ، ومدرسة لأهل العلم . فلما ولى مصر وفى بنذره ، وحول تلك البقعة من سجن تزهق فيه النفوس إلى مدارس نافعة ، وموضع عبادة وركوع وسجود، وكان السلطان المؤيد شهما شجاعا . عالى الهمة ، عالماً محباً للعلماء عادلا تقياً يجل الشرع ويخضع لمن حاكمه إليه ، وينكر على أمرائه أن يعارضوا أحكام القضاة وكان يعنى بالحديث ، وله فى العمارة همة مشكورة ، وآثار غراء .

— ٣ —

السلطان الغورى :

السلطان الأشرف قانصوه الغورى الذى تنسب اليه الغورية هو آخر السلاطين المماليك بمصر . تولى الغورى الملك خمس عشرة سنة وتسعة أشهر ، من سنة ٩٠٦ هـ إلى سنة ٩٢٢ هـ . وكان تقيا عفيفا ، عالماً أديباً ، محباً للعلماء والأدباء ، انتخبه المماليك للسلطنة على غير رضاه حين اختلت الأمور، ولم يروا أصلح للملك منه ، فشرط عليهم أن يخبروه إذا كرهوا ولايته حتى يعتزل الملك، أحسن الغورى السيرة واهتم بعمارة البلاد ، فاجتمعت الكلمة عليه واستقرت الأمور فى مصر وعنى بتشييد المبانى العظيمة وشق الترع وكان له مجلس يجتمع فيه العلماء والكبراء ، فيتحدثون ويتجادلون فى مسائل من التاريخ والعلوم الدينية والعربية وكان السلطان يسأل ويدلى برأيه وقد جمعت آراؤه فى كتاب بقى إلى هذا العصر ، وفيها دليل على علمه وأدبه ، وحسن رأيه وفكاهته، ومن آثاره مصحف كبير جميل مذهب فى دار الكتب المصرية، وكانت المملكة المصرية فى عهده تشمل الشام وبلاد العرب، وكانت أساطيل مصر تسير فى البحر الأحمر والمحيط الهندى إلى بلاد الهند، وقد بنى المصريون على شواطىء الهند قلاعا لحماية الأساطيل والتجارة ، وبينما السلطان يدبر المملكة ويجتهد فى التعمير والإصلاح وقعت حرب بينه وبين السلطان سليم العثمانى ، فقتل الغورى فى موقعة « مرج دابق » سنة ٩٢٢ من الهجرة .

— ٤ —

سقوط بغداد :

فى عام ٦٥٦ هـ فى عصر المماليك فى مصر وقعت بغداد صريعة تحت أقدام التتار المخربين ، وكان جيش التتار قد وصل فى غزوه بقيادة جنكيزخان إلى بحر بنطش (البحر الأسود) ثم توفى سنة ٦٢٤ هـ عن ٧٦ سنة ، وقد تولى المملكة ٢٢ سنة ، وكان من أحفاده هولاكو الذى كان من نصيبه فى هذه المملكة الواسعة ، بلاد فارس ، ملكها سنة ٦٥٤ هـ ثم أقدم على مالم يقدم عليه أحد من أسلافه، فقصد بغداد ، مكان الأمل من المسلمين فى جميع أقطار الدنيا ، وموئل عزهم، الذى يطاولون به ويفاخرون .

زحف على بغداد ، وخدع الخليفة المستعصم وفقهاء المدينة وأماثلها ، حتى حضروا اليه بمعسكره ، فأمر بذبحهم ، ثم هجم على دار الخلافة ، فاستولى على مابها ، وقتل أهلها وسبى أطفالها ، ثم أباح بغداد أربعين يوماً كانت كفيلة أن تمحو منها كل فضل تجمع لها فى خمسة قرون ظلت فيها عاصمة الإسلام ، ومثابة العلماء والأدباء ، وكان أفظع عمل له هو قضاؤه على التراث العلمى للمسلمين .

قضى على كل ذلك بين غمضة عين وانتباهتها ، وأودى بالكتب التى كانت أنفس ذخائر المدينة حرقاً وإغراقاً ، حتى لقد اسود ماء دجلة من كثرة ماري به من الكتب التى تراكت . فكانت جسراً يعبر عليه جند هذا الغازى الأثيم ،

يقول مؤلف كتاب « الخميس فى أحوال أنفس نفيس » الديار بكرى حسين ابن محمد بن الحسن ، الذى تولى قضاء مكة و توفى سنة ٩٨٢ هـ :

« فى سنة ٦٥٤ هـ خرج مبيد الأمم الطاغية العنيد هولاكو بن تولى بن جنكيز خان المغل ، فاستولى على الرى وغيرها ، ولم يجترىء على بغداد لكثرة جندها ، وكان ابن العلقمى وزير المستعصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد رافضيا يكره العباسيين ويحب أن يكون الأمر للعلويين ، فكتب إلى هولاكو أن يحضر إلى بغداد ، وهو يسلمها اليه ، فكتب إليه هولاكو : إن جندها كثير ، فإن كنت صادقا فيما تقول ، وداخلا فى طاعتنا ، ففرق عساكر بغداد ونحن نحضر إليك ، فلما وصل إليه كتابه دخل على المستعصم ، وقال له : إن الجند كثير ، وكلفتهم طائلة ، والعدو قد رجع إلى بلاد العجم ، والصواب أن تعطى دستوراً لخمسة عشر ألفاً وتوفر علومهم ، فأجابه المستعصم إلى طلبه ، ثم فعل ذلك بعشرين ألفاً آخرين ، وكتب إلى هولاكو يعلمه

بالأمر فقصد بغداد ، وخرج اليه أهلها فانتصروا عليه وكسروا جنده أقبح كسرة ، فولى هاربا ، ولكن العلقمي اتفق مع بعض أعوانه أن يقطعوا جسر دجلة فتفرق الجند وغرقت أمتعتهم ومواشيهم وصار السعيد منهم من يجد فرسا ينجو عليه ، فأرسل العلقمي إلى هولاكو يعلمه بذلك فأقبل على بغداد واستولى عليها بأيسر حال وأسر الخليفة وأسرته وأمر أن يجعلوا في خيمة خارج بغداد حتى إذا كان العصر ، أمر فوضع الخليفة وابنه في عدلين ومازال الجند يرفسونهما ، حتى ماتا في المحرم سنة ٦٥٦ هـ ، وأغرقت بغداد بعد قتل أكثر أهلها وقيل إن من قتل في هذه الفتنة كان ألف ألف وثمانمائة ألف . ثم إن هولاكو بعد مدة طلب العلقمي ، ووبخه على ما فعل بسيده ، وقال له : إذا كان لا خير لك فيه وقد رأيت نعمته ، فكيف يكون لك خير في هولاكو ؟ ثم قتله شر قتلة ، في أوائل سنة ٦٥٧ هـ .

وقد امتد طمع هولاكو إلى ما بعد بغداد ، فسار نحو الشام . وكانت في يد المماليك الذين حكموها بعد الدولة الأيوبية ، وكانت لهم شكيمة وجيوش جرارة ، فردوه عن بلادهم وصانها الله من عبثه وجهل قومه .

وظل المغول زهاء قرن يتولون أمر المسلمين (٦٥٤ — ٧٥٠) وهم على وثنيتهم وجهالتهم ، فلم يستقم لهم أمر ولا أطرد نظام ، ثم رأوا أنهم مضطرون إلى الإسلام ليستطيعوا حكم شعوبه ومحتاجون إلى العلم ليحسنوا تدبير ملكهم فكان من بعضهم من يرى إبقاء على آثار المسلمين وحياطة للعلماء وإنشاء المدارس والمساجد وكان عملهم هذا تكفيرا عن سيئاتهم التي أتوها وهم في غمرة جهلهم وثورة فتكهم .

وقد ظهر فيهم بعد حين فاتك من فتاكهم أعاد سيرتهم ، فخرج فيما وراء النهر وظل يغزو ويفتح ويقتل وينهب حتى وصل إلى آسيا الصغرى فاستطاع أن يستولى عليها ويأخذها من بايزيد سلطان العثمانيين ويأسره سنة ٨٠٤ هـ ، ولم تمتنع عليه الشام فاستولى عليها كلها ، ولكن الله صان مصر من بطشه فلم يقدم إليها ، واكتفى بما بذله له مماليكها من طاعة فتحول لمحاربة الصين فمال في طريقه اليها سنة ٨٠٧ هـ وذلك هو تيمرلنك ولم يكن تيمرلنك المسلم بأقل من هولاكو الوثني شدة وقسوة فانه قتل العلماء وخرب المدن واشتد فتكه بالعرب ، حتى يقال إنه بنى من رءوسهم قلاعا وأهراما ، ولكنه استصفى بعضا من العلماء خصوصاً من اشتهر منهم بالفلسفة . وتبعه في خطته من إكرام العلماء ابناه : شاه رخ وأولوغ بك : فتمكنا من خدمة العلم وظهرت في مدتهما مؤلفات ونبغ كثير من العلماء .

الحياة الثقافية فى هذا العصر

فى عصر المماليك وجدت حركة علمية ضخمة كان من مظهرها كثرة العلماء فى كل فرع من فروع الثقافة الإسلامية والعربية ، وضخامة ماألفه هؤلاء العلماء من مؤلفات ، فقد نبغ فى هذا العهد من العلماء : الدماميني (٧٦٣ – ٨٢٧ هـ) الذى ولد بالإسكندرية وفاق فى النحو والنظم والنثر ، وشارك فى الفقه وفى غيره من العلوم وكان يتصدر بالجامع الأزهر لإقراء النحو (١) .

ومن العلماء والأدباء : ابن عقيل المصرى المتوفى عام ٧٦٩ هـ (٢) والفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط المتوفى عام ٨١٧ هـ والقلقشندى صاحب صبح الأعشى المتوفى عام ٨٢١ هـ . والنويرى صاحب نهاية الأرب المتوفى عام ٧٣٢ هـ ، وابن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٤٨ هـ صاحب مسالك الأبصار ، وتقى الدين بن حجة الحموى (٧٦٧ – ٨٣٧ هـ) صاحب خزانة الأدب ، وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى (٧٩٦ – ٨٢٤) ، وصفى الدين الحلى عبد العزيز بن على (٦٧٧ – ٧٥٠) والشاب الظريف (٦٢١ – ٦٨٨ هـ) وجمال الدين محمد بن نباتة المصرى (٦٨٦ – ٧٦٨ هـ) وابن الوردى (٦٨٩ – ٧٤٩ هـ) والبوصيرى (٦٠٨ – ٦٩٥ هـ) ، وابن دقاق المتوفى عام ٨٠٩ هـ مؤرخ الديار المصرية ، والمقريزى (٧٦٦ – ٨٤٥ هـ) ، ومحمد جمال الدين الوطواط المتوفى عام ٧١٨ هـ ، والدميرى صاحب حياة الحيوان المتوفى عام ٨٠٨ هـ ، وهم كلهم أو جلهم أثر من آثار الأزهر العلمية .

وقد حضر ابن خلدون إلى مصر ، واشترك فى الحياة العلمية فيها ، وزار حلقات الأزهر العلمية ، وتصدر للتدريس فيه .

كما هاجر إلى مصر فى هذا العهد كثير من العلماء الذين جددوا شباب النهضة العلمية فى العالم الاسلامى

وقد كان من العلماء من يعرف كثيرا من العلوم العقلية والطبية وغيرها زيادة على العلوم الدينية والعربية وهؤلاء لا يحصون ، نذكر منهم على سبيل المثال : الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهورى المتوفى سنة ١١٩٢ هـ ، فقد جاء فى سند إجازته

---

(١) ٢٣١ : ١ حسن المحاضرة

(٢) ٢٣٠ : ١ المرجع نفسه ، ويذكر باحث أن ميلاده عام ٧٠٧ هـ ووفاته كانت عام ٧٦١ هـ (٢٨٨ الحركة الفكرية فى مصر – عبد اللطيف حمزة)

ماملخصه : أنه تلقى فى الأزهر العلوم الآتية ، وله تآليف فى كثير منها ، وهى الحساب والميقات ، والجبر والمقابلة والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلامتها وعلم الاسطرلاب ، والزيج والهندسة والهيئة ، وعلم الأرتماطيقى ، وعلم المزاول وعلم الأعمال الرصدية ، وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه ، وعلاج البواسير وعلم التشريح ، وعلاج لسع العقرب ، وتاريخ العرب والعجم .

ومن العلماء كذلك ابن هشام المتوفى عام ٧٤٩ هـ (١) وابن إياس المؤرخ المتوفى عام ٩٣٠ هـ ، وأبو حيان (٦٥٤ – ٧٤٥هـ) (٢) وابن مكرم صاحب لسان العرب (٦٣٢-٧٦١هـ) ، والرضى النحوى المشهور المتوفى عام ٦٨٤ هـ(٢) ، وابن دقيق العيد (٦٢٥ – ٧٠٢ هـ) (٣) وتقى الدين السبكى (٦٨٣ – ٧٥٦ هـ) (٤) ، وشيخ الاسلام البلقينى (٧٢٤ – ٨٠٥ هـ)(٥) والعينى(٧٦٢ – ٨٥٥ هـ)(٦) ، والشمنى(٧) (٨٠١ – ٨٧٢ هـ) وابن الهمام المتوفى عام ٨٦١ هـ(٨) ، والسيوطى(٨٤٩-٩١١هـ)(٩) وكان من الصالحين : عبد العال خليفة السيد أحمد البدوى المتوفى عام ٧٣٢ هـ(١٠) .

وكان الأزهر يؤدى مهمته الدينية على أروع الوجوه ، وكان كذلك بجوار الأزهر مدارس مشهورة ، منها المدرسة الظاهرية القديمة التى بناها بيبرس عام ٦٦٢هـ ، ورتب بها لتدريس الشافعية بها : تقى الدين بن رزين ، ولتدريس الحنفية محي الدين بن عبد الرحمن بن الكمال بن العديم ، ولتدريس الحديث الحافظ شرف الدين الدمياطى ، ولتدريس القراءات كمال الدين القرشى .

ومنها المدرسة المنصورية التى بناها الملك المنصور قلاوون عام ٦٧٩ هـ ورتب فيها دروسا للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير ودروساً كذلك للطب ، ومنها المدرسة الناصرية التى بناها الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٣هـ ، وعين بها المدرسين للمذاهب الأربعة .

---

(١) ٢٣٠ ج ١ حسن المحاضرة
(٢) ٢٢٩ ج ١ حسن المحاضرة
(٣) ١٢٨ ج ١ » »
(٤) ١٣٠ ج ١ » »
(٥) ١٣٥ ج ١ » »
(٦) ٢٠١ ج ١ » »
(٧) ٢٠٢ ج ١ » »
(٨) ٢٠١ ج ١ » »
(٩) ١٤٠ ج ١ » »
(١٠) ٢٢٥ ج ١ » »

والمدرسة الظاهرية الجديدة التي فرغ من بنائها عام ٧٨٨ هـ ، وعين السلطان فيها مدرسين للفقه على المذاهب الأربعة وللحديث والقراءات ، وكان الشيخ سراج الدين البلقيني مدرسا فيها للتفسير

ومدرسة السلطان حسن التي بناها السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٥٨ هـ .

وقد مكثت عمارتها ثلاث سنوات ، وكانت نفقة اليوم الواحد لا تقل عن عشرين ألف درهم ، وكان لهذه المدرسة ثلاث منائر ، فسقطت واحدمنها على من تحتها ، وكان منهم نحو ثلثمائة من الأيتام الذين كانوا يتعلمون بمكتب السبيل ، وقد أرجف الناس بشؤم ذلك على الدولة ، فقال الشيخ بهاء الدين السبكي :

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى ... بشيره بمقال سار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة ... لكن لسر خفي قد تبين لي
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت ... فالوجد في الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل ... تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت ... من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت فرمت ... بنفسها لجوى في القلب مشتعل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة ... شيدت بنيانها للعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأت ... علماً فليس بمصر غير مشتغل

والمدرسة الظاهرية وتسمى البرقوقية أيضاً أنشأها الظاهر سيف الدين برقوق سنة ٧٨٦ هـ ، واختار لها كبار العلماء ، وكان يجلهم حتى بلغ من تقديره لأحدهم وهو الشيخ علاء الدين السيرامي أن كان يفرش له المصلى (السجادة) بيده ، وكان مدرس الحنفية بهذه المدرسة وشيخ الصوفية بمصر ، وكان بها دروس للفقه الشافعي والحنبلي والحديث والتفسير والقراءات ، وهي بخطه بين القصرين في شارع النحاسين بين مدرستي الناصرية والكاملية .

وكذلك المدرسة المؤيدية أنشأها الملك المؤيد سنة ٨١٩ هـ ، وقد أنفق عليها أربعين ألف دينار ، وقد اتفق أن مالت إحدى مناراتها فقال الحافظ ابن حجر في ذلك معرضاً بالشيخ العيني :

لجامع مولانا المؤيد رونق ... منارته بالحسن تزهو وبالزين
تقول وقد مالت عن القصد أمهلوا ... فليس على جسمي أضر من العين

فقال الشيخ العيني ردا عليه :

منارة كعروس الحسن إذ جليت — وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيبت بعين ، قلت ذا غلط — ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

وكذلك خانقاه شيخو : بناها سنة ٧٠٧ هـ سيف الدين شيخو العمرى ، وهو من مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، وجعلها لقراءة الفقه على المذاهب الأربعة ، وللحديث والقراءات والطب وكان يقرأ بها الشفاء لابن سينا ، ومن قول ابن أبي حجلة فيها وهو من أهل المغرب من تلمسان توفى سنة ٧٧٦ هـ :

ومدرســـة للعلم فيها مواطن — فشيخو بها فرد وآثاره جمع
لئن بات منها فى القلوب مهابة — فواقفها ليث وأشياخها سبع

وكانت بخط الصليبة تجاه جامع شيخو

وكان لهذه المدارس أثر كبير فى نهضة العلم وازدهار الثقافة وكثرة العلماء والمفكرين .

وفى مقدمة علماء هذا العصر : الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء (٥٧٧ – ٦٦٠ هـ) ، وكان فى غاية الزهد ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، وقدم مصر فأقام بها أكثر من عشرين سنة ناهيا عن المنكر آمرا بالمعروف حتى توفاه الله (١)

ومنهم القرافى أحمد بن إدريس أحد الأعلام انتهت إليه رياسة المالكية فى عصره وكان تلميذ الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ومات سنة ٦٨٤ هـ (١)

ومنهم ابن المنير أحمد بن محمد بن منصور الإسكندرى (١) أحد الأئمة المتبحرين فى العلوم (٦٢٠ – ٦٨٢ هـ) .

ومنهم ابن دقيق العيد الشيخ تقى الدين على بن وهب القوصى (٦٢٥ – ٧٠٢ هـ) ، انتهت إليه الرياسة فى عصره ، وشدت إليه الرحال ، ورثاه الشريف محمد بن أحمد بن عيسى القوصى بمرثية طويلة (٢)

ومنهم ابن الرفعة الإمام أحمد الأنصارى واحد عصره وفقيه دهره ، ولد بالفسطاط سنة ٦٤٥ هـ ومات سنة ٧١٠ هـ (٣) . ومنهم الشيخ السبكى (٣)

---

(١) ١٢٧ : ١ حسن المحاضرة — (٢) ١٢٨ : ١ المرجع نفسه .

(٣) ١٣٠ : ١ المرجع – ويلقب بالسبكى أيضا : قاضى القضاة شرف الدين السبكى (٥٨٥ – ٦٦٩ هـ) الذى درس بالصالحية وولى حسبة القاهرة وقضاء الديار

تقي الدين (٦٨٣ - ٧٥٦ هـ) انتهت إليه رياسة العلم بمصر ، وله مصنفات جليلة ، ورثاه ابن نباتة بمرثية طويلة مطلعها : (١)

نعاه للفضـــل والعلياء والنسب ناعيه للأرض والأفلاك والشهب

ورثاه كذلك الصلاح الصفدي بمرثية مطلعها (٢) :

أي طود من الشريعة مالا زعزعت ركنه المنون فالا

وله ابن من العلماء كذلك هو تاج الدين السبكي ابن تقي الدين واسمه عبدالوهاب (٧٢٩ - ٧٧١ هـ) (٣) .

ومنهم البلقيني (٤) شيخ الإسلام عمر بن رسلان مجتهد عصره ، وعالم المائة الثامنة (٧٢٤ - ٨٠٥ هـ) ، ورثاه الحافظ بن حجر بمرثية مطلعها :

ياعين جودي لفقد البحر بالمطر وأذري الدموع ولا تبقي ولا تذري

وابنه عـــلم الدين البلقيني حامل لواء مذهب الشافعي في عصره (٧٩١ - ٨٦٨ هـ .

ومنهم السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) وهو عبد الرحمن جلال الدين بن الإمام كمال الدين الخضيري ، العالم في شتى علوم الدين واللغة العربية ، صاحب التصانيف المشهورة . وقد ولد سنة ٨٤٩ هـ ومات والده وسنه خمس سنوات ، فحفظ القرآن وعمره دون الثامنة ، ثم طلب العلم عن مشايخ وقته ، وقد ابتدأ في التأليف وسنه سبع عشرة سنة حتى وصلت مؤلفاته أكثر من ثلثمائة، من أشهرها: الإتقان والمزهر في أصول اللغة ، والأشباه والنظائر في دقائق النحو ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . ترجم لنفسه فيه ترجمة مسهبة ، وذكر أنه رزق التبحر في سبعة علوم : التفسير، الحديث ، الفقه ، النحو ، المعاني . البيان ، البديع وقد تولى التدريس والإفتاء ولم يكن أشهر منه في زمنه، ويعد السيوطي من الأئمة الذين حفظوا العلم للخلف . وعبدوا مسالكه . رحمه الله رحمة واسعة ، وكانت وفاته بمصر (٥) وكان

المصرية (١٩٤ : ١ حسن المحاضرة) ، وبهاء الدين السبكي صاحب عروس الأفراح في البلاغة (٧١٩ - ٧٧٣ هـ) راجع ١٨٤ : ١ حسن المحاضرة .

(١) ١٣١ : ١ المرجع (٢) ١٣٣ : ١ المرجع .

(٣) ١٣٥ : ١ المرجع (٤) ١٨٩ : ١ المرجع .

(٥) ١٤٠ - ١٤٥ : ١ المرجع - ووالد السيوطي (٨٠٠ - ٨٥٥ هـ) كان عالما جليلا ورعا .

من أساتذته الأول : البلقيني والشرمساحي وشيخ الإسلام شرف الدين المناوى وتقي الدين الشبلي الحنفي، ومحي الدين الكافيجي والشيخ سيف الدين الحنفي . وله مؤلفات كثيرة خالدة.

ومن العلماء كذلك شرف الدين الدمياطي (١) شيخ المحدثين (٦١٣ - ٧٠٥هـ) والقطب الحلبي(١) وله كتاب في تاريخ مصر في بضع عشرة مجلدا توفي سنة ٧٣٥هـ ، والحافظ ابن جماعة محمد بن إبراهيم ومات بمكة سنة ٧٦٧ هـ (٢) ، والعراقي الحافظ عبد الرحيم بن الحسين (٧٢٥ - ٨٠٦ هـ) (٢) ، ورثاه ابن حجر بمرثية طويلة (٢)

ومن أشهر علماء هذا العصر العلامة ابن حجر أحمد بن علي (٧٧٣ - ٨٥٢هـ) وكان أديبا شاعرا ، ورثاه الأديب شهاب الدين الحجازي بمرثية جيدة مطلعها :

كل البرية للمنية صائرة وقفولها شيئا فشيئا سائرة

ومنهم : ضياء الدين جعفر بن محمد أحمد كبار الشافعية (٦١٨ - ٦٩٦ هـ) وخاله هو ابن دقيق العيد ، وجمال الدين الأسنوى (٣) الشافعي (٧٠٤ - ٧٧٧هـ)، ورثاه البرهان القيراطي بمرثية مطلعها :

نعم قبضت روح العلا والفضائل بموت جمال الدين صدر الأفاضل

ومنهم : بهاء الدين السبكي صاحب « عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح » (٧١٩ - ٧٧٣ هـ) ، ورثاه البرهان القيراطي بمرثية منها (٤) :

ستبكيك عيني أيها البحر بالبحر فيومك قد أبكى الورى من ورا النهر

ومنهم الدميري صاحب « حياة الحيوان » وتوفي سنة ٨٠٨ هـ (٥) ، والبرماوى (٧٦٣ - ٨٣١ هـ) (٥) ، وجلال الدين المحلي محمد بن أحمد (٧٩١ - ٨٦٤ هـ) ، درس الفقه بالمؤيدية والبرقوقية وكان ورعا زاهدا (٦) ، وابن النقيب الإمام المفسر العلامة المفتي (٦١١ - ٦٩٨ هـ) وله تفسير كبير للغاية (٦) ، وفخر الدين الماردينى انتهت إليه رياسة الحنفية في مصر وألقى دروسا بالمنصورية

---

(١) ١٥٠ : ١ حسن المحاضرة (٢) ١٥١ : ١ المرجع
(٣) ١٨٠ : ٧ المرجع (٤) ١٨٤ : ١ حسن المحاضرة
(٤) ١٨٦ : ١ المرجع (٥) ١٨٨ : ١ المرجع
(٦) ١٩٨ : ١ المرجع

(٦٥٠ – ٧٣١ هـ) (١) ، والعينى محمود بن أحمد الحنفى (٧٦٢ – ٨٥٥ (٢) هـ) ، وابن الهمام محمد بن عبد الواحد (٧٩٠ – ٨٦١ هـ) وولى مشيخة الشيخونية ، ومنهم الشمنى أحمد بن محمد بن محمد وتوفى سنة ٨٧٢ هـ ورثاه السيوطى بمرثية طويلة منها (٣) :

رزء عظيم به تستنزل العبر   وحادث جل فيه الخطب والغير

ومنهم أحمد بن إبراهيم قاضى القضاة الحنبلى (٨٠٠ – ٨٧٦ هـ)

ومنهم أبو العباس المرسى الصوفى توفى عام ٧٠٩ هـ

ومنهم محمد بن مكرم صاحب لسان العرب (٦٣٠ – ٧١١ هـ) (٤) ، وأبو حيان (٤) محمد بن يوسف النحوى المتوفى سنة ٧٤٥ هـ ، وابن هشام المصرى (٧٠٨ – ٧٦١ هـ) (٥) ، وابن عقيل (٦) (٦٩٨ – ٧٦٩ هـ) وابن الدماميني (٧٦٣ – ٨٢٧ هـ) (٦) .

مصادر الأدب فى هذا العصر

وقد ألف العلماء والأدباء موسوعات أدبية وثقافية عامة تعد من أهم مصادر الأدب فى هذا العصر ، وتمتاز هذه الموسوعات بالضخامة والفوائد الغزيرة ، ومنها نهاية الأرب :

اسمه « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، وهو سفر كبير فى ثلاثين مجلداً لشهاب الدين أحمد النويرى المصرى المتوفى سنة ٧٣٢ من الهجرة ، ألفه فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وقد قال فى مقدمته : « رغبت فى صناعة الآداب وتعلقت بأهدابها وانتظمت فى سلك أربابها ، فامتطيت جواد المطالعة وركضت فى ميدان المراجعة ، وحيث ذل مركبها وصفا لى مشربها ، آثرت أن أجرد منها كتابا أستأنس به وأرجع اليه ، وأعول فيما يعرض لى من المهمات عليه فاستخرت الله سبحانه وتعالى وأثبت منها خمسة فنون حسنة الترتيب بينة التقسيم والتبويب ، كل فن منها يحتوى على خمسة أقسام :

---

(١) ١٩٩ : ١ المرجع   (٢) ٢٠١ : ١ المرجع
(٣) ٢٠٢ : ١ المرجع   (٤) ٢٢٩ : ١ حسن المحاضرة
(٥) ٢٣٠ : ١ المرجع   (٦) ٢٣١ : ١ المرجع

الفن الأول : فى السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية ، وفيه خلق السماء ، ووصف الملائكة ، والكواكب والسحاب ، والصواعق والنيازك ، والرعد والهواء والنار ، والليالى والأيام ، والشهور والأعوام والفصول ، والمواسم والأعياد ، وقد اشتمل أيضاً على ما فى الأرض من الجبال والبحار والجزائر ، والأنهار والغدران والعيون . كما شرح طبائع البلاد ، وأخلاق سكانها ، وخصائصها ، والمبانى القديمة ، والمعاقل والقصور والمنازل .

والفن الثانى : فى الإنسان وما يتعلق به ، ويشتمل على وصف طبائعه وأعضائه وتشبيهها ، والغزل والنسيب ، والمحبة والهوى ، والأنساب ، وعلى المشهور من أمثال العرب وأخبار الكهنة ، والزجر والفأل والطيرة ، والفراسة والذكاء ، والأحاجى والألغاز ، ثم المدح والهجو والمجون ، والفكاهات والملح ، والخمر والندماء والقيان ووصف آلات الطرب . ويشتمل كذلك على بيان أحوال الملك وما يشترط فيه ، وما يجب له على الرعية وما يجب للرعية عليه ، ويتصل به ذكر الوزراء ، وقادة الجيوش ، وأوصاف السلاح ، وولاة المناصب الدينية والكتاب والبغاء .

وخصص الفن الثالث للحيوان : ففيه وصف السباع وما يتصل بها من جنسها ، كالأسد والنمر والفهد ، والكلب والذئب والضبع ، والثعلب والدب والهر والخنزير : ووصف الوحوش والظباء وما يتصل بها من جنسها . كالفيل والكركدن والزرافة ، والمهاة والإيل والحمر الوحشية والوعل والظبى والأرنب والنعام . وجاء فى هذا الفن وصف الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم ، ووصف الطير ، كالنسر والرخم والحدأة ، والغراب والدراج والحبارى ، والطاووس والزرزور والسمانى ، والعقعق والعصافير .

والفن الرابع : خاص بالنبات ، وقد بين أصل النبات وما تختص به أرض دون أرض . ويتصل به ذكر الأقوات ، والخضراوات والبقولات ، وأوضح فى الأشجار ما ثمره قشر لا يؤكل ، وما ثمره نوى لا يؤكل ، وما ليس لثمره قشر ولا نوى . ثم الفواكه المختلفة والرياض والأزهار ، وما وصفت به نظماً ونثراً .

وجاء فى الفن الخامس : التاريخ والقصص والأخبار : ففيه بيان لمبدأ خلق آدم وحواء وأخبارهما . وأتبع هذا بقصص الأنبياء والمرسلين . ثم بأخبار الملوك والطوائف ، وخبر سيل العرم ، ووقائع العرب فى الجاهلية ، وأخبار الملة الإسلامية ، وذكر شيء من سيرة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأخبار الخلفاء من بعده (رضى الله عنهم) ، وأخبار الدولة الأموية ، والعباسية والعلوية ، ودول ملوك الإسلام وأخبارهم ، وما فتح الله سبحانه وتعالى عليهم .

هذا طرف مما اشتمل عليه هذا الكتاب المسمى « نهاية الأرب فى فنون الأدب » وقد قال فيه مؤلفه : « وأما أوردت فيه إلا ما غلب على ظنى أن النفوس تميل إليه ، وأن الخواطر تشتمل عليه . ولو علمت أن فيه خطأ لقبضت بنانى ، وغضضت طرفى . ولقد تبعت فيه آثار الفضلاء قبلى ، وسلكت منهجهم ، فوصلت بحبالهم حبلى » . إلى أن قال : « والذى أدى إليه اجتهادى من تأليفه فقد أصدرته ، والذى وقفت عنده غايتى فقد أوردته . وبالله ، سبحانه ، أستعين ، عليه أتوكل ، وإليه أتضرع فى التيسير وأتوسل » .

ونورد هنا طرفاً من النصوص الأدبية الواردة بهذا الكتاب ، تأييداً لما سبق ذكره :

١ — جاء فى وصف الشمس وتشبيهها — وقد قابلت القمر — قول الشاعر :

أما ترى الشمس وهى طالعة تمنع عنا إدامة النظر
حمراء صفراء فى تلونها كأنها تشتكى من السهر
مثل عروس غداة ليلتها تمسك مرآتها من القمر

وقال مؤيد الدين الطغرائى . عفا الله عنه ورحمه :

وكأنما الشمس المنيرة إذ بدت والبدر يجنح للمغيب وما غرب
متحاربان ، لذا مجن صاغه من فضة ، ولذا مجن من ذهب

٢ — وما ذكر فى القمر على طريق الذم :

حكى أن اعرابيا رأى رجلا يرقب الهلال فقال له : « ما ترقب فيه ، وفيه عيوب لو كانت فى الحمار لرد بها ؟ » قال : « وما هى ؟ » فقال : « إنه يهدم العمر ؛ ويقرب الأجل ، ويحل الدين ، ويفضح الطارق ، ويدل على السارق » .

ومن عيوبه أن الإنسان إذا نام فى ضوئه حدث فى بدنه نوع من الاسترخاء والكسل ، ويهيج عليه الزكام والصداع ، وإذا وضعت لحوم الحيوانات مكشوفة فى ضوئه ، تغيرت طعومها وروائحها .

٣ — وذكر فيه ما قيل فى وصف الليل وتشبيهه : قد أكثر الشعراء فى وصف الليل بالطول والقصر ، وجعلوا سبب الطول الهموم . وسبب القصر السرور . ولهذا أشار بعض الشعراء فى قوله :

إن الليالى للأنام مناهل	تطوى و تنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة	وطوالهن مع السرور قصار

وقال بشار :

خليلى ما بال الدجى لا يزحزح ؟	وما بال ضوء الصبح لا يتوضح؟
أضل النهار المستنير طريقه ؟	أم الدهر ليل كله ليس يبرح ؟

٤ — وذكر فيه ما جاء فى نهر النيل : قد وصف بعض الشعراء النيل فى طلوعه وهبوطه ، فقال :

واهاً لهـــذا النيل أى عجيبة	بكر بمثل حديثها لا يسمع
يلقى الثرى فى العام وهو مسلم	حتى إذا ما مل عاد يودع
مستقبل مثل الهلال فدهره	أبداً يزيد كما تزيد ويرجع

وهذا النهر مخالف فى جريه لسائر الأنهار ، لأنه يجرى مما يلى الجنوب مستقبل الشمال . وكذلك نهر مهران بالسند ، ونهر الأرنط ، وهو نهر حمص وحماة ، ويسمى العاصى ، لمخالفته للأنهار فى جريها . وما عداها من الأنهار جريها من الشمال إلى الجنوب ، لارتفاع الشمال عن الجنوب وكثرة مياهه . وهو أخف المياه وأحلاها ، وأعمها نفعاً وأكثرها خراجاً .

٥ — ومما جاء فيه عن فضل مصر وما وصفت به : حكى أن أمير مصر ، وهو موسى بن عيسى الهاشمى ، والى مصر فى أيام الرشيد ســـنة ١٧٥ هجرية ، وقف بالميدان عند البركة ، فالتفت يميناً وشمالا ، وقال لمن كان معه : « أترون ما أرى؟ » قالوا « وما يرى الأمير ؟ » قال : « أرى عجباً ما فى الدنيا مثله » . فقالوا : « ما يقول الأمير ! » فقال : « أرى ميدان رهان ، وحيطان نخل ، وبستان شجر ، ومنازل سكنى ، وذروة جبل ، وجبانة أموات ، ونهراً عجاجاً ، وأرض زرع ،

ومراعى ماشية ، ومراتع خيل ، وساحل بحر ، وشاطىء نهر ، وقانص وحش ، وصائد سمك ، وملاح سفينة ، وحادى إبل ، ومفازة رمل ، وسهلا وجبلا — فهذه ثمانية عشر متنزها فى أقل من ميل فى ميل .

خطط المقريزى :

واسمه الكامل «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وهو كتاب تاريخى شامل فى تاريخ مصر وآثارها ، ويعد من مصادر التاريخ المصرى المهمة ، وهو جامع جم الفائدة جمل فيه وصف الخطط والمبانى والبلاد المصرية ذريعة إلى الإفاضة فى تاريخها وتاريخ مؤسسيها وما توالى عليها من حوادث ، وله فى أثناء ذلك بحوث اجتماعية تدل على تفكير بعيد المدى ، وبالكتاب كثير من التراجم والمباحث التى لا ترى فى سواه ، وهو مرجع الباحثين عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية فى ذلك العصر . . ولكثرة فوائده ترجم إلى عدة لغات ، وقد نسج على منواله على مبارك باشا فى كتابه المعروف بالخطط التوفيقية ، وهو مطبوع فى جزءين

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا :

وهو موسوعة أدبية كبيرة مؤلفه هو العالم المصرى الذائع الصيت ، الفقيه الكاتب ، المؤرخ الحافظ ، الأديب الناقد . أحمد بن على بن أحمد القلقشندى ، ثم القاهرى ، الشافعى ، المولود بقرية قلقشندة — بمديرية القليوبية سنة ٧٥٦ المتوفى سنة ٨٢١ هـ . وقد نشأ القلقشندى نشأة عربية بمقدار مايسمح به زمانه فى عصر المماليك . فهو من أصل عربى صميم من بنى بدر بن فزارة ، قد نزلوا مصر مع العرب الذين وردوها حين الفتح وبعده . فاستقر باقليم القليوبية . ويقول القلقشندى عن نسبه فى كتابه هذا : وبنو بدر هم قبيلتنا التى إليها نعتزى : وفيها ننتسب . وأهل بلدتنا (قلقشندة) نصفهم من بنى بدر ، ونصفهم من بنى مازن من فزارة .

وقد عاش فى عصر المماليك الذى نتحدث عن معالم الأدب فيه ، ذلك العصر الذى لم يبق فيه شىء يستحق اسم العربية إلا فى مصر والشام بعد أن اكتسح التتار شرق البلاد الإسلامية ووسطها إلى أن هزمهم المماليك فى الشام . وحتى هذه البقية قد أوشكت أن تأتى عليها الصناعات البديعية المتكلفة على أقلام كتاب هذين القطرين إلا قليلا منهم ، فصار الكلام عندهم لا يستحق اسم الأدب إلا اذا أثقل بهذا البهرج

من الحلى اللفظية كالسجع والجناس أو كالتناسب أو مراعاة النظير والتورية بأسماء العلوم والأشخاص ، وكهذه الزينة التي توضع في غير موضعها كالتضمين والاستعارة والاقتباس مما ستجده أمامك مما نقله المؤلف عن السبكي في مقدمة شرحه على متن التخليص في البلاغة وهو من أئمة البلغاء . وقد اتجه القلقشندي إلى طلب العلم ناشئا بالإسكندرية دون القاهرة وبها الأزهر أكبر معهد في مصر ، بل في الشرق ، بل في الدنيا آنذاك . فلعلها ضرورات العيش . وظروف الحياة . لقد وجد في الإسكندرية أساتذة أجلاء كثيرين أخذ عنهم ، وأعانه على بلوغ الغاية ما كان يمتاز به من قوة الحفظ ، وثقوب الذهن ، والمثابرة على العمل حتى أجيز وهو في الواحدة والعشرين بالفتيا والتدريس . ثم اختير في ديوان الإنشاء في سنة ٧٩١ أي في عهد الدولة البرقوقية ، وله من المؤلفات : في الفقه ، كتاب الغيوث الهوامع . . . وفي التاريخ : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، ونهاية الأرب في معرفة قبائل العرب ، وفي الإنشاء : صبح الأعشى .

وصبح الأعشى هذا مبني على الإنشاء ، وأدواته ، وشروطه ، وما يحتاج إليه الكاتب من علوم أدبية ، وتاريخية ، واجتماعية ، وقد طبعته دار الكتب المصرية في أربعة عشر جزءا . وقد ذكر مؤلفه في مقدمته أنه رتبه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة ، وجعل المقدمة في مبادىء يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء وفيها خمسة أبواب :

الاول في فضل الكتابة ، ومدح فضلاء أهلها ، وذم حمقاهم

والثاني في بيان مدلولها . والثالث في صفات الكتاب . والرابع في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء . والخامس في قوانين ذلك الديوان ، وفيه مقالات .

المقالة الاولى فيما يحتاج اليه الكاتب من الامور العلمية والعملية . والمقالة الثانية في المسالك والممالك . والثالثة والرابعة في وصف الكتابة في أطوارها التي مرت بها وما ظهر فيها من سجع وغيره وما التزم في بدئها وختامها من أمور اختلفت باختلاف المكتوب اليه ، وموضوع الكتاب .

والمقالة الخامسة في الولايات وأنواعها ، وفيها كلام عن البيعة والعهد ، وبيان أنواع المناصب من أصحاب السيوف والكلام وغيرهم ، وقد تناول في المقالات بعد الباقية أمورا تشبه ما سبق من كل ما يحتاج الكاتب إلى معرفته من الاصطلاحات وما

يكتب فى صورتها ، والإيمان وحكمها الشرعى ، وعقد الصلح وفسخه والهدنة وصورة ما يكتب فى كل ذلك ، والكلام على البريد ، واتخاذ العرب له ، وذكر مراكزه بمصر والشام ، وذكر حمام الرسائل ومطاراته وأبراجه .

ويقول القلقشندى فى سبب تأليفه لكتابه : إنه لما لحق بديوان الإنشاء ، أنشأ مقامة بناها على أنه لابد للإنسان من حرفة يتكسب بها ، وأن أليق صناعة بأهل العلم الكتابة ، وأن أفضل الكتابة كتابة الإنشاء ، وأنه جمع فى تلك المقامة من أصول هذه الصناعة وقوانينها مالم تتسع له بطون المؤلفات الطوال فى هذا الباب ، ثم سئل أن يشرحها فكان شرحها — صبح الأعشى — ويقع فى سبعة أجزاء ضخام خلافا لما قاله السخاوى واتبعه فيه المعاصرون وكان فى دار الكتب منها أربعة واستنسخت الثلاثة الأخر بآلة التصوير من مكتبة أوكسفورد با نكلترا . ويشتمل الكتاب على ما يأتى :

١ — آداب الكتاب وما يجب أن يتحلو به من الصفات .

٢ — ما تتطلبه صناعة الكتابة من آلات ووسائل .

٣ — ديوان الإنشاء وأصل وضعه فى الإسلام وقوانينه ومراتب أصحابه

٤ — مناصب الدولة المصرية وألقاب أصحابها ومراسم ملوكها .

٥ — وصف شامل للأدب فى عصر المماليك وهو عصر المؤلف

٦ — نماذج كثيرة من كتابة عظماء الكتاب فى أزمنة متفاوتة

وعلى الجملة فهو خزانة علم وأدب وتاريخ ، ولا يستغنى عنه أديب ولا مؤرخ ، وقد اختصر المؤلف كتابه هذا فى كتاب سماه « صبح الضوء المسفر فى جنى الدوح المثمر » .

وقد خلص القلقشندى ما أمكنه بنشأته العربية الصريحة من الصناعات البديعية التى لم يسلم منها مثل ابن السبكى وسواه ، ولا يأتى له من ذلك إلا بعض الاستعارات المقبولة كما فى وصفه لعلوم البلاغة بقاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة ، والسجع المقبول فى قوله : غالب فى الكلام أن يعلم سبب تحسينه ، وتعليل مواد تمكينه ، والطباق المطبوع فى مثل قوله : ويجاب عن العلة فى انحطاطه وارتفاعه ، ويذكر المعنى فى ارتقائه من حضيض القول إلى ايفاعه : وكل أولئك لا يمنع أن أساليبه أقرب إلى الأسلوب المرسل المتحرر من الصنعة والتكلف ، وهذه فضيلة

ومنقبة تبين عن رسوخ قدمه في الإنشاء وتقديمه للمعاني على الألفاظ (١) .

وللقلقشندي كتاب « نهاية الارب في معرفة أنساب العرب » وقد طبع ببغداد وكتاب « قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » وهو ذكر للقبائل العربية في مصر ، ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

وللقشقشندي فصل ذكره في كتابه عن علوم البلاغة وفائدتها ، قال :

اعلم أنه : لما كانت صناعة الكتابة مبنية على سلوك سبل الفصاحة واقتفاء سنن البلاغة وكانت هذه العلوم هي قاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة اضطر الكاتب إلى معرفتها والإحاطة بمقاصدها ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب وإنشاء الجواب جارياً في ذلك على قوانين اللغة في التركيب ، مع قوة الملكة على إنشاء الأقوال المركبة المأخوذة على الفصحاء والبلغاء من الخطب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخلوها من اللكن وتأدية المطلوب بها ، وتكميل الأقاويل الشعرية نثراً كانت أو نظماً . في بلوغها غايتها ، وتأدية ماهو مطلوب بها وأنها كيف تتعين بحسب الأغراض ، لتفيد مايحصل بها من التخييل الموجب لانتقال النفس من بسط وقبض ، والشيء يذكر بضده فيذكر المحاسن بالذات والعيوب بالعرض ، قال أبو هلال العسكري : فإن صاحب العربية إذا أخل بطلب هذه العلوم ، وفرط في التماسها . فاتته فضيلتها . وعلقت به رذيلة فوتها ، وعفى على جميع محاسنه ، وعمى سائر فضائله ، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد ، وآخر ردىء ، ولفظ حسن ، وآخر قبيح ، وشعر نادر ، وآخر بارد ، بان جهله ، وظهر نقصه ، وإذا أراد أن ينشىء رسالة ، أو يضع قصيدة وقد فاتته هذه العلوم ، مزج الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل ، وعبرة للعاقل ، وكذلك إذا أراد تصنيف كلام منثور ، أو تأليف شعر منثور وتخطى هذه ، ساء اختياره ؛ وقبحت آثاره ؟ فأخذ الردىء المردود ، وترك الجيد المقبول ، فدل على قصور فهمه ، وتأخر معرفته ؛ مع مافي هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلى فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اللذين منهما يستمد الكاتب شريف المعاني ، ويستعير فصيح الألفاظ ، بل منهما تستفاد سائر العلوم وتقتبس نفائس الفضائل قال : وقبيح لعمري بالفقيه المؤتم به والقارىء المقتدى بهديه والمتكلم المشار اليه في حسن مناظرته ، وتمام آلته ومجادلته ، وشدة شكيمته في

---

(١) ص ١٣٣ : ٣ من الادب العربي وتاريخه لخفاجي والعقدة وبعض الاساتذة.

حجاجهو بالعربى الصليب ، والقرشى الصريح . أن لا يعرف فهم إعجاز كتاب الله إلا من الجهة التى يعرفه منها الزنجى والنبطى . وأن يستدل عليه بما يستدل به الجاهل الغبى » .

على أن الشيخ بهاء الدين السبكى رحمه الله قد ذكر فى شرح تلخيص المفتاح . أن أهل مصر لا يحتاجون إلى هذه العلوم وأنهم يدرونها بالطبع ، فقال فى أثناء خطبه : أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم ، والفهم المستقيم ، والأذهان التى هى أرق من النسيم وألطف من ماء الحياة فى المحيا الوسيم ، أكسبهم النيل تلك الحلاوة وأشار اليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة : فلم يدركوها بطباعهم ما أفنت فيه العلماء فضلا من الاعمار الأعمار ، ويرون فى مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الأستار .

والسيف مالم يلف فيه صيقل   من طبعه لم ينتفع بصقال

فيالها من غنيمة لم يوجف عليها من خيل ولا ركاب ، ولم يزحف إليها بعدو عيدية ، ولا بلحاق لاحق وانسكاب سكاب ، فلذلك صرفوا هممهم إلى العلوم التى هى نتيجة أو مادة لعلم البيان كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن، ثم قال وأما أهل بلاد الشرق الذين لهم اليد الطولى فى العلوم ، ولا سيما العلوم العقلية والمنطق ، فاستوفوا هممهم الشامخة فى تحصيله ، واستولوا بجدهم على جملته وتفصيله ، ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا عنها بملء سجلهم ، وكيف لا وقد أجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم . فلذلك عمروا منه كل دارس ، وعبروا من حصونه المشيدة ما رقد عند الحارس . وبلغوا عنان السماء فى طلبه (ولو كان الدين فى الثريا لناله رجال من فارس) . إلى أن خرج عنهم المفتاح . فكأن الباب أغلق دونهم ، وظهر من مشكاة بلاد الغرب المصباح ، فكأنما حيل بينه وبينهم وأدارت المنون على قطبهم الدوائر فتعطلت بوفاته من علومه أفواه المحابر وبطون الدفاتر وانقطعت زهراتهم الطيبة من المقتطف ، وتسلط عن العضد لسان من يعرف (كيف تؤكل الكتف) فلم تظفر بعد هؤلاء الأئمة رحمهم الله من أهل تلك البلاد : بمن محض هذا العلم فألق للطالب زبدته ومحض النصح فنشر على أعطاف العارى بردته ، ولا حملت قبول القبول عنهم بطاقة ولا حصلت للتطلعين لهذا العلم على تلك الأبواب طاقة ، ولا رأينا بعد أن انطمست تلك الشموس المشرقة واندرست طبقة تحرى الفرقة . ولم يبق إلا رسوم هى من فضلاتهم مسترقة ــ من أطلع غصن قلمه من روض الأذهان

زهرة على ورقة ولا من علق شنه بطبقتهم فيقال (وافق شن طبقة) بل ركدت بينهم فى هذا الزمان ريحه وخبت مصابيحه ، وناداه الأدب سواكم أعنى و(رب كلمة تقول دعنى) :

وما بعض الإقامة فى ديار   يهان بها الفتى إلا بلاء

فعند ذلك أزمع هذا العلم الترحل . وآذن بالتحول :

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله   فى منزل فالرأى أن يتحولا

وفزع إلى مصر فألقى بها عصا التسيار ، وأنشد من نادى من تلك الديار :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى   تخب بى الركاب ولا أمامى

ولقد أحسن رحمه الله فى بيان السبب ، والتعويل فى انجبال أهل مصر على هذا العلم على علاقة الصهر والنسب . حيث قال فى أوائل خطبته فى أثناء الصلاة على النبى (صلى الله عليه وسلم) : صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ماخفقت للبلاغة راية نجد من بنى غالب بن فهر ، وتعلقت بأزمة الفصاحة أهل مصر : لما لهم من نسب وصهر .

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى رحمه الله فى كتابه «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» : وهذه العلوم وإن لم يضطر إليها ذوو الذهن الثاقب ، والطبع السليم ، والقريحة المطاوعة والفكرة المنقحة ، والبديهة المجيبة والروية المتصرفة(١) ، ولكن العالم بها متمكن من أزمة المعانى وصناعة الكلام ، يقول عن علم ويتصرف عن معرفة ، وينتقد بحجة ، ويتخير بدليل ، ويستحسن ببرهان ، ويصوغ الكلام بترتيب

وحقيق ماقاله ، فان الأديب والكاتب العاريين عن هذه العلوم قاصران عن أدنى رتب الكمال يجيدان ولا يدريان كيف يجيدان . فلو سئل كل منهما عن علة معنى استحسنه أو لفظ استحلاه أو تركيب استجاده ، لم يقدر على الإتيان بدليل على ذلك .

وقد حكى الإمام عبدالقاهر الجرجانى قال : ركب الكندى المتفلسف إلى أبى العباس ، وقال له : إنى أجد فى كلام العرب حشوا ، فقال له أبو العباس فى أى موضع ؟ قال وجدت العرب تقول : عبد الله قائم ، ثم يقولون إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبدالله لقائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد . فقال له أبو

العباس : لا ، بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم عبدالله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم إن عبدالله قائم : جواب عن سؤال سائل ، وقولهم إن عبد الله لقائم جواب على إنكار منكر قيامه ، فما أحار المتفلسف جوابا فاذا ذهب مثل هذا على الكندى فما الظن بغيره ، وإن كان من محاسن الكلام مالا يحكم فى امتزاجه بالقلوب غير الذوق الصحيح .

وللقلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى رسالة فى المفاخرة بين العلوم (١) جاء فيها : الحمد لله الذى جعل العلم جلالا تود جلائل الفضائل أن تكون له أتباعا ، وأطلق ألسنة الأقلام من جميل ثنائه بما أنطق به ألسنة العالم ليكون الحكم بما ثبت من مأمور فضله إجماعا ، وأجرى من قاموس فكره جداول أنهار العلوم الزكية فنعش قلوبا ونزه أبصارا وشنف أسماعا :

ومنها عن علم اللغة . قال : لقد علمتم معشر العلوم أنى أعمكم نفعا ، وأوسعكم مجالا ، وأكثركم جمعا ، على قطب فلكى تدور الدوائر ، وبواسطتى تترك المقاصد ويستعلم مافى الضمائر وبدلالتى تعلم المعانى المفردات ، ويتميز مايدل على الأدوات ، وتتبين دلالات العام والخاص . ويتعرف ما يرشد إلى الأنواع والأجناس وما يختص بالأشخاص على أن كلكم كل على ، ومحتاج فى ترجمة مقصوده إلى ، فلفظى « المحكم » (٢) وألفاظى « الصحاح » وكلامى « الجامع » وسيف لسانى « المجرد » ناهيك من سلاح ، وفضلى « المجمل » لا يحتاج إلى بيان ؛ استأثر الله بتعليمى لآدم عليه السلام وآثره بى معرفة على الملائكة فكان خصيصى له على الملائكة الكرام .

فلما انقضى قيله ، وبانت للمستنير سبيله ، ثاب إليه علم التصريف مبتدرا ولنفسه ولسائر العلوم منتصرا ، فقال : رويدك أيها المساجل وعلى رسلك ياذا المناضل فقد ذل من ليس له ناصر ، وحط من ترفع على أبناء جنسه ولو عقدت عليه الخناصر ، وما يجدى البازى بغير جناح ، أو يغنى الساعى إلى الحرب بغير سلاح ، وأنى يطعن رمح بغير سنان ، أو يقطع سيف لم يؤيد بقائم ولم تقبض

---

(١) صبح الأعشى ١٤ : ٢٠٤ .
(٢) المحكم : اسم معجم وكذا الألفاظ بعده .

عليه بنان ، إنك وإن حويت فضلا ، وأعرقت أصلا ، وكنت للكلام نظاما ، وإلى بيان المقاصد إماما ، فأنت غير مستقل بنفسك ، ولا قائم برأسك ، بل أنا المتكفل بتأسيس مبانيك ، والملتزم بتحرير ألفاظك وتقرير معانيك ، بى تعرف أصول أبنية الكلمة فى جميع أحوالها ، وكيفية التصرف فى أسمائها وأفعالها الخ .

فقال علم الشعر : أراكم قد نسيتم فضلى الذى به فضلتم ، وصرمتم حبلى الذى من أجله وصلتم ، أنا حجة الأدب ، وديوان العرب ، على تردون ، وعنى تصدرون وإلى تنسبون ، وبى تشتهرون ، مع ما اشتملت عليه من المدح الذى كم رفع وضعا ، وجلب نفعا ، ووصل قطعا ، وجبر صدعا ، والهجو الذى حط قدرا وأخمد ذكرا . وجعل بين الرفيع والوضيع فى حطيطة القدر نسبا وصهرا ، إلى غير ذلك من أنواعى الشعرية التى شاع ذكرها ، وأضواعى العطرية التى فاح نشرها ، بل لايكاد علم من العلوم الأدبية يستغنى عن شواهدى ولا يخرج فى أصوله عن قوانينى وقواعدى ، حتى علم النثر الذى هو شقيقى فى النسب ، وعديلى فى لسان العرب ، لم يزل أهله يتطفلون على فى بيت يحلونه ، ويقفون من بديع محاسنى عند حد لا يتعدونه . . .

فقال علم التاريخ : اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم ، وقروا عينا فالى القصد الجليل وصلتم ، وعلى غاية الأمل — ولله الحمد — حصلتم ، فقد بلوت الأوائل والأواخر ، وخبرت حال المتقدم والمعاصر ، فلم أر فيمن مضى وغبر ، وشاع ذكره واشتهر ، من ذوى المراتب العلية ، والمناصب السنية ، من يساوى هذا السيد الجليل فضلا ، (يريد علم الأخلاق) أو يدانيه فى المعروف قولا وفعلا ، قد لبس شرفا لا تطمع الأيام فى خلعه ، ولا يتطلع الزمان إلى نزعه ، وانتهى إليه المجد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فانحاز إليه وعطف ، وحلت الرياسة بفنائه فاستغنت به عن السوى ، وأناخت السيادة بأفنائه فألقت عصاها واستقر بها النوى ، فقصرت عنه خطا من يجاريه ، وضاق عنه باع من يناويه ، واجتمعت الألسن على تقريضه (١) فمدح بكل لسان ، وتوافقت القلوب على حبه فكان له بكل قلب مكان :

ولم يخل من إحسانه لفظ مخبر ولم يخل من تقريظه بطن دفتر

---

(١) التقريض : المدح .

فهو الحرى بأن يكتب بأقلام الذهب جميل مناقبه ، وأن يرقم على صفحات الأيام حميد مطالبه ، فلا يذهب على مر الأيام ذكرها ، ولا يزول على توالى الدهور فخرها .

وله رسالة أخرى فى المفاخرة بين السيف والقلم (١) ، جاء منها : لما كان السيف والقلم قد تدانيا فى المجد وتقاربا ، وأخذا بطرفى الشرف وتجاذبا ، إذ كانا قطبين تدور عليهما دوائر الكمال ، وسعدين يجتمعان فى دائرة الاعتدال ، ونجمين يهديان إلى المعالى ، ومصباحين يستضاء بهما فى حنادس الليالى ، وقاعدتين تبنى الدول على أركانهما ، وشجرتين يجتنى العز من أغصانهما جر كل منهما ثوب الخيلاء فخراً فتشى وتبختر ، وأسبل رداء العجب فيها فما تخيل ولا تعثر ، واتسع له المجال فى الدعوى فجال ، وطاوعته يد المقال فقال وطال ، وتطرقت إليهما عقارب الشحناء ودبت ، وتوقدت بينهما نار المنافسة وشبت ، وأظهر كل منهما ما كان يخفيه فكتب وأملى ، وباح بما يكنه صدره والمؤمن لا يكون حبلى ، وبدأ القلم فتكلم ، ومضى فى الكلام بصدق وعزم فما توقف ولا تلعثم ، فقال :

باسم الله تعالى أستفتح ، وبحمده أتيمن وأستنجح ، إذ من شأنى الكتابة ، ومن فى الخطابة ، وكل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله تعالى فهو أجذم ، وكل كلام لا يفتتح بحمده فأساسه غير محكم ، ودواؤه غير معلم ، والعاقل من أتى الأمر من فصه (٢) وأخذ الحديث بنصه ، والحق أحق أن يتبع ، والباطل أجدر أن يترك فلا يصغى إليه ولا يستمع ، إنى لأول مخلوق بالنص الثابت والحجة القاطعة والمستحق لقصب السبق من غير منازعة ، وأقسم الله تعالى بى فى كتابه ، وشرفنى بالذكر فى كلامه لرسوله وخطابه ، فقال جل من قائل : (ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون) . وقال جلت قدرته : (اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) فكان لى من الفضل وافر القسمة ، وخصصت بكمال المعرفة ، فجمعت شوارد العلوم ، وكنت قيم الحكمة .

فقال السيف : باسم الله والله أكبر . . نصر من الله وفتح قريب ، لكل باغ مصرع ، والصائل بالعدوان مهلك لا ينجو منه ولا ينجع ، وفاتح باب الشر يغلق به ، وقادح زند الحرب يحرق بلهبه ، أقول بموجب استدلالك ، وأوجب الاعتراض عليك من مقالك .

---

(١) صبح الأعشى ١٤ : ٢٣٢ (٢) أي من أصله وحقيقته .

ونعم أقسم الله تعالى بالقلم ولست بذلك ، وكان أول مخلوق ولست المعنى بما هنالك ، إن ذلك المعنى يكل فهمك عن إدراكه ، ويضل نجمك أن يسرى فى أفلاكه ، وأنت وإن ذكرت فى التنزيل ، وتمسكت من الامتنان بك فى قوله تعالى (علم بالقلم) بشبهة التفضيل ، فقد حرم الله تعالى تعلم خطك على رسوله ، وحرمك من مس أنامله الشريفة ما يؤدى على قوته ويسر بحصوله ، لكنى قد نلت من هذه المرتبة أسنى المقاصد ، فشهدت معه من الوقائع مالم تشاهد ، وحلانى من كفه شرفا لا يزول حليه أبداً ، وقت بنصره فى كل معترك ، وسل حنيناً ، وسل بدراً وسل أحداً (١) ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم جنسى الذى أنا نوعه الأكبر ونبه على ما فيه من المنافع التى هى من نفعك أعم وأشهر ، وما اجتمع فيه عظيمى الشدة والبأس ، فقال تقدست عظمته : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . على أنك لو اعتبرت جنسى القصب والحديد ، وعرفت الكليل منهما والجليد ، لتحققت تسلط الحديد عليك قطا وبريا ، وتحكمه فيك أمراً ونهيا .

فقال القلم : فررت من الشريعة وعدلها ، وعولت على الطبيعة وجهلها ، فافتخرت بحيفك وعدوانك ، واعتمدت فى الفضل على تعديك وطغيانك ، فلت إلى الظلم الذى هو إليك أقرب ، وغلب عليك طبعك فى الجور والطبع أغلب ، فلا فتنة إلا وأنت أساسها ، ولا غارة إلا وأنت رأسها ، ولا شر إلا وأنت فاتح بابه ، ولا حرب إلا وأنت واصل أسبابه ، تؤكد مواقع الجفاء ، وتكدر أوقات الصفاء ، وتؤثر القساوة . وتوتر العداوة ، أما أنا فالحق مذهبي والصدق مركبي والعدل شيمتى ، وحلية الفضل زينتى ، إن حكمت أقسطت ، وإن استحفظت حفظت وما فرطت ، لا أفشى سرا يريد صاحبه كتمه ، ولا أكتم علما يبتغى متعلمه علمه ، مع عموم الحاجة إلى ، والافتقار إلى علمى ، والاكتساب بما لدى ، أدير فى القرطاس كاسات خمرى فأزرى بالمزامير وأهزأ بالمزاهر ، وأنفث فيه سحر بيانى فألعب بالألباب وأستجلب الخواطر ، وأنفذ جيوش سطورى على بعد فأهزم العساكر :

فلكم يفل الجيش وهو عرمرم والبيض ماسلت من الأغماد

---

(١) حنين ، وبدر ، وأحد : غزوات معروفة فى التاريخ الإسلامى .

فقال السيف : أطلت الغيبة ، وجئت بالخيبة ، وسكت ألفا ، ونطقت خلفا (١)

السيف أصدق أنباء من الكتب — في حده الحد بين الجد واللعب

إن تجادى الحلية للعواتق ، ومصاحبتي أمنة من البوائق ، ما تقلدني عاتق إلا بات عزيزاً . ولا توسدني ساعد إلا كنت له حرزاً حريزاً ، أمرى المطاع ، وقولى المستمع ، ورأيي المصوب وحكمى المتبع ، لم أزل للنصر مفتاحا ، وللظلام مصباحا ، وللعز قائدا ، وللعداة ذائدا ، فأنى لك بمساجلتي ، ومقاومتي في الفخر ومنافرتي ؟ مع عرى جسمك ونحافة بدنك وإسراع تلافك وقصر زمنك وبخس أثمانك على بعد وطنك . وما أنت عليه من جرى دمعك وضيق ذرعك . وتفرق جمعك . وقصر باعك . وقلة أتباعك .

فقال القلم : مهلا أيها المساجل ، وعلى رجلك أيها المغالب والمناضل ، لقد أفحشت مقالا ، وتمقت محالا ، فغادرتك سبل الإصابة ، وخرجت عن جادة الإنابة ، وسؤت سمعاً فأسأت إجابة ، إنى لمبارك الطلعة وسيمها . شريف النفس كريمها ، آخذ بالفضائل من جميع جهاتها ، مستوف للمدائح بسائر صفاتها ، فطائرى ميمون ، وقولى مأمون ، وعطائى غير ممنون ، أصل وتقطع ، وأعطى وتمنع وتفرق وأجمع وإن ازدراءك بى من الكبر المنهى عنه ، وغضبك عنى من العجب المستعاذ منه ومن حقر شيئا قتله ، ومن استهان بفاضل فضله ، وإنى وإن صغر جرمى لكبير الفعال ، وإن نحف بدنى فإنى لشديد البأس عند النزال ، وإن عرى جسمى فكم كسوت عاريا ، وإن جرى دمعى فكم أرويت ظاميا ، وإن ضاق ذرعى فإنى بسعة المجال مشهور ، وإن قصر باعى فكم اطلقت أسيرا وأنا فى سجن الدواة مأسور إذا امتطيت طرسى ، وتدرعت نقسى (٢) وتقلدت خمسى ، وجاشت على الأعداء نفسى :

رأيت جليلا شأنه وهو مرهف — ضنى (٣) وسميناً خطبه وهو ناحل

أنسيت إذ أنت فى المعدن تراب تداس بالأقدام ؟ وتنسفك الرياح وتزرى بك الأيام ؟ ثم صرت إلى القين تقعد لك السنادين (٤) بالمراصد ، وتدمغك

---

(١) الخلف : الردىء من القول وهذا مثل يضرب لمن كف زمانا طويلا ثم جاء بالردىء .

(٢) النقس بالكسر المداد . (٣) الضنى . المرض

(٤) السنادين : جمع سندان للحداد .

المقامع (١) وتسطو بك المبارد ، ثم لولا صقالك لاذهبك الجرب وأكلك الصدا مع قلة صبرك على المطر والندى .

فقال السيف : إنا لله ! لقد استأسدت الثعالب ، واستنسرت البغاث ، فعد العصفور نفسه من طير الواجب (٢) ، وجاء الغراب إلى البازى يهدده ، ورجع ابن آوى على الأسد يشرده ، فلو عرفت قدر نفسك ، ولزمت فى السكينة طريق أبناء جنسك ، ووقفت عندما حد لك ، وذكرت عجزك وكسلك ، لكان أجدر بك وأحمد لعاقبتك ، وأليق بأدبك .

إن الملوك لتعدنى لمهمانها ، وتستنجدنى فى ملماتها ، وتتعالى فى نسبى ، وتتغالى فى حسبى ، وتتنافس فى تنقيق وتتحاسد ، وتجعلنى عرضة لأيمانها فتتعاقد بالحلف علىّ وتتعاهد ، وتدخرنى فى خزائنها ادخار الأعلاق ، وتعدنى أنفس ذخائرها على الإطلاق ، فتكللنى بالجواهر وتحلينى العقود فأظهر فى أحسن المظاهر ، أبرز للشجعان خدى الأسيل فأنسيهم الخدود ذوات السوالف (٣) وأزهو بقدى فأسليهم هيف القدود مع لين المعاطف ، وأوهم الظمآن من قرب أن بأنهارى ماء يسيل ، وأخيل للمقرور من بعد أنى جذوة نار فيطلبنى على المدى الطويل ، ويخالنى متوقع الغيث برقاً لامعاً ، ويظننى الحائر فى الشرق نجماً طالعا ، فالشمس فى شعاعى فى خجل ، والليل من ضوئى فى وجل ، وما أسرعت فى طلب ثأر إلا قيل « فات ماذبح » و « سبق السيف العذل » . . . الخ .

ومن الرسائل الأدبية التى تضمنها « صبح الاعشى » هذه الرسالة : قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر من كتاب إلى صاحب اليمن عن السلطان الملك المنصور قلاوون مبشرا بفتح أحد الحصون :

فمن ذلك حصن الأكراد الذى تاه بعطفه على الممالك والحصون ، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون ، وغدا جاذباً بضبع (٤) الشام ، وآخذا بمخانق بلاد الإسلام ، وشللا فى يد البلاد ، وشجا فى صدر العباد ، تنقض من عشه صقور

(١) المقامع : جمع مقمعة وهى عمود أو خشبة يضرب بها .
(٢) الواجب عند أهل الرمى : طيور مخصوصة (شفاء الغليل) .
(٣) السوالف : جمع سالفة وهى مقدم العنق من لدن معلق القرط .
(٤) الضبع : العضد أو وسطها أو الإبط

الأعداء الكاسرة ، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة ، وتربض بأرباضه آساد تحمى تلك الآجام ، وتفوق من قسيه سهام تصمى مفوقات السهام ، تعطيه الملوك الجزية عن يدوهم صاغرون ، ويصطلى كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون(١) كم شكت منه حماة قلة الإنصاف ، وكم خافه معرة وما من معرة خاف ، مازالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون والصياصى (٢) ، وتبكى بدمع نهر من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بدمع العاصى (٣) ، حتى نبه الله ألحاظ سيوف الإسلام من جفونها ، ووفى النصرة ماوجب من ديونها ، وذلك بأنا قصدنا فسيح ربعه ، ونزلنا ونازلنا محى صقعه ، وختمنا بنصالنا على قلبه وسمعه ، وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهى كالأنامل ، وتكاد بروجه ترى كالمطايا المقطرة (٤) وهى منها بمنزلة الزوامل (٥) ما خيمنا به حتى استبحنا محى تلك المدائن المكنى عنها بالأرباض ؛ وأسحنا بساحتها بحرا من الحديد ما اندفع حتى فاض ، وأخذنا الثقوب فى أسوار لا تنقض ولا ينقض بنيانها المرصوص ، ولا تقرأ المعاول ما لخواتم أبراجها من نقوش الفصوص ، ونصبنا عليها عدة مجانيق حملت فى شواهق الجبال ، على رؤوس الأبطال ، فتغيظت السمهرية أن اللدن تقوم وأن مامنها إلا له من الأيدى والرءوس مقام معلوم ، وصار يرمى بها كل كمى مختلس وأروع منتهس (٦) وكل ليث غابة يحميها ويحميه ، فتشكر الأسود حتى غاباتها تفترس إلى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام مجانيقها تميل من العجب فصارت تميل من العجب وكانت تطلب فصارت تهرب من الطلب .

---

(١) مصابرون مغالبون فى الصبر على الشدائد .

(٢) الصياصى : الحصون الرفيعة (٣) العاصى : نهر عليه مدينة حماة .

(٤) المقطرة : التى يقرب بعضها من بعض .

(٥) الزوامل : جمع زاملة وهى الدابة التى يحمل عليها كالإبل وغيرها .

(٦) منتهس : النهس النهش

مسالك الأبصار :

مؤلفه شهاب الدين بن فضل الله العمري (٧٠٠ - ٧٤٩ هـ) ، وهو الشاعر الكاتب المؤلف الأديب القاضي أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محي الدين يحي ابن فضل الله العمري سليل عمر بن الخطاب . وشهاب الدين من خيرة العلماء والأدباء وكان يعيش في العصر المملوكي ومؤلفه كتاب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » في بضعة وعشرين مجلداً ولا يعلم قبله كتاب وسع من علوم التاريخ ووصف الأرض والفلك والأدب ما وسعه ، وله كتاب التعريف بالمصطلح الشريف في فن إنشاء الدواوين وكتاب « فواضل السمر في فضائل آل عمر » .

وقد ولد العمري بمدينة دمشق سنة ٧٠٠ ، وتفقه وتأدب على أبيه وغيره من أئمة وقته ، فخرج واحد زمانه علماً وأدباً وترسلا وتصنيفاً وشعراً ، ولم يكن في عصره وعصر القاضي الفاضل من يدانيه في شيء من ذلك على كثرة النابغين فيهما ، وكان أعلم أهل القطرين بتاريخ الملوك وطبقات العلماء والأدباء ، وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك النائية : كالهند والصين والترك وغيرها ، فوق الفقه الذي نال فيه مرتبة الإفتاء ، وكان أبوه وعمه يتناوبان كتابة السر في مصر والشام لسلاطين آل قلاوون ونوابهم ، وخلفهما في ذلك شهاب الدين وأخوه وأولادهما في مناصب رياسة دواوين الإنشاء وكتابة السر وغيرهما لآل برقوق . وتوفي ابن فضل الله سنة ٧٤٩ .

ومن فصول رسائله فصل كتبه من رسالة على لسان سلطانه إلى نائب الشام مع طيور صيد جوارح أرسلها إليه : « صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي بسلام جميل الافتتاح ، وثناء يطير إليه ، وكيف لا تطير قادمة بجناح ، ونعلمه أن مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما بقي من رسمه ، وجرت عادة صدقاتنا الشريفة أن تحسب في قسمه ، وقد جهزنا له الآن منها ثلاثة طيور لا يبعد عليها مطار ، ولا يوقد للقرى في غير حماليقها جذوة نار ، ولا تؤم طيراً إلا وترش الأرض بدمه فلا يلحق لها بغبار . وهي طائركم لها من فتك أخذ الطير من مأمنه ، وسلب ما تحلى به من رياش الريش ثم تزيا بأحسنه » .

ومن كتاب له عن السلطان قلاوون إلى صاحب اليمن يبشره بفتح « صافيتا » :

« أعز الله تعالى نصرة المقام العالى المولوى السلطان الملكى المظفرى الشمسى ، وأشركه فى كل بشرى تشد الرحال لاستماعها ، وتحل الحبا لاستطلاعها ، وتتهافت التواريخ والسير على استرقاعها ، وتتنافس الأقلام والسيوف على الإلمام بأجناسها وأنواعها ، ولا خلا موقف جهاد من اسمه ، ولا مصرف أجر من قسمه ، ولا غرض هناء من سهمه ، ولا أفق ابتهاج من بزوغ شمسه وطلوع نجمه ، سطر المملوك هذه البشرى والسيف والقلم يستمدان ، هذا من دم وهذا من نقس ، ويمضيان ، هذا فى رأس وهذا فى طرس ، ويتجاوبان ، هذا بالصليل وهذا بالصرير ، ويتناوبان ، هذا يستميل وهذا يستمير ، وكل منهما ينافس الآخر على المشافهة بخبر هذا الفتح ، الذى ماسمت إليه همم الملوك الأوائل ، ولا وسمت به سيرهم التى بدت أجيادها من حلاه عواطل » .

وقد أظهر العمرى فى هذه القطعة براعة فى تعدد السجعات ، وشيئا من القدرة على الموازنة بين أعمال السيف وأعمال القلم ، ولكنها بعد كل ذلك لم تكن إلا معرضا لألفاظ متراصة ، وسجعات متواترة تبعث على الملل .

لسان العرب :

وهو معجم لغوى ضخم فى عشرين مجلدا ، ألفه الإمام جمال الدين بن مكرم الإفريقى ، وقد ولد سنة ٦٣٠ هـ ، واشتغل باللغة وعلومها وتاريخها ، وخدم بديوان الإنشاء بمصر ، وألف مئات من المجلدات ، أشهرها « لسان العرب » وهو معجم واسع ، وموسوعة جامعة فى اللغة والتفسير والحديث والأدب ، ويعاد طبعه اليـــوم فى لبنان ، وتعزم الإدارة الثقافية بوزارة التربية والتعليم على طبعه ، وكان ابن مكرم مشغوفا باختصار الكتب ، فاختصر مفردات ابن البيطار ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للسمعانى . وكان إلى نواحيه العلمية شاعرا مقلا . فمن ذلك قوله :

بالله إن جزت بوادى الأراك   وقبلت أغصانه الخضر فاك
ابعث إلى المملوك من بعضه   فإننى والله مالى ســـواك

وقد توفى ابن منظور عام ٧١١ هـ وكتابه يجمع بين تهذيب الأزهرى (١)

---

(١) الأزهرى هو أبو منصور بن الأزهر ، كان فقيها ، وغلبت عليه اللغة . وقع فى أسر قوم من العرب فاستفاد منهم ماجمعه فى مصنف ، ومنه نسخة كاملة فى

ومحكم ابن سيده(١) والصحاح ، وجمهرة(٢) ابن دريد ، والنهاية(٣) لابن الأثير ، وهو يحتوى على ثمانين ألف مادة ، وقد رتبه صاحبه على أواخر الكلمات كالصحاح (٤) وهو كبير الجسم ، طبع بمصر فى عشرين مجلداً .

وقد شرح ماورد بمن الشواهد من آيات القرآن ، وحديث النبى ، وأشعار المتقدمين ، وبعض مأثور النثر عن الذين يحتج بقولهم . ولتوسعه فى ذلك الشرح ، وإكثاره من الاستشهاد ، وتعريجه على مسائل فى النحو والصرف ، صار الكتاب روضة أدب ، إلى جانب ضبطه للغة العرب ، وقد قيل فيه :

منهل عــذب نمير سائغ　　يورد الناهل أهنا مشرب

مكاتب أياصوفيا ونور عثمانية وكوبرلى فى الأستانة ، وفى الأحمدية فى حلب ، ومنه جزءان كبيران فى دار الكتب المصرية ينتهيان بمادة ذرا . توفى سنة ٣٧٠ هـ.

(١) كتاب المحكم لابن سيده من أشهر المعاجم اللغوية وهو المسمى المحكم والمحيط الأعظم ، وهو مرتب على ترتيب كتاب العين ، ومنه نسخة تامة بالمتحف البريطانى ، وبدار الكتب المصرية أجزاء منه منها ماهو مكرر .

(٢) جمهرة ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ : معجم مرتب ترتيب العين ، ونظامه أنه يجعل المثلث وحده ، ثم الرباعى . ثم الخماسى ، وهكذا ويرتب كل طائفة على ترتيب الخليل ؛ ومنه نسخة ناقصة بدار الكتب المصرية .

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لأبى السعادات مجد الدين المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وهو مطبوع فى أربع مجلدات ومرتب ترتيب أساس البلاغة للزمخشرى فيبدأ بالهمزة مع الباء ثم مع التاء وهكذا ، والكتاب موضوع خدمة لحديث رسول الله واستشهاده به وبكلام الصحابة .

(٤) الصحاح للجوهرى المتوفى سنــة ٣٩٨ هـ ، ويمتاز باستيعاب الألفاظ المستعملة ، فى ديار مصر ، وفيه أخطاء ينسبونها إلى أنه وسوس فى آخر حياته ، ولم يكن بيض كتابه فبيضه تلميذه أبو إسحق الوراق ، وهو مرتب على أواخر الكلمات ، ومطبوع فى مصر ، وغيرها ، وله مختصرات منها مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر الرازى من أهل القرن الثامن ؛ وفيه زيادات من التهذيب ، وتكميل لما أهمله الجوهرى .

وقد أبان مؤلفه عن وصفه ، فقال : « وإنى لم أقصد سوى حفظ هـذه اللغة العربية وضبط فضلها ، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز ، والسنة النبوية ، ولأن العالم بغوامضها يعلم ماتوافق فيه النية اللسان ، ويخالف فيه اللسان النية ، وذلك لما رأيته قد غلب فى هذا الأوان ، من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد أصبح اللحن فى الكلام يعد لحنا مردوداً ، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا ، وتنافس الناس فى تصانيف الترجمانات فى اللغة الأعجمية ، وتفاصحوا فى غير العربية ، فجمعت هذا الكتاب فى زمن أهله بغير لغته يفخرون ، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون » .

مؤلفات السيوطى :

ومن علماء هذا العصر الإمام السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ ، وقد أربت مؤلفاته على الخمسمائة ، وأكثر هذه رسائل صغيرة الحجم محدودة الموضوعات ، وخير مؤلفاته « الإتقان فى علوم القرءان » و « المزهر » فى اللغة ، و « الأشباه والنظائر » فى النحو ، و « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » فى التاريخ . وقد كتب ترجمة لنفسه فى هذا الكتاب تدل على كثير من الاعتداد بالنفس والصراحة ، جاء فيها :

« ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هـذه العلوم سوى الفقه ، والنقول التى اطلعت عليها فيها ، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى ، فضلا عمن هو دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيخى فيه أوسع نظراً وأطول باعا .

ودون هذه السبعة فى المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الإنشاء والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب ،

مقدمـــة ابن خلدون .

• وهى لون جديد من التأليف وضع به ابن خلدون أساس عـــلم الاجتماع فى الثقافة العربية ، ولقد دعا ابن خلدون إلى الكتابة المرسلة الفطرية الخالية من السجع وتكلف البديع فى عصر بلغ فيه غايته ، وإلى ذلك عمد فى كثير من فصول مقدمة تاريخه ، فجاء بعض كتابته فيها بمنزلة من البلاغة لا تقل عن كتابة فحول القرن

الثالث ؛ ولم يكن الانتفاع بالمقدمة وكتابته فى وقت أظهر مما كان فى أوائل العصر الحاضر ، إذ كانت هى الأسلوب الأمثل لكتاب الصحف والمجلات فى بدء نهضتنا الأخيرة ، وكان ابن خلدون إماماً حكيماً فى التاريخ أكثر مما كان إماماً فى الكتابة ،فانه يعتبر من أكبر واضعى علوم العمران والاجتماع بما خطه فى مقدمته . ولم تعد أحكامه فى سياسة الممالك الاستبدادية التى ذكرها فى مقدمته مطردة فى عصرنا هذا ، إذ أصبحت طريقة الحكم بممالك عصرنا دستورية ، إلى أن معدات الحروب وظواهر المدنية الحاضرة تختلف كثيراً عن حالتها السابقة ، ويؤخذ على ابن خلدون فى مقدمته إنحاؤه على العرب وقسوته فى الحكم عليهم فى كثير من سياسة الملك ، ويمتاز تاريخه بأنه التاريخ الوحيد الذى فصل الكلام على دول المغرب من البربر وغيرهم ، وكان ابن خلدون شاعراً ، طويل النفس ، وشعره بالإضافة إلى شعر عصره غاية فى الجودة وإن وصفه هو بأنه متوسط بين الجودة والقصور تواضعاً منه .

وابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ) العلم الفذ فى تاريخنا الفكرى هو حكيم المؤرخين ، وعلم المحققين ، الفقيه القاضى الكاتب الشاعر المصنف عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون ، وكان بيت خلدون هذا من أشرف بيوتات الشرف والرياســة وقيادة الجند بأشبيلية من قديم الزمان،ولم ينقطع منهم إلى خدمة العلم والأدب غير المترجم وأبيه ،وكان أهله قد انتقلوا إلى تونس عند تغلب الإسبان على أشبيلية . ويتصل نسبهم بوائل بن حجر من أقيال اليمن من حضرموت ، ولد مؤرخنا الكبير ابن خلدون بتونس سنة ٧٣٢ هجرية ، لحفظ القرآن الكريم وقرأه بالسبع وتلقى العلم والأدب من أبيه ومن كبار العلماء ، وقرأ العلوم العقلية والفلسفية على بعض حكماء المغرب ، ولم يزل مكبا على تحصيل العلم حتى دهم إفريقية طاعون جارف مات فيه أبواه وأكثر ذوى قرابته وشيوخه ، فاحترف بصناعة الكتابة وهو شاب لم يطر شاربه ، فكتب لبعض ملوك الدولة الحفصية بتونس ودولة بنى مرين بفاس ، ثم وصــــل بعد ذلك إلى ملوك بنى الأحمر بالأندلس فحظى عندهم حتى حســده على ذلك صديقه لسان الدين بن الخطيب فأقلع عنها ، وذهب إلى صاحب بجاية بالمغرب الأوسط فوزر له ، وبقى يتردد بين المغرب الأوسط والأقصى وأفريقية والأندلس حتى حسن فى عينه التخلى عن

السياسة والانقطاع إلى العلم فنزل على بعض قبائل العرب على حدود الصحراء أربعة أعوام ألف فيها تاريخه ومقدمته التي لم ينسج أحد من المتقدمين ولا المتأخرين على منوالها ، ثم عزم على الحج فدخل مصر سنة ٧٨٤ هـ زمن سلطانها برقوق (١) . ثم استقدم أهله وولده من المغرب فغرقت بهم السفينة ، فأقام بمصر حزيناً ، وجلس للتدريس بالجامع الأزهر وتولى قضاء المالكية سنة ٧٨٧ هـ وأظهر العدل في أحكامه ، واستقال من القضاء ثم عاد اليه ، وخرج مع كثير من علماء مصر في جيش السلطان فرج (٢) بن برقوق لمدافعة تيمورلنك (٣) عن الشام ، فوقع في أسر تيمورلنك ، ولما أطلق من الأسر عاد يشتغل بالتدريس وقضاء المالكية حتى مات سنه ٨٠٨ هـ .

ومن شعر ابن خلدون :

أبى الطيف أن يعتاد إلا توهما	فمن لى بان ألقى الخيال المسلما
وإنى ليدعونى السلو تعللا	وتنهانى الأشجان أن أتقدما
وذو الشوق يعتاد الربوع دوارساً	ويعرف آثار الديار توهما

ومن فصول الكتاب فصل عن أن الإنسان مدنى بالطبع ، قال عبد الرحمن ابن خلدون في بيان ذلك : إن الاجتماع الإنسانى ضرورى ، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : « الإنسان مدنى بالطبع . وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ، وهداه إلى التماسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله ، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه ـ وهو قوت يوم من

---

(١) هو الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن انص الجركسى أول ملوك الجراكسة ، وسمى برقوق لجحوظ عينيه ، حكم مصر والشام ثم خلع ، ثم حكم ثانية وبقى سلطانا حتى توفى سنة ٨٠١ .

(٢) هو الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق ، حكم ثم خلع ثم حكم ثم قتل سنة ٨١٥ .

(٣) هو الطاغية الجبار تيمورلنك من سلالة جنكيزخان من جهة النساء ، ملك أواسط آسيا وأعلى الهند وفارس وكاد يقضى على الدولة العثمانية فى بدء نشأتها مع إسلامه وإلمامه بكثير من العلوم توفى سنة ٨٠٧ ودفن بسمرقند .

الحنطة مثلا ـ فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ . وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات ، لا تتم الا بصناعات متعددة . وهب أنه يأكله حبا من غير علاج ، فهو أيضاً يحتاج فى تحصيله حبا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه ، من الزراعة والحصاد والدراس. ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة ، وصناعات كثيرة ، أكثر من الأول . ويستحيل أن تفى بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد ، فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ، ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف . وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً فى الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه . ولما كان العدوان طبيعيا فى الحيوان ، جعل الله لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعته ما يصل اليه من عادية غيره ، وجعل للإنسان ـ عوضا من ذلك كله ـ الفكر واليد ، فاليد مهيأة للصناعات بخدمة الفكر ، والصناعات تحصل له الآلات التى تنوب عن الجوارح المعدة فى سائر الحيوانات للدفاع ، مثل الرماح التى تنوب عن القرون الناطحة ، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة . فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة ، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ، ولا تفى قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة لها ، فلا بد فى ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه ، وما لم يكن هذا التعاون ، لا يحصل له قوت ولا غذاء ، ولا تتم حياته .

وقد كان نظر ابن خلدون إلى التاريخ نظرا سابقا لزمنه . لم ينظره أحد من المؤرخين قبله، يقول فى مقدمته . « إن فن التاريخ يحتاج إلى مآخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبها إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العُمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيه من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الطريق ، وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا ، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط » .

ويقول فى موضع آخر : « إن صاحب هذا الفن يحتاج إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار ، فى السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال ، والإحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، أو بون ما بينهما من الخلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعى كونها . وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث ، واقفا على أصول كل خبر ، وحينئذ يعرض خبر المنقول ، على ما عنده من القواعد والأصول ، فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا وإلا زيفه واستغنى عنه الخ .

وبهذا وأمثاله وضع ابن خلدون أصول علم التاريخ ونظر إليه ، لا كما كان ينظر من قبله — مجرد سرد حوادث تعتمد على الرواية ، بل هو — فى نظره — مبنى على أصول ونظر ، يعتمد على علم طبائع الأشياء وعلم الاجتماع وعلم النفس وقد حاول لأول مرة فى التاريخ الإسلامى أن يضع مقاييس للأحداث يمتحن بها صحيحها من زائفها .

ألف ابن خلدون كتابه فى التاريخ وسماه « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » .

وقد طبع فى سبعة مجلدات كبيرة . وجزؤه الأول هو المعروف بمقدمة ابن خلدون .

وقد شرح فى المقدمة أن سلوك الإنسان يجرى على قوانين ثابتة لا تقبل التغيير وأنها تتطور من « ا » إلى « ب » ومن « ب » إلى « ت » فى نظام ثابت وطبيعة محتومة ، وأن المقدمات المتماثلة تنتج نتائج متماثلة ، وبنى على هذا الأساس كل فلسفته التاريخية ، وطبقه فى مهارة ودقة على العالم الإسلامى ، ولم يكتف فى تطبيق التطور والنشوء والارتقاء ونحو ذلك على الأمور السياسية والشئون الاجتماعية ، بل طبقه فى دقة تستدعى العجب على آداب الأمم الإسلامية وعلومها وبحث بحثا عميقا فى أثر الجو والبيئة والغذاء فى تكوين طبيعة الناس وعقولهم وأخلاقهم . وبحث فى الجمعية البشرية فى شكلها ونموها وفنائها . وبحث فى العلوم الإسلامية وشأنها وارتقائها . إلى غير ذلك من آراء مبتكرة وآراء أخذها من غيره

بجملها وحسنها وأبدع فى تطبيقها على دول الإسلام وعلوم الإسلام . فجاءت مقدمته على هذا الوضع وحيدة بين المسلمين ، بل ربما كانت فى عصره وحيدة فى غير العالم الإسلامى أيضا . فإذا نحن وصلنا إلى تاريخه غير المقدمة لانجده قد عنى فيه كثيرا بتطبيق نظرياته التى وضعها فى مقدمته . فهو فى أكثر الأحوال يكتفى بسرد الحوادث كما فعل من قبله ، ولا ينظر النظرة العامة الشاملة ، ولا يحلل التحليل الدقيق كما كان شأنه فى المقدمة .

حياة الحيوان :

مؤلفه كمال الدين الدميرى المتوفى عام ٨٠٨ هـ ، ينهج فيه مؤلفه منهج الجاحظ فى كتابه الحيوان ، ويستطرد إلى كثير من أخبار الأدب وتراجم الشعراء وذكر فصول أدبية رائقة ، مما جعل للكتاب أهمية علمية وأدبية كبيرة ، وهو مرتب على حروف المعجم ، للبحث عن الحيوان وطبائعه .

المستطرف :

المستطرف فى كل فن مستظرف جزءان كبيرا ، يتضمن شتى الفوائد العلمية والأدبية والدينية ، ومؤلفه هو محمد بن أحمد الأبشيهى المتوفى نحو عام ٨٤٧ هـ

ألف ليلة وليلة :

ألفه قاص مصرى ، ولهجته تغلب عليها العامية المصرية وأكثر مواضعه مصرية ، ويخطئ فى تحديد الأماكن حين يذكر العراق وسواها ، وفى حكاية النبات مع الحمال والصعاليك الثلاثة يرد اسم « الشاطبية » ، وهى للشاطبى المتوفى سنة ٥٩٠ هـ وفى حكاية مزين بغداد يرد ذكر سنة ٧٦٣ وفى بعض النسخ ٦٥٣ ، ويرد ذكر « مفردات » ابن البيطار » فيه (١) مما يدل على أن الحكاية كتبت بعد منتصف القرن السابع . ويرد فيه ذكر قبر الشيخ عبد القادر الجيلى (٢) مما يدل على أن القصة كتبت بعد سنة ٥٦١ هـ . ويرد فيه أيضا ذكر سنة « إحدى وستين وخمسمائة (٣)» والتاريخ الذى استقر فيه الكتاب على صورته الحالية هو ما بين عامى ٩٢٣ و ٩٣٣ هـ . ووردت فى الكتاب ألفاظ عثمانية وقد استولى العثمانيون على مصر عام ٩٢٣ هـ مثل الأفندى (٤) وغليون التبغ (٥) والمدفع (٦)

---

(١) ٢٧٢١ (٢) ٢ : ١٣٥ و ١٣٨ (٣) ٢ : ٤٠٨ (٤) ٢ : ١٤٢
(٥) ٤ : ٤٠٠ (٦) ١ : ٨٩

وفى الكتاب كثير من الأخطاء التاريخية وسواها ، فنى الجزء الثانى ص ٣٨٠ (١) : حكاية جرت بين الرشيد وابن القارئ وما هى إلا قصة ابن المغازلى مع المعتضد بالله كما رواها المسعودى ، وفى ص ٣٣٨ : حكاية جميل بن معمر (م ٨٧ هـ) مع الرشيد ! ! وفى ج ٤ ص ٣٦ وص ١٢٥ : (زبيـــدة بنت القاسم زوجة الرشيد السادس من بنى العباس) ، وهى بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور ، والرشيد هو الخامس لا السادس . ومهما كان فان هذا الكتاب قد ظهر فى هذا العصر فى صورة نهائية كاملة باسم كتاب ألف ليلة وليلة ، وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية ، وفتن كثيرا من القراء ، واجتذب بقوة تأثيره وروعة خياله الأذن الأوربية ، وربما كان هو الذى أوحى إلى بعض كتاب الأقاصيص فى الغرب المشهورين بالإغراق فى الخيال بكثير من الصور الخيالية الرائعة ، وليس بعجيب أن يغرم أهل الغرب بهذا الكتاب لأنه يجرى فى أقاصيصه على سنن شائق جذاب ، وأكثر ما تظهر فيه المهارة فى حبك القصة ، وخلق المواقف المعقدة التى تضيع وجوه الحيلة فى حلها ثم العمل على الخروج من هذه المآزق فى لطف وحسن تصرف فنى ، هذا إلى إبداع فى الوصف وإبعاد فى الخيال . وهو وإن وضع فى أول أمره للتسلية والترويح عن النفس لا يخلو من حكمة تساق إليك ، وموعظة تصل إلى قرار نفسك ، ودراسة عامة لأحوال الحياة ، والفرق بين حكايات الف ليلة وليلة والروايات الأوربية أن الكاتب فى الأولى كان كثير المبالغة والإغراق ، وأنه اهتم بالأحوال الظاهرة وقصر وصفه على المحسوس المشاهد ، ولم يعتمد إلى تحليل النفوس ، ولم يتغلغل إلى أسرار الطبائع ، ولم يعن عناية مقصودة بدراسة الأخلاق ، بخلاف الكاتب الأوربى فان الدراسة النفسية أساس قصته وعمادها فى أغلب الأحوال ، وهو يسير فى قصته على سنن واضح من الطبيعة من غير إسراف . ومصدر هذا الكتاب لا يزال محاطا بالشكوك أو الأقرب إلى الحق أنه من أصل فارسى قديم ، وأن منشأه كتاب هزار افسانه (ألف حكاية) وبه كثير من حكايات هذا الكتاب ، وقد أضيف إلى الأصل الفارسى نوادر كانت منثورة فى كتب الأدب وحكايات جديدة كانت توضع على مر الأيام ، فالكتاب إذا لم يوضع فى عصر واحد ، ولم يصنفه مؤلف واحد وأول من ترجم هذا الكتاب لأوربا جالاندا (١٧٠٤ — ١٧١٧) .

---

(١) طبعة مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٥ صححها المرحوم الشيخ محمد بن عبد الرحمن الشهير بقطة العدوى م ١٢٨١ هـ عن نسخة بولاق .

مؤلفات جامعة أخرى :

ومن هذه المؤلفات مغنى اللبيب لابن هشام جمال الدين عبـــد الله المصرى (٧٠٨ — ٧٦١ هـ) صاحب : القطر والشذور(١) .

وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة وهو جزءان كبيران ، ألفه جلال الدين السيوطى (٨٤٩ — ٩١١ هـ) ، صاحب المزهر وبغية الوعاة والإتقان فى علوم القرآن والأشباه والنظائر وسواها من المؤلفات الكثيرة التى يكون كل مؤلف منها دائرة معارف واسعة ، ومؤلفه هو جلال الدين السيوطى من أعلام أخريات هذا العصر ، الذين امتازوا بكثرة مناحيهم العلمية والأدبية ، وبكثرة ما أبرزه من المؤلفات . ولد بأسيوط سنة ٨٤٩ هـ ، وينتهى نسبه من جهة أبيه إلى أصل فارسى ، ويمتزج أصله بالدم التركى من قبل أمه . مات والده وسنه خمس سنين وسبعة أشهر ، وكان قد وصل فى حفظ القرآن إلى سورة التحريم ، وأتم حفظه قبل أن يبلغ الثامنة ، ثم أخذ فى تلقى العـــلم على خير أعلامه بالقاهرة ، وانكب على دراسة العلوم بأنواعها ، حتى نبغ فيها ، وأصبح مدرسا تهرع إليه الطلاب ، ثم عزل من التدريس قبل موته ومات عن أكثر من ثلاثمائة كتاب .

والمختصر فى الفقه المالكى لخليل بن إسحاق بن موسى الجندى المصرى المتوفى عام ٧٢٧ هـ ، ومنهاج الطالبين فى الفقه المالكى لأبى زكريا محي الدين النووى الدمشقى (٦٣١ — ٦٧٦ هـ) .

وحلبة الكميت لشمس الدين النواجى المصرى المتوفى عام ٨٥٩ هـ ، و « غرر الخصائص الواضحة وغرر النقائض الفاضحة » لجمال الدين الوطواط الشاعر المصرى المتوفى عام ٧١٨ هـ ، و « إرشـــاد السارى إلى شرح البخارى » المشهور بشرح القسطلانى فى عشرة مجلدات تأليف أحمد بن محمد بن ابى بكر بن عبد الملك القسطلانى القاهرى الشافعى ، ويلقب بشهاب الدين ، ويكنى بأبى العباس ، من أشهر المحدثين والمؤرخين ، وقد ولد فى الثانى والعشرين من ذى القعدة سنة ٨٥١ هـ بالقاهرة ، وتعلم بالأزهر ، وحفظ كتبا عدة منها الشاطبية ، وتلقى العلم على جماعة من كبار

---

(١) هو جمال بن الدين عبد الله بن هشام المصرى من كبار علماء العربية ، قال فيه ابن خلدون فى مقدمته : « مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه » .

العلماء ، منهم الشيخ خالد الأزهري والحافظ السخاوى وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، فبرع فى العلوم الدينية ولا سيما الحديث والسيرة النبوية . ومن مؤلفاته فى التاريخ « المواهب اللدنية فى المنح المحمدية » وهو كتاب جليل القدر ليس له نظير فى بابه ، رتبه على عشرة مقاصد فى نسب النبى وولادته ورضاعه ومغازيه ، وفيه فصول فى أسمائه وأولاده وأزواجه وأعمامه وخدمه ومعجزاته وخصائصه وقد طبع فى ثمانية أجزاء وترجم إلى اللغة التركية ، وله شرح على الشاطبية والبردة وصنف « مسالك الحنفا فى الصلاة على المصطفى » وكتاب « لطائف الإشارات فى القراءات » الأربع عشرة . وتوفى عام ٩٢٣ هـ .

وألفية ابن مالك فى النحو لأبى عبد الله جمال الدين محمد ، كان إمام النحاة وحافظ اللغة فى عصره ، ولد سنة ٦٠٠ هـ ، ونشأ بجيان ، وهى بلدة بالأندلس ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم رحل فى طلب العلم إلى دمشق ، فأخذ عن جماعة من علمائها ، وتصدر لتعليم العربية فى حلب ، وبلغ الغاية فى علوم العربية ، وألم بأشعار العرب وكان إماما فى القراءات ، واسع الإطلاع فى الحديث ، وأقام بدمشق مدة يصنف ويدرس بالجامع والمدرسة العادلية ، وقد حفظ التاريخ كتابا كتبه إلى الملك الظاهر بيبرس يطلب فيه بسطة كف يستعين بها على مطالب الحياة وهو : « الفقير إلى رحمة ربه محمد بن مالك يقبل الأرض ، وينهى إلى السلطان أيد الله جنوده ، وأبد سعوده ، أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة وفنون الأدب ، وأمله أن يعينه تفوذ من سيد السلاطين ، ومبيد الشياطين ، خلد الله ملكه ، وجعل المشارق والمغارب ملكه ، على ما هو بصدده من إفادة المستفيدين ، وهداية المسترشدين ، بصدقة تكفيه هم عياله ، وتعينه على التسبب فى صلاح حاله ، فقد كان فى الدولة الناصرية عناية يتيسر بها الكفاية ، مع أن هذه الدولة من الدولة الظاهرية كجدول البحر المحيط ، والخلاصة من الوسيط والبسيط ، وقد نفع الله بهذه الدولة الظاهرية خصوصا وعموما ، وكشف بها عن الناس أجمعين غموما ، ولم بها من شعث الدين ما لم يكن ملموما ، فمن العجائب كون المملوك عن خيراتها غائبا محروما ، مع أنه من ألزم المخلصين للدعاء بدوامها ، وأقوم الموالين بمراعاة زمامها ، لا برحت أنوارها زاهرة ، وسيوف أنصارها قاهرة ظاهرة ، وأياديها مبذولة موفورة ، وأعاديها مخذولة مقهورة ، بمحمد وآله » .

وآثار الأول فى تدبير الدول ، الذى ألفه حسن بن عبد الله العباسى للسلطان

بيبرس المنصورى صاحب مصر سنة ٧٠٨ ه ، وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، لموفق الدين أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة المتوفى عام ٦٦٨ ه ، وقد ولد بدمشق وانتظم فى خدمة الدولة الأيوبية ودولة المماليك ، وكتاب « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » الذى ألفه مؤرخ الديار المصرية إبراهيم بن محمد الشهير بابن دقماق المتوفى عام ٨٠٩ ه ، وكتاب حسن التوسل فى صناعة الترسل لشهاب الدين محمد ابن سليمان بن فهد صاحب ديوان الإنشاء عند السلطان بيبرس المتوفى عام ٧٢٥ ه .

مصر حامية الثقافة الإسلامية

وعلى الجملة فان مصر فى هذا العصر كانت بحق حامية الثقافة الإسلامية ، وملاذ اللغة العربية والأدب بفنونه وألوانه بعد أن خرب التتار بلاد المسلمين ودور العلم والمكتبات والجامعات فيها .

ولقد تطلع العلماء شرقا وغربا فلم يجدوا غير مصر خصوصا بعد أن أصبحت موطن الخلافة ومقر الإسلام ، فرحلوا إليها من جميع الأقطار . فكنت ترى القاهرة ومراكز العلم الأخرى بالديار المصرية تموج بهم موجا ، وكنت ترى بينهم العراقى والشامى والفارسى والأندلسى والإفريقى والحجازى ، وقد وطأ لهم السلاطين أكنافهم ، وأنزلوهم منزلا مباركا وأغدقوا عليهم الصلات والإحسان ، وحاطوهم برعايتهم وعطفهم ، فوجدوا حرما آمنا ، ومكانا ينبت العز ، فأخذوا يؤلفون وينظمون وينثرون .

وأصبحت القاهرة مركز العلم والثقافة لبلاد الإسلام جميعا ، وكانت فى ذلك الحين كما وصفها القلقشندى فى شىء من الزهو فقال : « ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتها وتتجدد معالمها ، خصوصا بعد خراب الفسطاط وانتقال أهله إليها ، حتى صارت على ماهى عليه فى زماننا من القصور العالية ، والدور الضخمة ، والأسواق الممتدة ، والمناظر النزهة ، والجوامع البهجة ، والمدارس الرائقة ، والخوانق الفاخرة ، مما لم يسمع بمثله فى قطر من الأقطار ، ولا عهد نظيره فى مصر من الأمصار » .

وقد نهضت نهضة علمية مباركة فى هذه الأيام ، وأهم أسباب هذه النهضة غيرة العلماء وحرصهم على إعادة مجد الإسلام ، الذى بعثرته أيدى التتار ، ثم معاضدة الملوك والأمراء ورجال الدولة العلم وأهله . وكان سلاطين مصر لهم ميل إلى العلم والعلماء ، وكان فى أغلبهم تمسك بالدين وتعظيم لأهله ، ألم يروا أنهم أصبحوا

حماة الخلافة الإسلامية وأن دولتهم صارت ، ملجأ الإسلام ومباءة أهله ؟ كما أنهم كذلك رأوا أن الدين والعمل به وتعظيم أهله مما يقربهم إلى قلوب الرعية ، ويغفر لهم ما تصادفه منهم أحيانا من أمواج الطغيان . فقد ذكر المؤرخون لكثير منهم أخبارا تدل على إجلالهم علماء الدين وخضوعهم لأحكامهم . قال السيوطى فى حسن المحاضرة : « وكان الظاهر بيبرس منقمعا تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، لا يستطيع أن يخرج عن أمره حتى إنه قال لما مات الشيخ : « ما استقر ملكى إلا الآن » .

وحضر الظاهر فى محاكمة فى بئر بين يدى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز فقام الناس سوى القاضى ، فانه أشار إليه ألا يقوم ، وقام هو وغريمه بين يدى القاضى وتداعيا . وترجم الحافظ ابن حجر فى معجمه للملك المؤيد شيخ وأثنى عليه وقال : « أين مثله ؟ بل أين أين مثله ؟ وكان معه إجازة بصحيح البخارى من شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، فكانت لا تفارقه سفرا ولا حضرا » .

وكان السلاطين يشجعون العلماء على التأليف بما كانوا يبذلون من المال والمناصب ، فامتلأت خزائن الكتب فى عهدهم بثمرات العقول ونتائج الأفهام ، مما عرفت أمره . وكان من بر السلاطين بالعربية أن رفعوا من شأن ديوان الإنشاء وحافظوا على العربية بجعلها اللغة الرسمية فعاشت فى كنفهم آمنة هانئة . . وأيادى السلاطين على العلم والفقراء لا تزال ماثلة فيما بنوا من مدارس ومساجد وخوانق وبيمارستانات . وقد حبسوا على ذلك وغيره من وجوه البر الشىء الكثير ، وقد أنشأ الأيوبيون بالقاهرة قبل هـــذا العصر نحو خمس وعشرين مدرسة ، وبنى المماليك نحو خمس وأربعين ، ومن هذه المدارس ما كان مختصا بالصوفية ، وكانت المدارس فى هذا العهد تموج بالطلاب يفدون إليها من جميع أقطار الإســـلام للارتشاف من مناهل العلم ، وكانت تفاض عليهم الهبات وضروب الإحسان ،هذا عدا خزائن الكتب التى أنشأوها ، والأوقاف المحبوسة على العلم وأهله ، ومما كان يجريه عليهم أمراء المصريين وأميراتهم من أنواع البر ، فكان يصرف لهم الطعام والكسا وتهيأ لهم المساكن ليعيشوا هانئين لا يشغلهم شاغل عن طلب العلم والتجرد له .

وكانت هجرة العلماء والطلاب من أقطار الإســلام المغلوبة إلى القاهرة تشبه إلى

جد كبير هجرة علماء اليونان من القسطنطينية إلى إيطاليا فى عهد السلطان محمد الفاتح، حينما فتح القسطنطينية فى سنة ٨٥٧ هـ حيث فر منها فلول من علماء اليونان إلى إيطاليا ، وأخذوا يحيون اللغتين اليونانية واللاتينية ، وينشرون ثقافة جديدة . ويعد المؤرخون هذه الهجرة مبدأ لنهضة إحياء العلوم بأوربا ، ويجعلونها الحد الفاصل بين القرون الوسطى والعصر الحديث ، وقد كانت هذه الهجرة عظيمة الأثر بلا ريب ، حيث دفعت العقول إلى التفكير بعد جمودها ، والنفوس إلى الشعور بالعزة والكرامة بعد خمولها .

على أن هجرة العلماء والطلاب إلى مصر لم تحدث أثرا فى النظم الاجتماعية والسياسية وإنما أخذت اتجاها علميا محضا ، لأن فكرة الإصلاح والتجديد لم تكن نبتت فى الأذهان بعد ، وقد يكون حكم المماليك فى ذلك الوقت يفضل حكم كثير من الممالك حولهم ، وكانت مصر من الرخاء والعزة بحيث تدفع النفوس إلى الرضا بالواقع والقناعة بالموجود ، ولو كانت هناك نزعة إلى الإصلاح الإجتماعى لوجدت فى آراء ابن خلدون فى مقدمته مجالا للعمل وحافزا إلى النهوض ، فان فيها من وصف أدواء الأمم ووسائل علاجها وبيان أحوال الإجتماع وطرق النهوض بها ما فيه بلاغ وغناء ، ولكننا لا نجد فى هذا العصر أثرا لتفكير ابن خلدون .

ومهما كان فقد كثرت المؤلفات كثرة مدهشة فى هذا العصر وانصبت العلماء فيه على التدوين انصبابا صرفهم عن مشاغل الحياة وشؤونها وتوجهت نفوسهم إلى سد كل حاجة دينية أو فنية أو كونية بمؤلف أو مؤلفات ، وتنافسوا فى الإجادة وتسابقوا فى كثرة الإنتاج ، ووصل كثير منهم إلى مدى الإجتهاد أو كاد ، وتناولوا كل شىء بأقلامهم حتى التافه الحقير من الشؤن ، وابتكر بعضهم مباحث وعلوما لم يكن للناس عهد بها ، ولا غرو فقد كانت مصر والشام فى هذا العصر حافلتين بالمدارس ودور العلم ، وكانت القاهرة والإسكندرية وغيرها من البلاد المصرية ، ثم دمشق وحلب وغيرهما من البلاد الشامية تموج بالعلماء والطلاب موجا . وترجع نهضة التأليف فى هذا العصر إلى عدة أسباب :

فعند ما سقطت بغداد وأحرق التتار كثيرا من الكتب ، ودمروا كل شىء تدميرا ، تملك العلماء شعور دينى دفعهم إلى العمل على إعادة ذلك التراث الذى

عبثت به كوارث الغزو ، وتجديد ذلك المجد الإسلامى الذى بنى فى دهور ، فأخذوا يبذلون الجهد فى التأليف والتصنيف لإصلاح ما أفسدته الأيام ، وإنشاء كتب جديدة فى اللغة والدين والأدب .

وكان لسلاطين المماليك ميل إلى العلم والعلماء ، وإغداق ، مما دفعهم إلى التأليف ، وحفزهم إلى الإحسان فيه . وكان للسلاطين والأمراء والوزراء ولوع باقتناء الكتب النادرة ، وإنشاء الخزانات الجامعة لأنواع شتى من المؤلفات ، حتى إن بعض الكتب كان يؤلف خاصة لهم ، وقد كانوا يختارون لخزائنهم خير ما أنتجه المؤلفون ، فدفع ذلك المؤلفين إلى الإجادة والتنافس . ولقد أظهر لنا ابن نباتة هذا الشعور جليا حينما أمر السلطان حسن بوضع ديوان شعره فى خزانته إذ يقول :

أمرت شعرى ياخير الملوك على   أشعار قوم ، فلى أمر وديوان

وكان التنافس بين علماء مصر والشام بالغا حده ، وكان الاتصال بينهما على بعد الشقة مستمرا ، وكان من العقائد الراسخة أن العالم أو الأديب الذى لا يبرز أثرا لا يصح أن يدعى عالما أو أديبا .

الكتابة الفنية فى عصر المماليك

ونقصد بها كتابة الرسائل ، وهى الرسائل الفنية التى تصدر عن ديوان الإنشاء فى القاهرة .

ولم يكن بمصر ديوان للإنشاء من حين فتحت إلى أيام أحمد بن طولون ؛ وحينما قوى أمرها فى تلك الأيام أنشىء بها ديوان للإنشاء ، واستمر إلى أن ملكتها الدولة الفاطمية ، فعظم شأن ديوان الإنشاء بها . وأشهر كتاب الإنشاء بهذه الدولة أبو المنصور بن سوردين النصرانى ، وكان كاتبا للعزيز بن المعز والحاكم وأبو القاسم المعروف بابن الصيرفى ، وقد كتب للآمر والحافظ ، ويوسف بن الخلال ، وهو أستاذ القاضى الفاضل ، وكتب للحافظ والعاضد ، وكان يلقب صاحب الديوان فى الدولة الفاطمية بكاتب الدست الشريف ، وكان من أشهر كتاب الإنشاء فى عهد الدولة الأيوبية القاضى الفاضل ، ثم أضيفت إليه الوزارة ، وكتب لصلاح الدين وابنه العزيز ، ثم بهاء الدين زهير الشاعر المشهور ، وكان كاتبا فى عهد الملك الصالح .

على أن أنبه أصحاب الدواوين ذكراً فى عهد المماليك هو محي الدين بن عبد الظاهر . وأول من سمى كاتب السر بالديار المصرية ابنه فتح الدين بن عبد الظاهر ، وقد ولى ديوان الإنشاء فى عهد المنصور قلاوون . ومن كتاب السر المشهورين فى هذا العهد تاج الدين بن الأثير وكتب للأشرف خليل . ومحي الدين بن فضل الله العمرى ، وشهاب الدين بن فضل الله ، وشرف الدين بن فضل الله . والشهاب محمود الحلبي ، وكتبوا للناصر . وشمس الدين محمد بن مزهر وكتب للمؤيد .

وكان كاتب السر فى عهد المماليك فى أرفع محل وأشرف قدر ، إليه تلق أسرار المملكة ، وبرأيه يستضاء فى حل مشكلاتها ، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر ، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ، ويقوم توقيعه فى القصص أحيانا مقام توقيع السلطان . وقد ذكر القلقشندى ما يجب أن يتحلى به صاحب الديوان من العلم والأخلاق وصفات السياسة ، ثم شرح أعماله فى إسهاب : « وهى أن يتصفح هو أو نائبه جميع ما يكتبه كتاب ديوانه من الولايات والمنشورات والمكاتبات ؛

وأن يتلق المكاتبات الواردة ويقرأها على السلطان ويجيب عنها ، وهو الذى ينظر فى البريد ، واختيار من يرسل إلى الخارج فى الشؤون السلطانية ، وهو الذى يختار الجواسيس لإرسالهم حيث يريد إلى أى جهة من جهات العدو ، وتشمل دائرة عمله المناور ، فقد كان بين الفرات إلى قريب من بلبيس أمكنة عالية يقيم بها مستخدمون من قبل السلطان، فإذا حدث حادث ببلاد التتار أوقدوا النار بالقمم المجاورة للفرات فينظرها من بعدهم فيوقدون النار ، وهكذا حتى ينتهى الوقود إلى المكان الذى بقرب بلبيس فى يوم أو بعض يوم ، ومن هناك ترسل رسالة على أجنحة الحمام فيعلم السلطان بالحادث فيأخذ فى التأهب ، . وكذلك من عمل صاحب الديوان فوق هذا أنه ينظر فى الأمور العامة بما يعود نفعه على السلطان والمملكة، وهو المشير الأول على السلطان وموضع ثقته .

وبديوان كاتب السر كتاب الدست ، وهم الذين يجلسون معه فى دار العدل ويقرءون القصص على السلطان ، ويوقعون عليها بأمر السلطان . وكتاب الدرج وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها ، وربما شاركهم كتاب الدست فى ذلك ، وقد ابتدع الكتاب بدعة جديدة فى دولة المماليك من وضع ألقاب للسلطان والملوك والوزراء وأمراء الدولة وكبار رجالها ، بحيث تختص كل مرتبة بلقب لا تتجاوزه . كالمقام والمقر والجناب والمجلس ونحوها ، مع إتباع كل منها بألفاظ خاصة للتبجيل والتفخيم . وقد ابتدعوا أيضا إلحاق ياء النسب بالأوصاف، كالأميرى لأرباب السيوف، والصاحبى للوزراء ، والقضائى لأرباب الأقلام ، وقد أسرف الكتاب كثيراً فى هذا العصر فى ألقاب التمجيد والتعظيم . وقد كان لديوان الإنشاء الأثر الفذ فى إنهاض العربية وإنعاش الآداب بمصر والشام . وتنافس كبار الكتاب والشعراء فى الوصول إلى هذا الشرف الرفيع والتسلق إلى ذلك المنصب السامى ، الذى كان يشترط لنيله أن يكون صاحبه علما فى الأدب ، بعيد الغاية فى مجال الإنشاء وروعة الكتابة ، ملماً بكثير من العلوم العقلية والنقلية . وقد أبرز ديوان الإنشاء فى عهد المماليك بمصر والشام نوابغ من الكرام الكاتبين ، والشعراء المجيدين ، والعلماء النابهين ،وقد مرت أسماء طائفة منهم ، وقد كان للغة العربية أيام قيام ديوان الإنشاء دولة قائمة دالت بعد دخول العثمانيين مصر وإبطالهم ديوان الإنشاء ، فطوى بذلك للعربية والأدب العربى عهد زاهر مجيد .

وقد تأثر الكتاب فى هذا العصر طريقة القاضى الفاضل التى جرت على غرار

طريقة ابن العميد ، وأربت عليها بالإغراق فى التورية والطباق ومراعاة النظير وغير ذلك من أنواع البديع ، لذلك كانت طويلة الأسجاع ، لأن التمحل لإبراز هذه الأنواع كان يضطر الكاتب إلى التمهيد لها والاحتيال على إيرادها ، وهذا يدعو إلى تطويل الكلام . وكانت مواهب القاضى الفاضل وسلامة فطرته وتمكنه من اللغة تنقذ كتابته من السقوط فى درك السخف . وكثير مما كتبه بين أيدينا يشهد له بحسن الذوق ودقة الصناعة والقدرة على اجتذاب القارىء كيفما كان رأيه فيما يجب أن تكون عليه الكتابة الفنية . . وهكذا أولع كتاب المماليك بهذه الطريقة ، فأخذوا يحاكونها ويجهدون جهدهم فى بلوغ أوجها ، وربما جال فى نفوس كثير منهم أن يبرزوها بالإغراق فى البديع والإكثار من الزخرف اللفظى ، فجنى عليهم اجتهادهم ، وجاءت كتابة كثير منهم مملوءة بالبديع ، محلاة بأنواع الصناعة ، فاختفت المعانى تحت أردية الديباج الموشى ، والإستبرق المرقش ، وناءت عقود الجواهر واللآلىء بينات الأفكار فأجهدت أنفاسها ، وأصبحت تقرأ عبارات هى أشبه بالألغاز منها بصريح الكلام ، وتعجب كيف أن عقلا إنسانيا يصور له رأيه أن من أمارات النبوغ وإحكام الصناعة التدهور إلى هـــذا الحضيض . وطالب الأدب تملكه الحيرة إن أراد أن يعلل لهذه النازلة التى أصابت الأدب فقضت على فن هو أكثر فنونه استمالا ، وهو أقل فنونه قيودا ، وأحوجها إلى السهولة والانسجام . وربما كان من أسباب ذلك تمكن غريزة التقليد من هؤلاء الكتاب وتحكمها فى نفوسهم ، حتى لكأنهم لا يعرفون من النثر إلا ما كان مسجوعا متكلفا ، وحتى لكأنهم لم يقرءوا تلك الكتابة الرائعة السهلة التى تأسر بلاغتها النفس فى جمال وإبداع ورصانة ، تلك كتابة الصدر الأول العباسى لأمثال : ابن المقفع والجاحظ وعمرو بن مسعدة وسهل بن هارون والصولى وغيرهم . وقد نشأت طائفة من النقاد فى هذا العصر لا يروق لها إلا هذه الرطانة ، ولا يهز أعطافها إلا هذا الإسفاف ومن كتاب هذا العصر : ابن خلدون ، الذى نعى على كتاب عصره شغفهم بالبديع وأخذ عليهم إيغالهم فى التكلف . وربما كان من أسباب هذا الميل إلى العناية بالصنعة اللفظية قلة ما لديهم من الأفكار والمعانى ، لأن مدى اطلاعهم كان محدودا ، ولأن دراسة العلوم الكونية كانت مقصورة على طائفة قليلة ، فأرادوا أن يخفوا هذا القصور بستار من الزخرف الممقوت ، وبهذا أصبحت الألفاظ عماد الكتابة ومظهر جمالها الفنى ، أما المعانى فتأتى تالية فى المرتبة ، فإذا أراد الكاتب أن يكتب

رسالة كان اتجاهه إلى اختيار الألفاظ المزوقة والأسجاع الرنانة ، وكان على المعانى أن تخضع أولا لسيطرة الألفاظ ، ثم تكون بعد ذلك كما تكون . وهكذا أخذ النقد والعوامل الأدبية الكثيرة تعمل عملها فى تحطيم الصنعة والتكلف والإغراق الذى يظهر فى إنتاجهم ، ويتجلى فى مذهبهم الأدبى وتأثرهم بطريقة القاضى الفاضل ، التى يعتبر من أهم سماتها السجع والتورية والجناس ومراعاة النظير والاستعارة وغيرها. وكان الناس يعشقون التلاعب بالألفاظ ، ويرون بلاغة القول فى ذلك . فانتشرت طريقة القاضى الفاضل بمصر حتى كانت مذهبا لكتابها ، جرى عليه كبارهم ، وأصبحت الكتابة ضربا من المبالغة فى الصناعة ، وتمكن ذلك من نفوس الناس وبقيت هذه الطريقة بمصر إلى زمن قريب جدا ، بل تخطت مصر إلى غيرها من البلدان . كما تخطت طريقة ابن العميد بلاد الجزيرة وما حولها إلى غيرها من المدن الإسلامية . وقد كان من جراء ذلك أن شغل الكتاب بالألفاظ والصناعة عن المعانى ، فكانت الكتابة أشبه بطلاء لامع يبهرك منظره ولا يروقك مخبره .

ويقول ابن خلدون فى مقدمته ناقداً طريقة أهل عصره فى الكتابة :

« وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور ، من كثرة الأسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدى الأغراض ، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا إلا فى الوزن . واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها فى المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه ، وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل ، وخصوصاً أهل المشرق » ثم يقول : « وما حمل عليه ـ أى هذا الأسلوب ـ أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه من مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة ، وانفساح خطوه ، وولعوا بهذا السجع ، يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ومطابقة الحال فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالإسجاع والألقاب البديعة ، ويغفلون عما سوى ذلك ، وأكثر من أخذ بهذا الفن ، وبالغ فيه فى سائر أنحاء قولهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى إنهم ليخلون بالإعراب فى الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم فى تجنيس ، أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ، ويدعون الإعراب ، ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف ذلك التجنيس » . ولقد نرى أثر الشكوى من دخول من لا يصلح للكتابة بين

أهلها ، فى قول النويرى فى نهاية الأرب : « وقد اتسع الخرق فى ذلك ، ودخل فى الكتابة من لا يعرفها ألبتة ، وزاد على الإحصاء ، حتى إن فيهم من لا يفرق بين الضاد والظاء ، ولقد بلغنى عن بعض من أدخل نفسه فى الكتابة ، وتوسل إلى أن كتب فى ديوان الرسائل ، أنه رسم له بكتاب يكتبه فى حق رجل اسمه « طرنطاى » فقال لكاتب إلى جانبه : طرنطاى يكتب بالساقط ، أو بالقائم ؟ يريد بالضاد أو الظاء ، وصار الآن حد الكتابة عند هؤلاء الجهال ، أن يكتب أحدهم على المجود مدة ، ويتقن بزعمه أسطراً ، فاذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدنى جودة ، أصلح بزته وركب برذونه أو بغلته. وسعى فى الدخول الى ديوان الإنشاء والانضمام الى أهله ، ولعل الكتابة إنما حصل ذمها بسبب هؤلاء وأمثالهم » ، ولله در القائل:

تعس الزمان لقد أتى بعجاب ومحا صنوف الفضل والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدى فيهم رددتهمو الى الكتاب

ولقد كان القلقشندى أصرح فى بيان السبب فى ضعف الكتابة ، إذ علق على قول النويرى ، فقال :

« وانما تقاصرت الهمم عن التوغل فى صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الاوفى ، لاستيلاء الأعاجم على الامر ، وتوسيده لمن لا يفرق بين البليغ والالكن لعدم إلمامه بالعربية ، والمعرفة بمقاصدها ، حتى صار الفصيح لديهم أعجم ، والبليغ فى مخاطبتهم أبكم ، ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

وصناعتى عربية وكأننى ألقى بأكثر ما أقول الروما
فلمن أقول وما أقول وأين لى فأسير لابل أين لى فأقيما

تلك الحال التى وصفناها ، هى حال الكتابة فى بلاد لغة حكومتها هى العربية ولها ديوان يتولاه كتاب يرتقون إلى درجة الوزارة بكتابتهم ، وتلك هى مصر فى عصر المماليك ، فما بالك بغيرها من ممالك العراق وما وراءه ، وقد كانت لغة حكوماتها : إما المغلية ، وإما التركية ، واما الفارسية ، لاشك أن ريح الكتابة كانت راكدة ، وأن التنافس فى تحصيل ملكتها كان متخاذلا فليس وراءها أمل فى مرتبة سياسية ، أو أجر يغرى بالحرص عليه والسعى فى سبيله .

صور من الكتابة الفنية فى هذا العصر

١ — لابن حبيب الحلبى من كتاب نسيم الصبا فى البحر والنهر (١) :

هزتنى رياح الأمل البسيط ، إلى امتطاء ثبج (٢) البحر المحيط ، فأتيت سفينة يطيب للسفر مثواها ، وركبت فيها باسم الله مجراها ومرساها ، موقناً بأن المقدور صائر ، معرضاً عن قول الشاعر :

لا أركب البحر أخشى   على منه المعاطب

يالها سفينة ، على الأموال أمينة ، ذات دسر وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطير بغير جناح ، وتعتاض عن الحادى بالملاح ، تخوض وتلعب ، وتردو لاتشرب ، لها قلاع كالقلاع ، وشراع يحجب الشعاع ، وسكينة وسكان ، ومكانة وإمكان وجؤجؤ وفقار (٣) وأضلاع محكمة بالقار ، وجسم عارٍ عن الفؤاد ، وهو عين الماء بمنزلة السواد ، بعيدة ما بين السحر (٤) والنحر ، من أحسن الجوار المنشآت فى البحر ، معقود بنواصيها الخير كالخيل ، لاتمل من سير النهار ولا من سرى الليل .

لين الأديم ، مزاجه من تسنيم (٥) يصقله الصبا ويحركه النسيم ، فكأنه دروع موضونة (٦) ، أو مبارد مسنونة ، أو دمع يتسلل ، أو أفاع تتململ ، أو ذوب فضـــة يسيل ، أو صفحة سيف صقيل ، أو لوح بلور مرقوم ، أو رحيق بالمسك مختوم .

٢ — وقال صلاح الدين الصفدى يصف بستاناً :

فوصلنا إلى بستان أخذ زخرفه وتزين ، وفاضت عيونه غيرة من نازليه وتلون تنساب جداول جوانبه كالأراقم ، ويصفق النهر لرقص الغصون على غناء الحمائم ، ويهب النسيم فينقطها من الزهر بدنانير ودراهم ، قد تطاول فيه من البان كل قد

---

(١) كتاب نسيم الصبا صـ ٢١   (٢) الثبج : وسط الشىء ومعظمه .
(٣) جمع فقارة : وهى عظمة الصلب .   (٤) السحر : الرئة .
(٥) ماء بالجنة .   (٦) موضونة : مضاعفة النسج .

مخطوف (١) ، وخجل فيه من الورد كل خد موصوف ، فأجلسنا النرجس على عينيه وأحداقه ، وظللنا الغصن بسائر أوراقه ، وحيانا منثوره (٢) الأبيض والأزرق بالأصابع ، وفتح كفوفه الصفر وهو منا غيران فاقع ، وجرى النهر بين أيدينا متواضعاً بسجوده ، وشبب الشحرور بمنقاره لما تغنى الهزار على عوده ، وقد رق نسيمه وراق . وجذب الحائم إلى الغناء بالأطواق :

أظن نسيم الروض للزهر قد روى   حديثاً فطابت من شذاه المسالك

والماء قد رق وراق ، وتسلل وهو فى الأطلاق ، وجرى فتكسر ، وصفا ولم يتغير ، وصاحب النسمات وحالفها ، وقاطع الأغصان وخالفها ، وأتته الرياح للزيارة من شمالها وجنوبها ، وسرق حلى الأغصان فضمها فى صدره وجرى بها ، والعيون ترمقه فى جريه ومسيره ، وهو لا يفتر عن تصفيقه وخريره ، حتى خشينا عليه التكسير من التمادى ، ورجونا من ماء عينيه رى كل صادى . . .

ولم يزل الطير يسعى بين النهر والغصن فى الاتفاق ، ويكرر ألحانه ويراسل فى الأوراق ، ويجتهد فى الصلح ويدعو إليه ، ويحرص على الوفاء ويحرض عليه ، وقام الشحرور بينهما واعظا وخطيبا ، فأجدت مواعظه وكان قلب النهر صافيا وقريبا . وقام النسرين من السرور على ساق ، وجذب كل صدوح للغناء بالأطواق ، وتبسمت من الأقحوان الثغور ، وتنسمت نسمات المسك والكافور ، واعتل النسيم غيرة وتغير ، فتولى وهو بذيله يتعثر ، وجعل يجر من الحياء ذيولا على الأغصان ، فتعتنق اعتناق المواصل الغضبان .

وبكى النهر على مواصلة الغصون ، وخر لديها وفاضت منه العيون ، ومثلها فى قلبه شغفاً وحبا ، وصار بها من دون الصبا صبا :

والنهر قد عشق الغصون فلم يزل   أبدا يمثل شخصها فى قلبه
حتى إذا فطن النسيم لحاله   من غيرة فأزالها من قربه
وغدا عليه مهيمنا بعتابه   سرا لجهد وجهه من عتبه

فلم يزجر النهر عن حب الغصون زاجر ولا عاذل ، ولم يجب العذل إلا بدمعه السائل ، وصار يرد برد الهوى بجرهواه العذرى ، وغدا ساعيا بسعادة الأغصان

---

(١) مخطوف : ضامر .   (٢) المنثور : نبات ذو زهر ذكى الرائحة .

يجرى ، فتقنع منها بأدنى وصال ، وربما اقتصر منها فى الحب على الخيال .

٣ — وكتب القاضى محي الدين بن عبد الظاهر من رسالة اقترحت عليه (١) :

حرس الله نعمة مولاى ، ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله وحرف قلبه يأتلف ، ومنادى جوده لا يرخم وأحد عيشه لا ينصرف ، ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود ، ولا خاطبت الأيام ملتمسة إلا بلام التوكيد ، ولا عدوه إلا بلام الجحود ، هذه المفاوضة اليه أعزه الله تفهمه أنا بلغنا أن فلاناً أضمر سيدنا له فعلا غدا به منصوباً للمكايد ، ومعتلا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد ، وما ذاك إلا لأن معرفتها داخلها التنكير ، وقدرلها من الاحتمالات أسوأ التقدير ، ونعوت صحبته تكررت لجاز قطعها بسبب التكرير .

٤ — وكتب الوردى على قطعة من شعر بدر الدين حبيب بعد أن كتب عليها جمال الدين بن نباتة (٢) :

وتأملت هذه النبذة التى رق من قائلها الطباع ، فافتخرت بنظرها الأبصار على الأسماع ، فوجدتها مشتملة على مبانى القوافى الفوائق ، والمعانى الرواق الروائق ، فقبسها بدرى ، وكوكبها درى ، هاجت لى ذكرى حبيب ، فهى زبدة من حلب لا بل قطعة من طيب ، أعذب من الوصال ، وألذ من الماء الزلال ، وألطف من الرياض عند الصباح ، وأرق من رحيق الطل فى ثغور الاقاح ، فيالها من مقطعات نيل ، أضرمت فى روح كل كليم نار خليل ، قدر ناظمها فى السرد ، وقال ناظرها بالجوهر الفرد ، ونابت مناب سيوف الهند ، وأغنت عن التشبيب بسعاد وهند ، ما أطول صفات شعرها وإن كان قصيراً ، فلو ألقيت على وجه أبى العلاء لأتى بصيرا ، ومن سلك من الجماعة هذا الطريق وهو نقى خد ، فما الظن به إذا تحلى لسانه وعارضه برسم وحد ، وكيف به إذا تعلق بأفنان مواد هذا الفن وامتاز ، ونزل بدر خده فى دارة دار الطراز ، هناك يبين للناظرين أن الوليد كان عابثاً ، وأن ابن حبيب لابويه فى الادب والنسب أصبح وارثاً :

أقسمت أن جد وطال المدى   روى الورى من بحره الزاخر

---

(١) صبح الاعشى ١٧٦:١   (٢) ص ١٥٢ من ديوانه طبع الجوائب

فقل لمن بالسبق تفضيله كم ترك الأول للآخر

ومالى لا أصف هذه النبذة فأعلو بوصفها ، وقد شهدت الألفاظ النباتية بحلاوتها ولطفها ، قرن الله قوله وفعله بالتوفيق ، وصان شأنه عن شانه فشين الحسن لا يليق .

٥ — وله إجازة بعرض الكافية فى النحو(١) :

أما بعد حمد الله المقدمة رحمته ، الكافية نعمته ، حمدا يبلغ به المقرب خلاصة التسهيل ، ويعمى به مفصل الجمل وهو بإيضاح(٢) العمدة كفيل ، والصلاة على نبيه محمد الذى ألف التقوى ، ولام أهل العدوى(٣) ودال على كل كاف من أهل العناد . وذال(٤) إذ قصر ثيابه فطمس عين أهل الشرك وفاء بعين المراد ، وباء من إسرائه الشريف بما صاد الأضداد ، وشين حاسده بما بان لكل راء فى يس و ص ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أفضل من جاهد وصبر ، ما نصب بأن الاسم ورفع الخبر ، فإن فلانا عرض على المقدمة الكافية والله يؤتيه فيما حفظ فهما يعجب الناظر ويسر الصاحب ، وعملا يقول عنده المصنف أفدى هذا العارض بالحاجب .

٦ — وللشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى(٥) يصف بستانا وقد سبق بعضها :

فوصلنا إلى بستان قد أخذ زخرفه وتزين ، وفاضت عيونه غيرة من نازليه وتلون ، تنساب جداول جوانبه كالأراقم(٦) ، ويصفق النهر لرقص الغصون على غناء الحمائم ، ويهب النسيم فينقطها من الزهر بدنانير ودراهم ، قد تطاول فيه من البان كل قد مخطوف ، وخجل فيه من الورد كل خد موصوف ، فأجلسنا النرجس على عينيه وأحداقه ، وظللنا الغصن بستائر أوراقه ، وحيا منثوره الأبيض

---

(١) راجع ديوان ابن الوردى طبع الجوائب ص ١٥٠ ضمن مجموعة .

(٢) التسهيل والفصل والإيضاح : أسماء كتب فى علم النحو .

(٣) العدوى بالضم : الظلم . (٤) ذال تبختر .

(٥) ولد بصفد سنة ٦٩٦ هـ . وتلقى العلم بدمشق عن ابن نباتة وعن أبى حيان اللغوى وغيرهما ، وتولى ديوان الإنشاء بصفد والقاهرة وحلب ، وهو كاتب شاعر مؤرخ . توفى سنة ٧٦٤ هـ .

(٦) الأراقم : جمع أرقم ، وهو الحية .

والأزرق بالأصابع ، وفتح كفوفه الصفر وهو منا غيران(١) فاقع ، وجرى النهر بين أيدينا متواضعاً بسجوده ، وشب الشحرور بمنقاره لما تغنى الهزار على عوده ، قد رق نسيمه وراق ، وجذب الحائم إلى الغناء بالأطواق .

وقال :

إذا مادنا فصل الربيع ، فكله   ثغور لما قال النسيم ضواحك

قد شاب ذلك الزهر قبل شبابه ، وغناء الطير فتساقط من طربه وإعجابه ، ومر عليه النسيم بذيله البليل ، فمشت حتى عجبنا من حصول الشفاء من العليل . فيالها روضة صدحت أطيارها فأطربت أشجارها ، وألبستنا ثوب الخلاعة عند خلع العـــذار :

انظر إلى الروض النضير كأنما   نشرت عليه ملاءة خضراء
أفسرحت بلحظ عينك لاترى   إلا غديرا جال فيه الماء
وترى بنفسك عزة فى دوحــــه   إذ فوق رأسك حيث سرت لواء(٢)

والماء قد رق وراق ، وتسلسل وهو فى الإطلاق ، وجرى فتكسر ، وصفا ولم يتغير ، وصاحب النسمات وحالفها وقاطع الأغصان وخالفها ، وأتته الرياح للزيارة من شمالها وجنوبها ، وسرق حلى الأغصان فضمها فى صدره وجرى بها ، والعيون ترمقه فى جريه ومسيره ، وهو لا يفتر عن تصفيقه وخريره ، حتى خشينا على التكسير من التمادى وزجونا من ماء عينيه رى كل صادى (٣) :

ياحســــنه من جدول متدفق   يلهو برونق حسنه من أبصرا
ما زالت أنذره عيوناً حـوله   خوفا عليه أن يصاب فيعثرا
فأبى وزاد تمـادياً فى جريه   حتى هوى من شاهق فتكسرا (٤)

ولم يزل الطير يسعى بين النهر والغصن فى الاتفاق ويكرر ألحانه ويراسل فى الأوراق ، ويجتهد فى الصلح ويدعو اليه ، ويحرص على الوفاء ويحرض عليه .

---

(١) غيران : من الغيرة والتحسر وفاقع الصفرة : شديد .

(٢) أى تشعر كأنك قائد جيش ، لما يظلك من شجر عظيم كأن الألوية فى مقدمة الجيش .

(٣) الصادى : العطشان .   (٤) الشاهق : المكان العالى .

وقام الشحرور بينهما واعظا وخطيباً ، فأجدت مواعظه وكان قلب النهر صافيا وقريبا . وقام النسرين(١) من السرور على ساق ، وجذب كل صدوح للغناء بالأطواق وتبسمت من الأقحوان (٢) الثغور ، ونسمت نفحات المسك والكافور ، واعتل النسيم غيرة ، فتولى وهو بذيله يتعثر ، وجعل يجر من الحياء ذيولا على الأغصان فتعتنق اعتناق المواصل الغضبان :

في روضة علم أغصانها أهل الهوى العذرى كيف العناق
هبت بها ريح الصبا سحرة فالتفت الأغصان ساقا بساق

وبكى النهر على مواصلة الغصون ، وخر لديها وفاضت منه العيون ، وتمثلها في قلبه شغفا وحبا ، وصار بها من دون الصبا صبا :

والنهر قد عشق الغصون فلم يزل أبدا يمثل شخصها في قلبه
حتى إذا فطن النسيم لحاله من غيرة فأزالها من قربه
وعدا عليه مهيناً بعتابه سرا فجعد وجهه من عتبه (٣)

فلم يزجر النهر عن حب الغصون زاجر ولا عاذل ، ولم يجب العذل إلا بدمعه السائل ، وصار يرد برد الهوى بحر هواه العذرى ، وغدا ساعيا بسعادة الأغصان يجرى ، فقنع منها بأدنى وصال ، وربما اقتصر منها في الحب على الخيال :

ونهر يحب الدوح أصبح مغرما يروح ويغدو هائما بوصالها
إذا أبعدت عنه شكا بخريره جفاها وأضحى قانعا بخيالها

٧ — ومن رسالة للقلقشندى(٤) عن الملك الناصر فرج بن برقوق إلى صاحب فاس في ذكر وقعة تيمورلنك ، وتحركنا من الديار المصرية في جيوش لا يأخذها

---

(١) النسرين بكسر النون وقيل بفتحها : ورد أبيض طيب الرائحة.
(٢) الاقحوان : نبات أوراق زهره مفلجة صغيرة ، تشبه بها الاسنان .
(٣) الهينمة: الصوت الخفى .
(٤) هو أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ، صاحب كتاب « صبح الأعشى فى كتابة الإنشا » ولد فى قرية قلقشندة من قرى القليوبية بمصر سنة ٧٥٦ هـ ، من بيت عربى ، وقد تأدب فى القاهرة وألف مؤلفات عدة أشهرها ما ذكرناه ، وعاش فاضلا مبجلا حتى توفى سنة ٨٢١ هـ .

حصر ، ولا يلحقها حصر (١) ولا يظن بها على كثرة الأعداد كسر ، ولم تزل نحث السير ونسرع الحركة للقاء العدو إسراع الطير ، حتى وافينا دمشق المحروسة فنزلنا بظاهرها (٢) ، مستمطرين النصر فى أوائل حركتنا وأواخرها ، وانضم من عساكر الشام وعربانها ، وتركمانها الزائدة على العد وعشرانها ، ما لا ينقطع له مدد ، ولا يدخل تحت حصر ولا عدد ، وأقبل القوم فى لفيف (٣) كالجراد المنتشر ، وأمواج البحر التى لا تنحصر : من أجناس مختلفة ، وجموع على تباين الأنواع مؤتلفة . وتراءى الجمعان ، فى أفسح مكان ، ورأى كل قبيل الآخر رأى العين وليس الخبر كالعيان . واعتد الفريقان للنزال ، واحتفروا خنادق للاحتراس ، وتبوأنا مقاعد للقتال ، ولم يبق إلا المبارزة والتقاء الصفوف والمناجزة (٤) ، إذ ورد وارد من جهتهم بطلب الصلح والموادعة ، والجنوح إلى السلم وقطع المنازعة ، فأجبناهم بالإجابة ، ورأينا أن حقن الدماء من الجانبين من أتم مواقع الرأى إصابة ، وكتبنا إليهم فى ضمن الجواب :

لما أتانا منكم قاصد   يسأل فى الصلح وكف القتال

قلنا له : نعم الذى قلته   والصلح خير ، وأجبنا السؤال

٨ — وللقاضى محيى الدين بن عبد الظاهر (٥) من كتاب كتبه إلى صاحب اليمن عن السلطان الملك المنصور قلاوون مبشرا بفتح صافيتا :

فمن ذلك حصن الأكراد الذى تاه بعطفه على الممالك والحصون ، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون (٦) ، وغدا جاذبا بضبع (٧) الشام ، وآخذا بمخانق بلاد الإسلام ، وشللا فى يد البلاد ، وشجا فى صدر العباد ، تنقض من عشه

(١) الحصر : الكسر . أى لا تلحقها هزيمة ولا انكسار .

(٢) ظاهرها : ضواحيها .   (٣) اللفيف : الجماعة ، أى فى جيش

(٤) المناجزة : المدافعة .

(٥) هو الكاتب الشاعر عبد الله بن عبد الظاهر الجذامى المصرى أحد المتعصبين لطريقة القاضى الفاضل فى اتباع البديع ، وخاصة التورية فى الشعر والنثر ، وكان من رؤساء ديوان الإنشاء فى دولة المماليك البحرية . وتوفى سنة ٦٩٢ هـ .

(٦) الحرب الزبون : التى يدفع المتحاربون فيها بعضهم بعضا من الكثرة .

(٧) الضبع : العضد .

صقور الأعداء الكاسرة ، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة ، وتربض بأرضه (١) آساد تحمى تلك الآجام (٢) وتفوق من قسيه (٣) سهام تصمى مفوقات السهام ، تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون ؛ ويصطفى كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون . كم شكت منه حماة (٤) قلة الإنصاف ، وكم خافته معرة وما من معرة خاف . مازالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء تشكو من جور جواره تلك الحصون والصياصى (٥) ، وتبكى بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصى (٦) ، حتى نبه الله ألحاظ سيوف الإسلام من جفونها ، ووفى النصرة ما وجب من ديونها . وذاك بأنا قصدنا فسيح ربعه ، ونزلنا ونازلنا محى صقعه (٧) ، وختمنا بنصالنا على قلبه وسمعه ، وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهى كالأنامل ، وتكاد بروجه ترى كالمطايا المقطرة (٨) وهى منها بمنزلة الزوامل (٩) ، ماخيمنا به حتى استبحنا محى تلك المدائن المكنى عنها بالأرباض ، وأجرينا بساحاتها بحراً من الحديد ماااندفع حتى فاض ، وأخذنا الثقوب فى أسوار لا تنقض ولا ينقض بنيانها المرصوص ، ولا تقرأ المعاول ما لخواتم أبراجها من نقوش الفصوص ، ونصبنا عليها عدة مجانيق (١٠) حلت فى شواهق الجبال ، على رءوس الأبطال ، فتغيظت السمهرية (١١) أن الذى تقوم به هذه تلك به لا تقوم ، وأن ما منها إلا له من الأيدى والرءوس مقام معلوم ، وصار يرمى بها

---

(١) الأرباض : جمع ربض ، وهو المأوى ، والمراد هنا بالأرباض : النواحى والجهات .

(٢) الآجام : جمع أجمة ، وهى بيت الأسد .

(٣) القسى ، جمع قوس . وتفوق : أى تصيب وتسدد .

(٤) حماة اسم بلد ، وكذلك المعرة . (٥) الصياصى : الحصون الرفيعة .

(٦) نهر من أنهر سورية عليه جملة مدن منها حماه .

(٧) الصقع : الناحية والجهة .

(٨) المقطرة : المصفوفة واحدا خلفه واحد . فهى قطار .

(٩) الزوامل : جمع زاملة وهى الدابة التى يحمل عليها من الإبل وغيره .

(١٠) المنجنيق : آلة كانت تستعمل فى الحروب ترمى بها الحجارة .

(١١) السمهرية : الرماح وهى صفة لها .

كل كمي مختلس وأروع منتهس(١) ، وكل ليث غابة يسميها ويحميه؟ فشكراً لأسود حتى غاباتها تفترس ، إلى أن جثت أسوارها على الركب وكانت سهام مجانيقها تميل من العجب (٢) فصارت تميد من العجب (٣) وكانت تطلب فصارت تهرب من الطلب . . .

٩ — وللإمام ابن حبيب الحلبي (٤) من كتابه نسيم الصبا ، الفصل السادس في البحر والنهر وقد سبق بعضها :

هزتني رياح الأمل البسيط (٥) . إلى امتطاء ثبج (٦) البحر المحيط ، فأتيت سفينة يطيب للسفر مثواها ، وركبت فيها بسم الله مجراها ومرساها ، موقنا بأن المقدور صائر ، معرضاً عن قول الشاعر :

لا أركب البحر أخشى على منه المعاطب(٧)
طين أنا ، وهو ماء ، والطين في الماء ذائب

يالها سفينة ، على الأموال أمينة ، ذات دسر(٨) وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطير بغير جناح ، وتعتاض عن الحادي(٩) بالملاح ، تخوض وتلعب ، وترد ولا تشرب ، لها قلاع كالقــــلاع (١٠) ، وشراع يحجب الشعاع ، وسكينة وسكان(١١) ومكانة وإمكان ، وجؤجؤ(١٢) وقفار ، وأضلاع محكمة بالقار(١٣) ، وجسم عار عن الفؤاد ، وهو في عين الماء بمنزلة السواد ، بعيدة ما بين السحر (١٤)

---

(١) النهس : النهش ، والمنتهس مشتق منه ، المختلس : اليقظ المتحين للفرصة حتى يتمكن من القتل .

(٢) تميل من العجب : تهتز من الزهو والخيلاء .

(٣) تميد من العجب : تضطرب وتتزلزل من الدهشة والتحير .

(٤) المتوفى سنة ٧٧٩ هـ .

(٥) البسيط : المبسوط الفسيح . (٦) الثبج : وسط الشيء ومعظمه .

(٧) المعاطب : جمع معطب وهو موضع العطب والهلاك .

(٨) الدسر : جمع دسار ، وهو خيط من ليف تشد به ألواح السفينة .

(٩) من يسوق الإبل ويغنى لها . (١٠) جمع قلعة .

(١١) سكان السفينة : ذنبها . (١٢) الجؤجؤ : الصدر .

(١٣) القار : الزفت . (١٤) السحر : الرئة .

والنحر ، من أحسن الجوارى المنشئات فى البحر ، معقود بنواصيها الخير كالخيل ، لا تمل من سير النهار ولا من سرى الليل .

مارأى الناس من قصور على الما ء سواها تسير سير القداح(١)

كأنها وعل (٢) ينحط من شاهق ، أو عرباض (٣) سابق يحثه سائق ، أو عقرب شائلة (٤) ، أو عقاب صائلة ، أو غراب أعصم ، أو تمساح أو أرقم ، أو ظليم (٥) نفر فى الظلام ، أو جواد فر مستنكفاً من صحبة الآثام . حاكمها عادل فى حكمه ، عارف بنقض أمرها وبرمه ، يهتدى بالنجوم ، ويهتدى باسم الحى القيوم (٦) ، يبرز من نواتيها (٧) فى جنود ، ويشمل إحسانهم أهلها أيقاظا وهم رقود ، يتأنقون فيما يعملون ويفعلون مايؤمرون :

يكثرون الصياح حتى كأن السفـ ن تجرى من خوف ذاك الصياح

١٠ — ولابن فضل الله العمرى من صدور مكاتباته(٨) :

خلد الله سلطان الديوان العزيز ولا زالت أيامه شامخة الذوائب شارخة الصبا حيث يلحق الشيب الشوائب ، راسخة الفخار فى الظهور بالعجائب ، ناطقة فى فم الليل بجر الكتائب ، صارخة والرعد ترتعد فرائصه بين السحائب ، ناسخة دولة كل علياء بما تأتى به من الغرائب وتبذل من الرغائب ، فاسخة عقد كل خالع يرده الله إليها ردة عائب ، باذخة على ماضى كل زمان ذاهب ، من عصور الخلفاء الشرفاء وآتب ، سالخة لجلدة كل أيم(٩) ظن أن فى أنياب رعه النوائب ، الخادم يقبل العتبات الشريفة ساجدا بجبينه ، وشاهدا يستأديه(١٠) له على يمينه . . . وجاحدا كل ولاء سوى ولائه المعقود بيمينه ، وعاقدا بشرف الانتساب إليه عقد دينه حامدا الله الذى جعله من طاعة أمير المؤمنين عند حسن يقينه ، وعائدا بأمله إلى كرم

---

(١) جمع قدح وهو السهم ، أى تنطلق مسرعة .

(٢) الوعل : تيس الجبل . (٣) العرباض : الغليظ من الإبل

(٤) شائلة : أى رافعة إبرتها التى تلسع بها (٥) الظليم ذكر النعام

(٦) القيوم : من أسمائه تعالى ، ومعناه : الذى لاند له ، أو القائم بذاته

(٧) جمع نوتى : وهو الملاح فى البحر

(٨) كتاب التعريف بالمصطلح الشريف ص ٨ .

(٩) الايم : الحية (١٠) يستأديه : يستعديه .

تثمر به الآمال ، وتقمر به الليالى لأنها شعاره الذى تضرب به الأمثال ، وتمطر به السحب الجهام فتمحو بها آية الإمحال ، وينهى ورود المثال الشريف . . .

١١ — وله فى رسم المكاتبة إلى صاحب ماردين .

أعز الله نصرة المقر الكريم العالى الكبيرى الملكى الصالحى الشمسى ، ولا زال ملكا تاجه المدائح ، ومنهاجه المنائح ، وطريقته إذا وصفت قيل هذه طريقة الملك الصالح ، أصدرناها إليه وشكرها يسوق إليه حداة الركائب ، ويشوق منه إلى لقاء الحبائب ، ويثنى على مكارمه التى كلما أقلعت منها سحائب أعقبت بسحائب وتوضح للعلم الكريم . . . الخ .

١٢ — وقال صلاح الدين الصفدى فى ابن فضل الله العمرى(١)

هو الإمام الفاضل البليغ المفوه الحافظ حجة الكتاب إمام أهل الأدب أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعالى وتوصلا ، وإقداما على الأسود فى غاباتها ، وإرغاما لأعدائه بمنع رغائبها ، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهب وينحدر سيله مذاكرة وحفظا ويتصبب ، ويتدفق بحره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستمرة نظاما ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة وتندى عباراته انسجاما وصياغة وينظر إلى غيب المعانى من ستر رقيق ويغوص فى لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق قد استوت بديهته وارتجاله وتأخرعن فروسيته من هذا الفن رجاله يكتب من رأس قلمه بديها ما يعجز تروى القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيهاً وينظم من المقطوع والقصيد جواهرا يخجل الروض الذى باكره الحيا مزهراً صرف الزمان أمراً ونهياً ودبر المماليك تنفيذا ورأيا ووصل الأرزاق بقلمه ورويت تواقيعه وهى مجلات لحكمه وحكمه .

١٣ — ولابن عربشاه فى كتابه عجائب المقدور فى أخبار تيمور (٢) :

ذكر ماصبه (تيمور) من صواعق البيض واليلب على العساكر الشامية عند وصوله الى حلب .

---

(١) فوات الوفيات ٩-١

(٢) ص ٨٨ طبعة المطبعة العثمانية .

ثم إن تيمور ثقل الركاب ، فوصل في سبعة أيام إلى حلب من عينتاب ، فحل بذلك الخميس (١) ، تاسع شهر ربيع الأول يوم الخميس ، وبرز من ذلك العسكر طائفة نحو من ألفي نفر ، فتقدم لهم من الأسود الشامية نحو من ثلثمائة ، فقلوهم بالصفاح (٢) وشلوهم بالرماح ، فبددوهم وطردوهم ، وحدروهم (٣) وشردوهم ثم أصبحوا يوم الجمعة فبرز من عسكره نحو من خمسة آلاف إلى مصاف الثقاف (٤) فتقدم إليهم طائفة أخرى ، أرسالا وتترى ، فالتحم بينهم النطاح ، واشتبكت بين الطائفتين أنامل الرماح ، فازدحموا واقتحموا ، واشتدوا والتحموا ، ولا زالت أقلام الخط في ألواح الصدور تخط ، والقضبان والصوارم لرءوس تلك الأقلام والأعلام تقط ، ومشاريط النبال لدماميل الدمال (٥) تبط (٦) والأرض من أثقال جبال القتال تئط (٧) حتى سجا (٨) ليلا الظلام والقتام وأغطشا ، فتراجعوا وقد أعطى الله النصر لمن يشا ، وجرى من دماء العدو من كل فريق نهران ، وفقد من العساكر الإسلامية نفران ، ثم أصبحوا يوم السبت حادي عشر وقد تعبت الجنود الشامية الإسلامية السلطانية بالقوة البالغة ، والأهبة السابغة ، والخيول المسومة والرماح المقومة ، والأعلام المعلمة ، ولم يعوز أولئك الصناديد ، سوى شمة من النصر والتأييد ، فنحوا قصده ، وقصدوا رده وصده . وأقبلت عساكره ، والسعد الميمون طائره ، والقضاء موازره ، والقدر مظاهره بالجنود المذكورة . والجيوش المعهودة المنصورة ، تؤمهم الأفيال ، وأفيال القتال ، وإذا به قد أضمر لهم الويل ، وعبى عساكره تحت جنح الليل ، وبثهم فيهم وأرسل عليهم ، وقابلهم بمقدمتهم وشغلهم بأوائلهم ، وأحاط الباقون بهم فأتوهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن شمائلهم فمشى عليهم مشى الموس على الشعر وسعى سعى الدبى (٩) على الزرع الأخضر .

١٤ — وللشيخ كمال الدين الدميري (١٠) قطعة من كتابه « حياة الحيوان » :

الحمام : قال الجوهري : هو عند العرب ذوات الأطواق ، نحو الفواخت (١١)

---

(١) الخميس : الجيش . (٢) الصفاح جمع صفح : جانب السيف .
(٣) حدره : أنزله إلى أسفل . (٤) الثقاف بالكسر : الجلاد .
(٥) يريد الفساد وأصل الدمال التمر العفن . (٦) بط الجرح : شقه .
(٧) تئط : تئن وتصوت . (٨) سجا الليل : سكن أهله . (٩) الجراد
(١٠) توفي سنة ٨٠٨ هـ . (١١) جمع فاختة . وهي الحمامة ذات الطوق .

والقمارى وساق حر والقطا والوراشين وأشباه ذلك يقع على الذكر والأنثى لأن الهاء إنما دخلته على أنه واحد من جنس ، لا للتأنيث ، وعند العامة أنها الدواجن فقط ، الواحدة حمامة . وقال حميد بن ثور الهلالى من أبيات :

وما هاج هذا الشوق إلا حمامة دعت ساق حر برهة فترنما

والحمامة هنا : القمرية . وقال الأصمعى فى قول النابغة

واحكم كحكم فتاة الحى إذا نظرت إلى حمام شراع وارد الثمد

قالت : ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد

فحسبوه فألفوه كما زعمت تسعا وتسعين لم ينقص ولم يزد

هذه زرقاء اليمامة نظرت إلى قطا وارد فى مضيق الجبل ، فقالت : ياليت هذا القطا لنا ومثل نصفه معه إلى قطاة أهلنا ، فيكمل لنا مائة قطاة ، فاتبعت وعدت على الماء فاذاهى ست وستون ، وقال أبو عبيدة : رأته عن مسيرة ثلاثة أيام ، وأرادت بالحمام القطا ، فقالت ذلك ، انتهى . وقال الأموى : الدواجن التى تستفرخ فى البيوت تسمى حماما أيضاً . وأنشد للعجاج :

إنى ورب البلد المحرم والقاطنات البيت عند زمزم

قواطناً مكة من ورق الحمم

يريد الحمام . وجمع الحمامة حمام وحمائم وحمامات . وربما قالوا حمام للمفرد قال جران العود .

وذكرنى الصبا بعد التنائى حمامة أيكة تدعو حماما

وحكى أبو حاتم عن الأصمعى فى كتاب الطير الكبير : أن اليمام هو الحمام البرى ، الواحدة يمامة ، وهو ضروب والفرق بين الحمام الذى عندنا واليمام أن أسفل ذنب الحمامة مما يلى ظهرها فيه بياض ، وأسفل ذنب اليمامة لا بياض فيه انتهى . ونقل النووى فى التحرير عن الأصمعى أن كل ذات طوق فهى حمام ، والمراد بالطوق الحمرة أو الخضرة أو السواد المحيط بعنق الحمامة فى طوقها وكان الكسائى يقول الحمام هو البرى واليمام الذى يألف البيوت ، والصواب ماقاله الأصمعى ، ونقل الأزهرى عن الشافعى كل ما عب وهدر وإن تفرقت أسماؤه فهو حمام ، والعب بالعين المهملة شدة جرع الماء من غير تنفس ، قال ابن سيده : يقال فى الطائر

عب ، ولايقال : شرب ، والهدير : ترجيع الصوت ومواصلته من غير تقطيع له قال الرافعي : والأشبه أن ماعب هدر ، قال : فلو اقتصروا في تفسير الحمام على العب لكفاهم ، ويدل عليه أن الإمام الشافعي قال في عيون المسائل : وما عب من الماء عبا فهو حمام ، وما شرب قطرة كالدجاج فليس بحمام .

١٥ ــ ولابن خلدون(١) من مقدمته في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته:

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا ، وقليلا قليلا . يلقى (٢) عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه ، حتى ينتهي إلى آخر الفن . وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم ، إلا أنها جزئية وضعيفة ، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن ، وتحصيل مسائله . ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ، ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه ، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن ، فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شدا ، فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا وضحه ، وفتح له مغلقه فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد وهو ـ كما رأيت ـ إنما يحصل في ثلاث تكرارات ، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه . وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون المتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ، ويحسبون ذلك مرانة على التعليم وصوابا فيه ، ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مباديها ، وقبل أن يستعد لفهمها فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا ، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل ، وعلى سبيل التقريب والإجمال ، وبالأمثال الحسية ثم لايزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه ، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه ، حتى تتم الملكة في الاستعداد

---

(١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الكاتب المؤرخ المشهور بتاريخه وبمقدمته التي منها هذا الفصل . نشأ بتونس سنة ٧٣٢ هـ . وتعلم هناك وترقى في مناصب عدة حتى مات بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ .

(٢) أي العلم المفهوم من المقام بحسب السياق الآتي . وعليه أي على المتعلم .

ثم فى التحصيل ، ويحيط هو بمسائل الفن . وإذا ألقيت عليه الغايات فى البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى، وبعيد عن الاستعداد له ، كل ذهنه ، وحسب ذلك من صعوبة العلم فى نفسه ، فتكاسل عنه ، وانحرف عن قبوله ، وتمادى فى هجرانه . وإنما أتى ذلك من سوء التعليم .

١٦ — وللمقريزى (١) من خطبة كتابه « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » :

وبعد ، فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا ، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرا ، لما يحويه من المواعظ والإنذار ، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار ، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها ، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى لا جرم أن كانت الأنفس الفاضلة به وامقة (٢) ، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة . وقد صنف الأئمة فيه كثيرا وضمن الأجلة كتبهم منهم شيئا كبيرا .

وكانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى (٣) وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مآربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت مذ شدوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الكثير من آثارها وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ، فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة من ذلك فوائد قلما يجمعها كتاب ، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب ، إلا أنها ليست بمرتبة على منوال ولا مهذبة بطريقة واحدة ومثال . فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم الماضية والقرون الخالية ، وما بقى بفسطاط مصر من معاهد غيرها — أو كاد — البلى والقدم ، ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم ، وأذكر ما بمدينة القاهرة من آثار العصور الزاهرة ، وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع وحوته من المبانى البديعة الأوضاع . مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل ، والتنويه بذكرى الذى شادها من سراة الأعاظم والأفاضل ، وأنثر خلال ذلك نكتا لطيفة ، وحكما بديعة شريفة ، من غير إطالة ولا إكثار ، ولا إجحاف

---

(١) هو تقى الدين المقريزى المولود سنة ٧٦٦ هـ . وكان شاعرا كاتبا مؤرخا توفى سنة ٨٤٥ هـ .

(٢) وامقة : محبة

(٣) الحامة : خاصة الرجل من أهله وولده .

يخل بالغرض ولا اختصار ، بل وسط بين الطرفين ، وطريق بين بين .

١٧ — ولشمس الدين محمد النواجي (١) من كتابه « حلبة الكميت » فى أنواع الرياح وخصائصها :

والنسيم هى الريح الطيبة ، ونسيم الريح : أولها حين تقبل بلين قبل اشتدادها ، وفى الحديث : « بعثت فى نسيم الساعة » أى حين ابتدأت وأقبلت ، وما أحسن قول بعضهم : نسيم الريح نسيب الروح ، والرياح المعروفة أربع ، الصبا وتسمى القبول وهى تنفس عن المكروب ، والجنوب وهى تجمع السحاب والشمال وهى تفرقه ، والدبور وهى تهدم البنيان ، وتقلع الشجر ، وهى القاصف والصرصر . وكل ما فى القرآن من لفظ الريح فالمراد به الدبور ، ولازمها العقوبة . وكل ما فيه من لفظ الرياح فهى راجعة إلى الثلاثة الأول ويراد بها الرحمة . ومن الحديث « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » وقيل الرياح ثمانية : أربع فى الجهات الأربع ، وأربع تسمى النكباء لميلها ونكبها عن الجهات الأربع . والشمال من ناحية الشام ، وذلك عن يمينك إذا استقبلت قبلة العراق فهبوبها من تحت بنات نعش ، ويقابلها الجنوب والشمال باردة يابسة صافية من الكدر تشد الأعضاء ، وتسد المسام ، وتحصر الحرارة فى الباطن ، فينهضم الغذاء وتصفو بها كدرة الروح الحيوانى ، الذى فى القلب من الأبخرة الدخانية ، وتديم الصحة وتقوى حواس الدماغ وذلك إذا وصلت إلى الجسم باعتدال ، وهى قليلة الهبوب ليلا وكان الصاحب بن عباد يترنم بقول أبى فراس :

هبت لنا ريح شمالية متت إلى القلب بأسباب
أدت رسالات الهوى بيننا عرفتها من بين أصحابى

قلت والله إن الصاحب بن عباد لمعذور ، فان هذا مما يريح الجاذ ، وتجمع الشمال على شمائل ، ولذلك يحسن فيه التورية . ومنه قول الشيخ تقى الدين بن حجة

جاد النسيم على الربا بندى يديه وقال لى :
أنا ما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى

---

(١) ينسب إلى قرية نواج من مديرية الغربية بمصر . ولد ونشأ بالقاهرة وبرع فى الأدب والشعر وله عدة مؤلفات وتوفى سنة ٨٥٩ هـ .

والصبا تهب من مطلع الشمس وتسمى القبول ، ويقابلها الدبور وهي معتدلة ولا سيما إن هبت قبل طلوع الشمس في زمن الربيع ، وهي لطيفة صافية ، وتذكي الأذهان ، وتنفع الأبدان ، وتبسط الأخلاق ، لا سيما إن مرت بمروج الأزهار فانها تحمل قواها إلى القلب والدماغ . . .

١٨ – ومن تاريخ الديار بكرى حسين بن محمد المتوفى بمكة عام ٩٨٢ هـ ، المسمى « الخميس في أحوال أنفس نفيس » .

لما أخذ الخليفة المستعصم أسيراً هو وولده أحضر بين يدى هولاكو ، وأمر به هولاكو ، فأخرج من بغداد ، وأنزله بخيم صغير بظاهر بغداد هو وولده . ثم في عصر ذلك اليوم وضع الخليفة وولده في عدلين (١) وأمر التتار برفسهما إلى أن ماتا في المحرم سنة ست وخمسين وستمائة ، ثم نهبت دار الخلافة ومدينة بغداد حتى لم يبق فيها لا ماقل ولا ما جل . ثم أحرقت بغداد بعد أن قتل أكثر أهلها ، حتى قيل إن عدة من قتل في نوبة هولاكو يزيد على ألف ألف وثلاثين ألف إنسان . وانقرضت الخلافة من بغداد بقتل المستعصم وبقيت الدنيا بلا خلافة سنين ، إلى أن أقام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بعض بني العباس في الخلافة ، حسبما يأتي ذكره

وكانت خلافة المستعصم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياما ، وتقدير عمره سبع وأربعون سنة . وزالت الخلافة من بغداد . قال الشاعر :

خلت المنابر والأسرة منهم فعليهم حتى الممات سلام

أما الوزير ابن العلقمى فلم يتم له ما أراد من أن التتار يبذلون السيف في أهل السنة فجاءوا بخلاف ما أراد ، وبذلوا السيف في أهل السنة والرافضة كلهم ، وهو في منصبه مع الذل ، والهوان ، وهو يظهر قوة النفس والفرح وأنه بلغ مراده ، فلم يلبث أن أمسكه هولاكو بعد قتل المستعصم بأيام ووبخه بألفاظ شنيعة معناها : أنه لم يكن له خير في مخدومه ولا في دينه ، فكيف يكون له خير في هولاكو ؟ ثم إنه قتله شر قتلة ، في أوائل سنة سنة سبع وخمسين وستمائة

١٩ — والشيخ شهاب الدين أحمد الأبشيهى من كتابه « المستطرف من كل فن مستظرف » في علو الهمة وشرف النفس أما علو الهمة فهو أصل الرياسة ، فمن علت همته وشرفت نفسه عمارة بن حمزة ، قيل إنه دخل يوماً على المنصور وقعد في مجلسه

---

(١) العدل الجوالق (الشوال) وهو بكسر العين

فقام رجل وقال : مظلوم يا أمير المؤمنين . قال من ظلمك ؟ قال : عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي . فقال المنصور : يا عمارة قم فاقعد مع خصمك ، فقال : ما هو لي بخصم إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ، ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ، ورفعني وأقعدني أدنى منه لأجل ضيعة ! .

وتحدث السفاح هو وأم سلمة يوماً في نزاهة نفس عمارة وكبره ، فقالت له : ادع به وأنا أهب له سبحتي هذه ، فان ثمنها خمسون ألف دينار ، فان هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس . فوجه اليه الدعوة فحضر فحادثته ساعة ثم رمت اليه بالسبحة وقالت : هي من الطرف ، وهي لك فجعلها عمارة بين يديه ، ثم قام وتركها فقالت لعله نسيها . فبعثت بها اليه مع خادم ، فقال للخادم : هي لك . فرجع الخادم ، فقال : قد وهبها لي ، فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار ، واستعادتها منه .

وأهدى عبيد الله بن السرى إلى عبد الله بن طاهر لما ولي مصر مائة وصيف ، مع كل وصيف ألف دينار ، ووجه إليه بذلك ليلا ، فرده وكتب إليه لو قبلت هديتك ليلا ، لقبلتها نهارا ، « فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون» .

وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سبيت فنادت : وامحمداه وامعتصماه . فبلغه الخبر . فركب لوقته ، وتبعه الجيش . فلما فتحها قال : لبيك أيتها المنادية .

وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة (١) وهمة ، قيل له في مرضه : إن المريض يستريح إلى الأنين ، وإلى شرح ما به إلى الطبيب . فقال : أما الأنين فهو جزع وعار والله لا يسمع الله مني أنينا ، فأكون عنده جزوعا . وأما وصف ما بي إلى الطبيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي ، إن شاء أمسكها ، وإن شاء قبضها .

ومن كبر النفس ما روى عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة ، فكان يأكل الحنظل حتى قتله ، ولم يخبر أحدا بحاجته .

ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار وحمى الذمار ، وكانت العرب ترى ذلك دينا تدعوا اليه وحقا واجبا تحافظ عليه . وكان سفيان بن حرب إذا نزل به جار

---

(١) النخوة . الافتخار والتعظم ، يريد هنا : شجاعة النفس .

قال : يا هـذا إنك اخترتني جارا ، واخترت داري دارا ، فجناية يدك على دونك ، وإن جنت عليك يد فاحتكم حكم الصبي على أهله .

وكان الفرزدق يجير من عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة ، فمن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بني جعفر بن كلاب ، خافت لما هجا الفرزدق بني جعفر أن يسميها وينسبها ، فعاذت بقبر أبيه ، فلم يذكر لها اسما ولا نسبا ولكن قال :

عجوز تصلي الخمس عاذت بغالب ... فلا والذي عاذت به لا أضيرها

وقال مروان بن أبي حفصة :

هم يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهم بين السماكين منزل

أشهر الكتاب :

محيي الدين بن عبد الظاهر

٦٢٠ — ٦٩٢ھ

هو الكاتب الشاعر عبد الله بن عبد الظاهر المصرى ، كان من المتعصبين لطريقة القاضى الفاضل فى التزام السجع واتباع المحسنات البديعية ، وبخاصة التورية ، وكان رئيس ديوان الإنشاء فى زمن الملك الظاهر بيبرس ، فوضع كثيرا من اصطلاحات الإنشاء ونظم الديوان ، وبقيت نظمه واصطلاحاته معمولا بها فى مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر ، وأصبحت مصر ولاية عثمانية . وله مؤلفات ورسائل سلطانية كثيرة ، فمن مؤلفاته فى التاريخ « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » وقد استعان بها المقريزى فى تأليف خططه . ومن رسائله ما كتبه على لسان الملك المنصور قلاون يرد على صاحب اليمن عندما عزاه فى موت ابنه ، ويظهر تجلده على فقده ، وهى طويلة ، منها : « ولنا والشكر لله صبر جميل لا نأسف معه على فائت ، ولا نأسى على مفقود ، وإذا علم الله سبحانه حسن الاستنابة إلى قضائه ، والاستكانة إلى عطائه عوض كل يوم ما يقول المبشر بعهذا مولى مولود وليست الإبل بأغلظ أكباداً ممن له قلب لا يبالى بالصدمات كثرت أو قلت ، ولا بالتباريح حقرت أو جلت ، ولا بالأزمات إن هى توالت أو تولت » .

شهاب الدين الحلبي

٦٤٤ — ٧١٩

هو محمود بن سليمان ، ولد بدمشق وتوفى بها وتلقى العلم على علماء الشام ، وتخرج فى علوم العربية على ابن مالك النحوى ، وكان من نوابغ هذا العصر أدبا وكتابة وشعرا ، رحل إلى مصر واتصل بسلاطين المماليك ، وولى رياسة ديوان الإنشاء فى حكم الملك الناصر بن قلاوون . وله شعر كثير منثور فى كتب الأدب . ومن نثره فى وصف البلاغة :

البلاغة تسحر الألباب حتى تخيل العرض جوهرا ، وتحيل الهواء المدرك بالسمع لانسجامه وعذوبته فى الذوق نهرا ، لكنه سحر لم يجن قتل المسلم المتحرز

فيتأول فى حله » ، وإذا كان فى الحديث ماهو عقلة للمستوفز فهذا أنشوطة نشاط البليغ وحل عقال عقله ، ومن نثره كذلك قوله فى وصف الكتابة :

خطه شرك العقول ، وفتنة تشغل المطمئن بملاحة المرئى المكتوب عن فصاحة المقول ، ولو لم يكن البيان سحرا لما تجسدت منه فى طرسه هذه الدرر ، ولو لم يكن بعض السحر حلالا لما انجلى ظلام النفس عما يهتدى به من الأوضاع والغرر » ،

ابن فضل الله العمرى

٧٠٠ — ٧٤٨ ﻫ

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى ، من سلالة عمر بن الخطاب ، ولد بدمشق ، وارتحل إلى بلاد كثيرة فى طلب العلم ، فتلقاه بدمشق والاسكندرية والقاهرة والحجاز . وكان مشهورا بالذكاء النادر ، والحافظة القوية ، وصار بعلمه فريد عصره ، لايساويه أحد فى أدبه وترسله وتأليفه ، وكان أعلم أهل القطرين بتاريخ الملوك والعلماء والأدباء وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك النائية . وقد أودع ذلك كله كتابه « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » . وهو كتاب ضخم فى بضعة وعشرين مجلدا ، يبحث فى الأدب والتاريخ وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعى وغيرها . ومن تآليفه « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو مجموع رسائل فى فن إنشاء الدواوين وعلى نور مشكاته وضع القلقشندى كتابه «صبح الأعشى» .ومن تآليفه كتاب «فواضل السمر فى فضائل آل عمر » وله مؤلفات كثيرة فى فنون مختلفة . ومن رسائله ما كتبه على لسان سلطانه من آل قلاوون إلى نائب الشام مع طيور صيد جوارح أرسلها إليه : « صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح ، وثناء يطير إليه وكيف لا تطير قادمة بجناح ؟ وتعلمه أن مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما بقى من رسمه ، وجرت عادة صداقتنا الشريفة أن تحسب فى قسمه . وقد جهزنا له الآن منها ثلاثة طيور لايبعد عليها مطار ، ولا يوقد القرى فى غير حماليقها جذوة نار ، ولا تؤم طيرا إلا وترش الأرض بدمه فلا يلحق لها بغبار ، وهى طيور كم لها من فتك أخذ الطير من مأمنه ، وسلب ما تحلى به من رياش الريش ثم تزيا بأحسنه » . وقد سبق الكلام بتفصيل على كتابه « مسالك الأبصار » .

القلقشندى

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد القلقشندى المصرى . ولد بقلقشندة (قرية بجوار قليوب) فنسب إليها . تلقى العلم بالأزهر ، واشتهر بين أقرانه بحدة الذهن وسرعة الفهم ، وقد أحاط بكثير من علوم الأدب فى عصره ، وبرع فى الفقه والإنشاء وأيام العرب وأنسابها .

ولى ديوان الإنشاء بمصر فى عهد المماليك سنة ٧٩١ هـ . وله مؤلفات كثيرة أشهرها « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » وهو كتاب ضخم جم الفائدة ، يستفيد منه كثيراً كل من يعنى بدراسة تاريخ الأدب فى هذا العصر . ومن مؤلفاته « نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب » وكتاب « قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان » وقد ألف هذا الكتاب لأبى المعالى محمد الجهنى البارزى صاحب دواوين الإنشاء لفضله عليه ، وذكر فيه قبائل العرب التى كانت فى عصره .

ومن إنشائه ما كتبه عن الملك الناصر فرج بن برقوق إلى صاحب فاس فى وصف موقعة وهو : « وتحركنا من الديار المصرية فى جيوش لا يأخذها حصر ، ولا يلحقها هصر ولا يظن بها على كثرة الأعداد كسر . ولم نزل نحث السير ، ونسرع الحركة للقاء العدو إسراع الطير ، حتى وافينا دمشق المحروســة فنزلنا بظاهرها ، مستمطرين النصر فى أوائل حركتنا وآخرها ، وانضم إلينا من عساكر الشام وعربانها وتركمانها الزائدة على العد ما لا ينقطع له مدد ، ولا يدخل تحت حصر ولا عدد » .

ومن قوله فى خطبة كتابه صبح الأعشى : « وكانت الديار المصرية ، والمملكة اليوسفية ، أعز الله حماها وضاعف علاها ، قد تعلقت من الثريا بأقراطها ، ورجحت سائر الأقاليم بقيراطها ، بشر بفتحها الصـادق الأمين فكانت أعظم بشرى . وأخبر سيد المرسلين أن لأهلها نسبا وصهرا » .

وقد سبق تفصيل الحديث عن كتابه هذا « صبح الأعشى »

الخطابة فى هذا العصر

ضعفت الخطابة فى عصر المماليك ضعفا بينا ، بعد أن كانت قد قويت فى العصر الأيوبى بتأثير الحروب الإسلامية فى المعارك المستمرة التى كانت بين المسلمين وبين الصليبيين . .

وكانت الخطابة فى هذا العصر تحضيرا وإعدادا لا بداهة وارتجالا ، وقل من كان يخطب حتى خطبة الجمعة ارتجالا ، بل قل من كان يخطب خطبة من إنشائه ، ومن كان ذا قدرة على إنشاء الخطبة وارتجالها عرف بذلك وعد هذا من مفاخره ، فنجد ابن جماعة (٧٣٩ — ٧٧٣ هـ) مثلا يخطب الجمعة من إنشائه . ويقول فيه ابن شاكر فى كتابه فوات الوفيات » : « كان يخطب الجمعة من إنشائه » . حتى صرنا لا نرى مظهرا عربيا فى أى بلد عربى إلا خطبة الجمعة ولقد ضعفت العربية فى كل بلد تكون جمهرة الناس فيه من العرب ، فى زمن المتنبى أى فى النصف الأول من القرن الرابع كان رجل يتعصب على المتنبى ويكرهه جداً حلف لا يقيم فى بلدة يسمع فيها اسمه فغادر بغداد مبعداً ، فكان كلما مر ببلدة سمع فيها اسم المتنبى من مستشهد بحكمته أو مجادل فى شعره ، وما زال يصعد حتى وصل إلى بلاد لا يتكلم أهلها العربية بتة ، فقال هنا يطيب لى المقام حتى إذا حضر صلاة الجمعة خطب الخطيب بالعربية والتركية ، فكان فى العربية قول المتنبى :

أساميا لم تزد معرفة لكنما لذة ذكرناها

فقال الرجل أعود إلى بلادى وأكفر عن يمينى مادمت لم أجد بلداً يستغنى فيه الناس عن اسم المتنبى وشعره . فى هذا العصر لا ترى للعربية ذكراً على منابر الخطابة إلا تابعة متممة لشروط الجمعة ومتهافتة ضعيفة تكاد تموت على لسان قائلها قبل أن تصل إلى أذن سامعها ، بل إن البلاد التى عرفت العروبة ، وصار لها فى القديم صيت ذائع ، وكانت مباءة الأعلام من النحاة واللغويين ، وانتهت إلى أهلها الزعامة فى اللغة صارت على أيامنا هذه مستعجمة ، واعى مجدها العربى ، وتقوضت أعواد منابرها التى تدفقت منها سيول العربية الفصحى ، فساءت الحال فيها وصار خطيبها كبقية الخطباء جهلا باللغة ونقصا فى ملكتها ، فقد حكى ابن بطوطة الرحالة المشهور المتوفى سنة ٧٧٩ هـ أنه فى حين مروره بالبصرة حضر جمعتها ، فسمع من

الخطيب لحنا كثيراً ، فعجب من حال هذا البلد الذى انتهت إليه زعامة النحو ، وامتلأت أسواقه بالسن المقاويل ، كيف يصير أمره إلى هذا الجهل الفاضح ، والركة الشائنة .

وقد ظهرت دواوين من الخطب لخطباء من المشهورين فى هـذا العصر كالشيخ ابراهيم النحاس خطيب الجامع الأزهر المتوفى سنة ٨١٤ هـ ، وكالعلامة ابن حجر العسقلانى قاضى قضاة مصر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، وكشيخ الإسلام زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ هـ . وجميع هذه الدواوين بين أيدينامطبوعة بمصر ، وتكاد تجمع على نظام واحد، وهو أربع خطب لكل شهر من الإثنىعشر شهراً فى العام ، ثم يليها خطبتا العيدين ، وخطبة وفاء النيل ، وخطبة النكاح ، وخطبة تلقين الميت .

ومن نماذج الخطابة فى هـذا العصر هذه الخطبة الأولى لشهر جمادى الدولى من ديوان الشيخ إبراهيم بن بدوى النحاس : « أما بعد فيا عباد الله ، إلى متى ياصاح هـذا الحرص والأمل ، وقد قرب الرحيل واقترب الأجل وكأنك بالعمر وقد مضى وأنت ذاهب . ياغريق الغفلات ، وياغافلا عما هوآت ، إلى متى أنت لاه ولاعب . يامولعاً بلذاتك ، ومصرا على زلاتك ، أما آن أنك تائب . يامقبلا على شهواتك ؛ وياغافلا عن مماتك ، إن الموت مراقب لك وطالب . يا ناسياً لذنوبك ، وياغافلا عن عيوبك ، ستتضح لك والله العواقب . يامرائياً فى العمل ، ومتستراً بالحيل ، أما علمت أن الرقيب عليك مراقب . أما علمت أن الناقد بصير ، وأنك محاسب على التقصير ، وأن الله هو المحاسب . فأفق رحمك الله عما أنت فيه من الغرور ، واستعد لما أنت لاقيه يوم البعث والنشور ، وتب عما أنت كاسب . فوالله لولا رحمته سبقت الغضب ، وفيضته لا يخص من طلب ، لصب على العصاة المصائب . فتداركوا رحمكم الله أموركم ، والزموا التقوى حيث كنتم ، فالله سبحانه مطلع عليكم ، وعالم بما أخفيتم وما أعلنتم ، لا إله الا هو رب السموات والأرض وما بينهما رب المشارق والمغارب » .

وكذلك من خطب العلامة ابن حجر العسقلانى قاضى قضاة مصر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ خطبة للنيل المبارك : « الحمد لله العظيم القادر الحسيب الجليل ، الذى أسبغ على عباده فضله وكرمه الجزيل ، الحكيم ومن حكمته إجراء هـذا النيل ، أنزله من الجنة

بقدرته ، وأرسله لنفع العباد كما أراد ، فليس له شبيه ولا مثيل ، أحمده حمداً يبرى السقام ويشفى العليل . وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق الوكيل ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الممدوح فى التوراة والإنجيل والتنزيل ، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما استبان السبيل ، واتضح الدليل : أيها الناس ، إن لله عليكم نعماً لا تعرفون لها قدراً ، ولا تطيقون لمكافأتها حمداً ولا شكراً ، أسبغ نعمه الظاهرة والباطنة عليكم تترى ، واطلع على أعمالكم فأسبل حلمه عذراً ، وصفحاً وستراً ، فلو احتبس هذا النيل عن وفائه ولو شيئاً نزراً ، لما استطعتم عنه صبرا ، فتأملوا كيف ملأ الأودية مدا وجزراً ، وعم البلاد بطناً وظهراً . فسبحان من أنزله من بحر عظمته الى سماء علكته ، بكيل مكيول ، ووزن موزون ، ويعلم عدة قطراته ، وعلى كل قطرة ملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ينزله من جبال شواهق مرتفعة ، فتقذفه الى أرض منخفضة وأودية منقطعة ، لا سائق من الآدميين يسوقه ، ولا حارس له فى الليل والنهار يقلقه أو يعوقه ، الى أن يأتى أرض مصر ينفع من فيها ، فترى خرير تياره ينادى فى نواحيها : أفرأيتم الماء الذى تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ .

الشعر والشعراء فى عصر المماليك

صور من شعر المماليك

١ — من شعر هذا العصر قول سراج الدين الوراق المصرى الكاتب الشاعر (٦١٥ - ٦٩٥ هـ) فى شكر الله :

إلهى لقد جاوزت سبعين حجة ... فشكراً لنعماك التى ليس تكفر
وعمرت فى الإسلام فازددت بهجة ... ونوراً ، لذا قالوا : السراج المعمر (١)
وعمم نور الشيب رأسى فسرنى ... وما ساءنى أن السراج منور

وقال فى لوم النفس على المعصية :

ياخجلتى وصحائفى سود غدت ... وصحائف الأبرار فى إشراق
وموبخ لى فى القيامة قال لى : ... أكذا تكون صحائف الوراق ؟ (٢)

وقال فى الترفع :

أصون أديم وجهى عن أناس ... لقاء الموت عندهم الأديب (٣)
ورب الشعر عندهم بغيض ... ولو وافى به لهم حبيب (٤)

وقال فى الحنين إلى الأحباب :

وقفت بأطلال الأحبة سائلا ... ودمعى يسق ثم عهداً ومعهدا (٥)
ومن عجب أنى أروى ديارهم ... وحظى منها حين أسألها الصدى (٦)

٢ — وقال نصير الدين الحمامى المصرى المتوفى سنة ٧١٢ هـ .

رأيت شخصاً آكلا كرشة ... وهو أخو ذوق ، وفيه فطن (٧)
وقال : مازلت محباً لها ... قلت : من الإيمان حب الوطن !

---

(١) البهجة : الحسن . (٢) الوراق : مورق الكتب . وهنا تورية ظاهرة .
(٣) الأديم : البشرة .
(٤) حبيب : اسم أبى تمام الشاعر المشهور ، والحبيب : المحبوب ، فنى الكلمة تورية
(٥) العهد والمعهد : المنزل الذى لايزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه .
(٦) الصدى : الذى يجيبك بمثل صوتك فى الجبال وغيرها ، والصدى أيضا : العطش
(٧) الفطن : الفطنة .

وقال فى داره :

ودار خراب بها قد نزلت   ولكن نزلت إلى السابعه (١)
طريق من الطرق مسلوكة   محجتها للورى شاسعه (٢)
فلا فرق مابين أنى أكون   بها ، أو أكون على القارعة (٣)
تساورها هفوات النسيم   فتصغى بلا أذن سامعه (٤)
وأخشى بها أن أقيم الصلاة   فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ماقرأت : « إذا زلزلت »   خشيت بأن تقرأ : « الواقعة »

٣ — وقال عمر بن الوردى(٥) فى مدح شهاب الدين بن فضل الله :

أأقتل بين جدك والمزاح   بنبل جفونك المرضى الصحاح(٦)
يكدرنى نواك ، وأنت صاف   ويسكرنى هواك ، وأنت صاحى
وأبكى للغرام ، وأنت لاه   وأعذر فى الأوام ، وأنت لاحى (٧)
فما لسراج دمعى من إسار   وما لإسار وجدى من سراح (٨)
وما لصباح وجهك من مساء   وما لمساء شعرك من صباح
رضاك إلى رضابك لى دليل   أليس كلاهما روحى وراحى ؟ (٩)
ولى لحظ يطير إليك شوقا   فها قد طار مبلول الجناح !

---

(١) نزلت (الأولى) : حللت . ونزلت (الثانية): هويت وسقطت ، والسابعة: أى الأرض السابعة .

(٢) المحجة : جادة الطريق . شاسعة : بعيدة .

(٣) قارعة الطريق : أعلاه . وقارعة الدار : ساحتها ، والمراد هنا قارعة الطريق

(٤) تساورها : تواثبها .

(٥) ولد بالمعرة سنة ٦٨٩ هـ ومات بحلب سنة ٧٤٩ هـ . وكان شاعرا نحويا فقيها مؤرخا قاضيا (١٩٥ و ١٩٦ جـ ٣ الدرر الكامنة) .

(٦) المرضى : الفواتر الناعسات والصحاح: الجميلات ليس فيها مرض . وبين اللفظين : طباق .

(٧) الأوام : العطش ودوار الرأس .

(٨) أى فما لدمعى ما يوقف سيله ، وليس ما يخلصنى من الوجد .

(٩) الرضاب : الريق . والراح : الخمر .

وروجهك فوق قدك بمرفاق ... بأثمار البدور من الرماح(١)
لقد أصبحت من سرى ودمعى ... لقى بين استتار وافتضاح (٢)
يحق لمن لحانى فيك ذمى ... وحق لكاتب السر امتداحى (٣)
ولست سوى ابن فضل الله أعنى ... شهاب الدين ذى الغرر الملاح
له قلم بفضل الله يحيا ... لنا يحيى به بعد اقتراح
فما أدرى أنقشاً فوق طرس ... يطرز أم مساء فى صباح ؟
أشد من القضاء مضاء أمر ... وأجرى فى الخطوب من الرياح
تخذها بنت ليلتها عروساً ... تزف اليك كالخود الرداح(٤)
وما أنا شاعر حاشا علومى ... ولست أرى التكسب بامتداح
فمثلى من أنعم الرحمن مال ... يصون عن احتياج واجتياح
ولم أقصد بمدحك غير رد ... أروض به الزمان عن الجماح

وكتب إلى القاضى جمال الدين يوسف معاتباً له على قصد الرحلة :

علام أردت تهجرنى علاما ... وتوقظ بالنوى إبلا نياما ؟
لعلك ياجليد القلب تبغى ... رحيلا يورث الدمع انسجاما(٥)
فهل لاقيت فى حلب هموماً ... فتزمع عن نواحيها اهتماما ؟
فلا تأخذ دمشق لها بديلا ... أغيظا ذاك منك أم انتقاما ؟
وإن تك بالتفرق لا تبالى ... فهذا يمنع العين المناما
وإن ترحل لنيل غنى فسهل ... غناك هنا إذا أمسكت عاما
وإن ترحل تريد تمام جاه ... فمه ، إنى أحذرك التماما
وإن ترحل رجاء لاشتهار ... فكم من شهرة توهى العظاما
أقم فى الأهل فى رغد وطيب ... بأمرى ، واغتنم ذاك اغتناما

٤ — وقال البهاء زهير يتغنى بأرض مصر ويتشوق اليها :

سقى وادياً بين العريش وبرقة ... من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى ... هنالك أوطاناً إذا قيل أوطان

---

(١) الرماح : القدود (٢) اللقى : المطروح من الشىء (٣) لحانى : عابنى ولامنى

(٤) الرداح : البدينة . والخود : الفتاة الغضة .

(٥) القلب الجليد : الغليظ الشديد . وانسجام الدمع : الصبابة .

بلاد متى ما جئتها جئت جنة   لعينك منها كل ماشئت رضوان
تمثل لى الأشواق أن ترابها   وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فيا ساكنى مصر ترى هل علمتم   بأنى مالى عنكم الدهر سلوان
وما فى فؤادى موضع لسواكم   ومن أين فيه ؟ وهو بالشوق ملآن
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا   فتهدأ أحشاء وترقأ أجفان

٥ — وقال « نصير الدين الحامى » يصف داره الحقيرة :

ودار خراب بها قد نزلت   ولكن نزلت إلى السابعه
طريق من الطرق مسلوكة   محجتها للورى شاسعه
فلا فرق ما بين أنى أكون   بها ، أو أكون على القارعه
تساورها هفوات النسيم   فتصغى بلا أذن سامعه
وأخشى بها أن أقيم الصلاة   فتسجد حيطانها الراكعه
إذا ماقرأت : « إذا زلزلت»   خشيت بأن تقرأ « الواقعه »

٦ — وقال ابن نباتة يمدح السلطان الأفضل ويعزيه فى والده المؤيد صاحب حماه :

هناء محا ذاك العزاء المقدما   فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع   شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
تفيض مجارى الدمع والبشر واضح   كوابل غيث فى ضحى الشمس قدهمى
سقى الغيث عنا تربة الملك الذى   عهدنا سجاياه أبر وأكرما
ودامت يد النعمى على الملك الذى   تدانت له الدنيا وعز به الحمى
مليكان هذا قد هوى لضريحه   برغمى وهذا للأسرة قد سما
ودوحة ملك شاذوى تكافأت   فغصن ذوى منها وآخر قد نما
فقدنا لأعناق البرية مالكا   وشمنا لأنواع الجميل متمما

ومنها :

وأستوضح العلياء فيك فراسة   بملكك لا أعطى عليها منجما
فعش للورى واسلم سعيداً مهنأ   لحظ الورى فى أن تعيش تسلما
وسر فى أمان الله قدماً بفضله   أسر الورى مسرى وأيمن مقدما
أعدت زمان البشر والجود والثنا   إلى أن ملأت العين والأذن والفما

وقال يمدح علاء الدين بن فضل الله :

عطفت كأمثال القسى حواجبا ... فرمت غداة البين قلباً واجبا (١)
بلواحن يرفعن جفنا كاسرا ... فتثير فى الأحشاء هما ناصبا
ومعاطف كالماء تحت ذوائب ... فاعجب لهن جوامداً وذوائبا
سود الغدائر قد تعقرب بعضها ... ومن الأقارب ما يكون عقاربا
من كل ماردة الهوى مصرية ... لم تخش من شهب الدموع ثواقبا
لم يكف أن شرعت رماح قدودها ... حتى عقدن على الرماح عصائبا
يا أخت أقار السماء محاسنا ... والشمس نوراً والنجوم مناسبا
إن كابدت كبدى عليك مهالكا ... فلقد فتحت من الدموع مطالبا

ومنها :

آها لمصر وأين مصر وكيف لى ... بديار مصر مراتعاً وملاعباً
حيث الشبيبة والحبيبة والوفا ... فى الأقربين مشارباً وأصاحباً
والطرف يركع فى مشاهد أوجه ... عقدت بها طرر الشعور محارباً
والدهر سلم كيفما حاولته ... لا مثل دهرى فى دمشق محارباً
هيهات يقربنى الزمان أذى وقد ... بلغت شكايتى العلاء الصاحبا
أعلى الورى همماوأعدل سيرة ... وأعز منتصراً وأمنع جانبا
تخذ المكارم مذهبا لما رأى ... للناس فيما يعشقون مذاهبا

٧ — وقال صفى الدين الحلى يمدح السلطان الناصر محمدبن قلاوون عندقدومه من الحجاز . وقد اقترح عليه أرباب الدولة معارضة قصيدة المتنبي التى مطلعها :

بأبى الشموس الجانحات غواربا ، فقال :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا ... فجعلن حبات القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة ... غادرن فود الليل منها شائبا
بيض دعاهن الغبى كواعبا ... ولو استبان الرشد قال كواكبا
وربائب فاذا رأيت نفارها ... من بسط أنسك خلتهن رباربا (٢)
سفهن رأى المانوية عندما ... أسبلن من ظلم الشعور غياهبا (٣)

---

(١) وجب القلب : خفق (٢) الربرب : القطيع من بقر الوحش .
(٣) المانوية : طائفة تقول : الشر من الليل والخير من النهار .

وسفرن لى فرأين شخصا حاضراً ‏ شدهت بصيرته وقلباً غائبا (١)
أشرقن فى حلل كأن وميضها ‏ شفق تدرعه الشموس جلاببا
وغربن فى كلل فقلت لصاحبى ‏ بأبى الشموس الجانحات غواربا

ومنها :

ترجى مواهبه ويرهب بطشه ‏ مثل الزمان مسالما ومحاربا
فاذا سطا ملأ القلوب مهابة ‏ وإذا سخا ملأ العيون مواهبا
كالليث يحمى غابه بزئيره ‏ طوراً وينشب فى القنيص مخالباً
كالسيف يبدى للنواظر منظراً ‏ طلقا ويمضى فى الهياج مضاربا
كالسيل يحمد منه عذبا واصلا ‏ ويعده قوم عذاباً واصبا (٢)
كالبحر يهدى للنفوس نفائسا ‏ منه ويبدى للعيون عجائبا
فاذا نظرت ندى يديه ورأيه ‏ لم تلف إلا صائبا أو صائبا
أبقى قلاوون الفخار لولده ‏ إرثا وفازوا بالثناء مكاسبا

ومنها :

صاف الفرند حكى صباحا جامداً ‏ أبدى النجيع به شعاعا ذائبا (٣)
وكتيبة تذر الصهيل رواعدا ‏ والبيض برقا والعجاج سحائبا
إن عرس الناس النضار بحاجب ‏ كان السماح لمين مالك حاجبا
أوليتنى قبل المديح عناية ‏ وملأت عينى هيبة ومواهبا

وقال يمدحه عند كسر الخليج :

خلع الربيع على غصون البان ‏ حللا فواضلها على الكثبان
ونمت فروع الدوح حتى صافحت ‏ كفل الكثيب ذوائب الأغصان (٤)
وتتوجت هام الغصون وضرجت ‏ خد الرياض شقائق النعمان
وتنوعت بسط الرياض فزهرها ‏ متباين الأشكال والألوان
من أبيض يقق وأصفر فاقع ‏ أو أزرق صاف وأحمر قانى (٥)
والظل يسرق فى الخمائل خطوه ‏ والغصن يخطر خطرة النشوان
وكأنما الأغصان سوق رواقص ‏ قد قيدت بسلاسل الريحان

---

(١) شده : دهش . (٢) الواصب : الدائم . (٣) النجيع : الدم .
(٤) الكفل : الردف والعجز . (٥) يقق : شديد البياض .

والشمس تنظر من خلال فروعها   نحو الحدائق نظرة الغيران
والطلع فى خلل الكمام كأنه   حلل تفتق عن نحور غوانى
والأرض تعجب كيف تضحك والحيا   يبكى بدمع دائم الهملان
حتى إذا افترت مباسم ثغرها   وبكى السحاب بمدمع هتان
ظلت حدائقه تعاقب جونه   فأجاب معتذراً بغير لسان

ومنها :

حتى إذا استعر الورى وتتبعت   بيض الصفاح مكامن الأظعان (١)
فعلت دروعك عندها بسيوفهم   فعل السراب بمهجة الظمآن
وبرزت تلفظك الصفوف إليهم   لفظ الزناد سواطع النيران
بأقب يمصى الكف ثم يطيعه   فتراه بين تسرع وتوان (٢)
قد أكسبته رياضة سواسة   فيكاد تركضه بغير عنان (٣)
كالصقر فى الطيران والطاووس فى الـ   ـخطران والخطاف فى الروغان
لو قيل عج نحو السماء مبادرا   وطئت يداه دوابر الدبران (٤)
أو قيل جز فوق الصراط مسارعا   لمشى عليه مشية السرطان
وفللت حد جموعهم بصوارم   ككراك نافرة عن الأجفان
ضلت فظلت فى مقارعة العدا   أن الغمود معاقد التيجان
صيرت هامات الكماة صوامعا   وكواسر العقبان كالرهبان
يا ذا الذى خطب المديح سماحه   فنداه قبل نداى قبل لبانى

ومنها :

أقصيتنى بالجود ثم دعوتنى   فنداك أبعدنى وإن أدنانى
ضاعفت برك لى ولو لم تولنى   إلا القبول عطية لكفانى
فنأيت عنك ولست أول حازم   خاف النزول بمهبط الطوفان
فلئن رحلت فقد تركت بدائعاً   غصبت فصول الحكم من لقمان
وخريدة هى فى الجمال فريدة   فهى الغريبة وهى فى الأوطان
لا عيب فيها وهو شاهد حسنها   إلا تبرجها بكل مكان
قلت وإن جلت صنائع لفظها   بكم وإن نطقت بسحر بيان

---

(١) الصفاح : السيوف .   (٢) أقب : ضامر البطن .
(٣) الركض : الدفع والاستحثاث .   (٤) الدبران : منزل للقمر .

لجميل صنعكم أجل صنائعا ... وبديع فضلكم أدق معان

ومن بديعتيه فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم ... واقر السلام على عرب بذى سلم (١)
فقد ضمنت وجود الدمع من عدم ... لهم ولم أستطع مع ذاك منع دمى
أبيت والدمع هام هامل سرب ... والجسم فى إضم لحم على وضم

ومنها :

وكم بذلت طريفى والتليد لكم ... طوعا وأرضيت عنكم كل مختصم
من كان يعلم أن الشهد راحته ... فلا يخاف للذع النحل من ألم
خلت الفضائل بين الناس ترفعنى ... بالابتداء فكانت أحرف القسم

وله قصائد تسمى الأرتقيات فى مدح الملك المنصور أبى الفتح بن أرتق ماردين وعددها تسع وعشرون قصيدة على أحرف الهجاء ، التزم فى كل قصيدة حرفا فى أول البيت وفى آخره . ومنها :

أبت الوصال مخافة الرقباء ... وأتتك تحت مدارع الظلماء
أصفتك من بعد الصدود مودة ... وكذا الدواء يكون بعد الداء
أحيت بزورتها النفوس وطالما ... ضنت بها فقضت على الأحياء

٨ — وقال الشاب الظريف :

صدودك هل له أمل قريب ... ووصلك هل يكون ولا رقيب
قضاة الحسن ما صنعى بطرف ... تمنى مثله الرشأ الربيب
رمى فأصاب قلبى باجتهاد ... صدقتم كل مجتهد مصيب
بأى حشاشة وبأى طرف ... أحاول فى الهوى عيشاً يطيب (٢)
وهذى فيك ليس لها نصير ... وهذا منك ليس له نصيب
وفى تلك الهوادج ظاعنات ... سرين وكل ذى وجه حبيب
إذا أسفرن فانكسرت عيون ... لهن فتكن فانكسرت قلوب
فيا تلك الذوائب هل صباح ... فلى فى ليلكن أسى مذيب

---

(١) سلع . جبل فى المدينة . (٢) الحشاشة : بقية الروح .

ويا تلك اللحاظ أرى عجيبا   سهاما كلما انكسرت تصيب
ويا تلك المعاطف خبرينا   متى يتعطف الغصن الرطيب

وقال :

لا تخف ما فعلت بك الأشواق   واشرح هواك فكلنا مشتاق
فعسى يعينك من شكوت له الهوى   في حمله فالعاشقون رفاق
لا تجزعن فلست أول مغرم   فتكت به الوجنات والأحداق
واصبر على هجر الحبيب فربما   عاد الوصال وللهوى أخلاق
كم ليلة أسهرت أحداقي بها   وجدا وللأفكار بي إحداق
يا رب قد بعد الذين أحبهم   عني وقد ألف الفراق رفاق
واسود حظي عندهم لما سرى   فيه بنار صبابتي إحراق
عرب رأيت أصح ميثاق لهم   ألا يصح لديهم ميثاق

وقال من قصيدة يمدح بها ابن عبد الظاهر من رؤساء ديوان الإنشاء في دولة المماليك :

ومعشر لم تزل للحرب بيضهم   حمر الخدود وما من شأنها الخجل (١)
إذا انتضوها بروقا صيرت سحباً   يسيل من عارضيها عارض هطل (٢)
يثني حديث الوغى أعطافهم طربا   كأن ذكر المنايا بينهم غزل
أضحت بداء لعقد الجود واسطة   فليس يدري لجود بعدها عطل
يجود حتى تمل الناس أنعمه   وليس يدركه من بذلها ملل
صادت وسارت بها الأفواه معلنة   فقد غدت مثلا يغدو بها المثل

٩ — وقال البوصيري يمدح النبي صلى الله عليه وسلم في قصيدته المسماة بالبردة :

أمن تذكر جيران بذي سلم   مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم (٣)
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة   وأومض البرق في الظلماء من إضم (٤)
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا   وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أيحسب الصب أن الحب منكتم   ما بين منسجم منه ومضطرم (٥)

---

(١) البيض : السيوف   (٢) العارض : السحاب ويريد الدماء .
(٣) ذو سلم : موضع بين مكة والمدينة .
(٤) كاظمة : اسم طريق إلى مكة ، وإضم : واد يبتدىء من غربي المدينة .
(٥) منسجم هاطل منحدر .

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل ... ولا أرقت لذكر البان والعلم (١)
فكيف تنكر حبا بعد ما شهدت ... به عليك عدول الدمع والسقم
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى ... مثل البهار على خديك والعنم (٢)

ومنها :

أكرم بخير نبي زانه خلق ... بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر فى ترف والبدر فى شرف ... والبحر فى كرم والدهر فى همم (٣)
لأنه وهو فرد من جلالته ... فى عسكر حين تلقاه وفى حشم

ومنها فى وصف القرآن :

آيات حق من الرحمن محدثة ... قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهى تخبرنا ... عن المعاد وعن عاد وعن إرم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيين إذ جاءت ولم تدم
ردت بلاغتها دعوى معارضها ... رد الغيور يد الجانى عن الحرم
لها معان كموج البحر فى مدد ... وفوق جوهره فى الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها ... ولا تسام على الإكثار بالسأم (٤)

وقال من قصيدته الهمزية فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... ياسماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد حا ... ل سنى منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصـ ... ـدر إلا عن ضوئك الأضواء

ومنها :

سيد ضحكه التبسم والمشـ ... ـى الهوينى ونومه الإغفاء
ما سوى خلقه النسيم ولا غيـ ... ـر محياه الروضة الغناء
رحمة كله وحزم وعزم ... ووقار وعصمة وحياء
لا تحل البأساء منه عرا الصبـ ... ـر ولا تستخفه السراء

---

(١) البان : شجر . والعلم : اسم جبل والمراد بهما هنا موضعان بالحجاز .
(٢) البهار : ورد أصفر . والعنم : ورد أحمر . (٣) الترف : النضارة .
(٤) تسام : توصف .

كرمت نفسه فما يخطر السو ء على قلبه ولا الفحشاء
عظمت نعمة الإله عليه فاستقلت لذكره العظماء (١)
جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبه الإغضاء
وسع العالمين علما وحلما فهو بحر لم تعيه الأعباء
شمس فضل تحقق الظن فيه إنه الشمس رفعة والضياء

١٠ — وقال صلاح الدين الصفدى من قصيدة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم يعارض بها لامية كعب بن زهير :

سلوا الدموع فإن الصب مشغول ولا تملوا ففى إملائها طول
واستخبروا صادحات الأيك عن شجنى
هل فى الغرام الذى تبديه تبديل
وهل لما ضمت الأحشاء بعدكم من الجوى عند ما تحويه تحويل
أحبتى لا وعيش مرلى بكم وربع لهوى باللذات مأهول
ما كان لى مذ عرفت الوجد قط ولا يكون فى غيركم قصد ولا سول

١١ — وقال التلعفرى :

حتام أرفل فى هواك وتغفل وعلام أهزل فى هواك وتهزل (٢)
يا مضرما فى مهجتى بصدوده حرقا يكاد لهن يذبل يذبل (٣)
القلب ذل عليك إنك فى الدجى قمر السماء لأنه لك منزل
هب أن خدك قد أصيب بعارض ما بال صدغك راح وهو مسلسل
قسما بحاجبك الذى لم ينعقد إلا أرانى السبى وهو محلل
وبماء ثغرك من سلافة ريقه عذبت فقيل هى الرحيق السلسل
حزنى وحسنك إن لغا من لامنى وتجوت منه مجمل ومفصل (٤)
لو كنت فى شرح المحبة عادلا يا ظالمى ما كنت عنى تعدل
ألحى عليك ولو درى بصبابتى لأراحنى من لومه من يعذل (٥)

---

(١) استقلت : أى عدوه قليلا ، والضمير فى لذكره يعود على المفعول به المحذوف أى استقلت جميع ما أنعم الله به عليهم .
(٢) أهزل : أضعف . وتهزل من الهزل وهو نقيض الجد .
(٣) يذبل : يذبل الأولى فعل مضارع والثانية اسم جبل .
(٤) لغا : تكلم .
(٥) ألحى : ألام

أو مادريت بأن دمعى معرب   عن سر ما أخفيه وهو المهمل
يا آمرى بسلوه ليغرنى   إن السلو كما تقول الأجمل
لكن بغير خلاص قلب متيم   تركته أيدى الهجر وهو مبلبل
هيهات كلا لا حياة لمن غدا   من جسمه فى كل عضو مقتل

وقال :

لو رعيتم للعاشقين ذماما   لبعثتم قبل الخيال المناما
بنتم فانثنيت إلفا لورق   كلما سجعت أهيج غراما
ورثيتم لمن غدا فى هواكم   واله القلب مغرما مستهاما
كان ظنى أن الحمائم تشفى   فسقانى نوح الحمام الحماما
لا وأيام قربكم مانهانى   عنكم عاذل يطيل الملاما
كلما قال دعهم قلت دعنى   لاشفى الله منهم لى سقاما
يانسيم الصبا لعلك تقرى   لى على بانة الكثيب السلاما
حبذا أنت من رسول كريم   لشوق أبى الهوى أن يناما
هات بالله لاعدمت رسولا   فض عن ذلك الحديث ختاما
وأعده مكرراً لترانى   ثملا قد شربت منه مداما
أنت لاشك ناصح لى ولكن   قد بقى إن سمعت هذا الكلاما
وإذا عدت قل لبردك أن يحـ   ـمل فيه من طيب نشر الخزامى

١٢ — وقال ابن الوردى :

مربع يخلو ودمع يكف   وجوى يحلو وقلب يرجف
وغرام كلما قلت انقضى   حكمه زاد الأسى والأسف
وصبابات مضافات إلى   حر قلبى وهى لاتنصرف
ياحداة العيس هذا منزل   حق لى أنى عليه أقف
كم بدا لى فيه بدر طالع   وتثنى فيه غصن أهيف
مر لى فيه الزمان آهلا   ثم أضحى وهو قاع صفصف
هل خليل بالبكا لى مسعد   هل صديق يرتجى أو يؤلف

ومنها :

رب عين تمنى رؤيتى   وذكى بحياتى يحلف
أنا فى حلق حسودى غصة   وبه منى أذى لايوصف

أسفى والله من قول أنا   كلة ، ذو العقل منها يأنف
لكن الحاسد قد كلفنى   ذكر شيء تركه لى شرف

١٣ — وقال سراج الدين الوراق :

شمت برقا من ثغرها الوضاح   والدجى سيره مهيض الجناح
فتمارى شكى به ويقينى   هل تجلى الصباح قبل الصباح
فأجابت متى تبسم صبح   عن حباب أو لؤلؤ أو أقاح (١)
سل رحيق المسكوب تسأل خبيراً   باغتباق من خمرة واصطباح (٢)
قلت مالى والسكارى فقالت   أنت أيضاً من الهوى غير صاح
حجة من مليحة قطعتنى   هكذا كل حجة للملاح
لا ولحظ كفترة النرجس الغـ   ـض وخد كحمرة التفاح (٣)
ما تيقنت بل ظننت وما فى الظـ   ـن ياهذه كبير جناح
وكثيراً شبهت بالبدر والشمـ   ـس وساعت فارجعى بسماح

١٤ — وقال القاضى فخر الدين عبد الوهاب المصرى من شعراء القرن الثامن الهجرى :

أمبانى الأهرام كم من واعظ   صدع القلوب ولم يفه بلسانه
أذكرتنى قولا تقادم عهده   أين الذى الهرمان من بنيانه
هل عابد قد خصها بعبادة   فكأنما الأهرام من أوثانه ؟
أو قائل يقضى برجعة نفسه   من بعد فرقتها إلى جثمانه
فاختارها لكنوزه ولجسمه   قبراً ليأمن من أذى طوفانه ؟
أو أنهم للسائرات مراصد   يختار راصدها أعز مكانه
أو أنهم نقشوا على حيطانها   علما يحار الفكر فى تبيانه ؟
لو أن كسرى جالس فى سفحها   لأحل مجلسه على إيوانه
بقيت على حر الزمان وبرده   مددا ولم تأسف على حدثانه

١٥ — وقال بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى فى الصبابة والتحزن :

وتنبهت ذات الجناح بسحرة   بالواديين فنبهت أشواق (٤)

---

(١) الحباب : الفقاقيع . الأقحوان : نبات له زهر أبيض . (٢) الاغتباق : الشرب ليلا ، والاصطباح : الشرب صباحاً . (٣) الفترة : الانكسار والضعف .
(٤) ذات الجناح : الحامة والسحرة : قبيل الفجر .

ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن ... يعقوب والألحان عن إسحاق (١)
قامت تطارحني الغرام جهالة ... من دون صحبي بالحمى ورفاق
أنى تباريني جوى وصبابة ... وكآبة وأسى وفيض مآق
وأنا الذي أملي الجوى من خاطري ... وهي التي تملي من الأوراق (٢)
وتتوجت هام الغصون، وضرجت ... خد الرياض شقائق النعمان

وقال صفي الدين

وتنوعت بسط الرياض . فزهرها ... متباين الأشكال والألوان :
من أبيض يقق ، وأصفر فاقع ، ... أو أزرق صاف ، وأحمر قاني
والظل يسرق في الخمائل خطوه ... والغصن يخطر خطرة النشوان (٣)
وكأنما الأغصان سوق رواقص ... قد قيدت بسلاسل الريحان (٤)
والشمس تنظر من خلال فروعها ... نحو الحدائق نظرة الغيران (٥)
والطلع في خلل الكمام كأنه ... حلل تفتق عن نحور غواني (٦)
والأرض تعجب كيف تضحك، والحيا ... يبكي بدمع دائم الهملان (٧)
فاصرف همومك بالربيع وفصله ، ... إن الربيع هو الشباب الثاني
أنى ؟ وقد صفت المياه وزخرفت ... جنات مصر ، وأشرق الهرمان
واخضر واديها ، وحدق زهره ... والنيل فيه ككوثر بجنان
وبه الجواري المنشآت ، كأنها ... عند المسير تهم بالطيران
والماء يسرع في التدفق كلما ... عجلت عليه يد النسيم الواني (٨)

---

(١) الورقاء : الحمامة . يعقوب . أبو يوسف صاحب القصة المذكورة في القرآن الكريم عليهما السلام ، وإسحاق أبو يعقوب عليه السلام وإسحاق بن ابراهيم ، وهو المراد. (٢) الأوراق أوراق الأشجار التي تعلوها الحمامة وفي الكلمة تورية واضحة

(٣) الخمائل جمع خميلة ، وهي رملة تنبت الشجر . يخطر . يتمايل . النشوان السكران . (٤) سوق رواقص مفرد السوق. ساق ، وهي . ما بين الركبة والقدم

(٥) الغيران: شديد الغيرة. (٦) الطلع: طلع النخلة والخلل بفتحتين . الفرجة بين الشيئين والجمع خلال ، والكمام وعاء الطلع . الغواني جمع غانية ، وهي التي غنيت بحسنها عن الحلي . (٧) الحيا. المطر . والهملان . الجريان .(٨) الواني :الضعيف.

حتى إذا كسر الخليج وقسمت   أمـــواه لجته على الخلجان
ساوى البلاد كما تساوى فى النـدى   بين الأنام مواهب السـلطان
ملك إذا اكتحل الملوك بنوره   خروا لهيبته إلى الأذقان (١)
قد عز دين محمـد بسميه   وسما بنصرته على الأديان
شاهدته فشهدت لقمان الحجا   ونظرت كسرى العدل فى الإيوان (٢)
ورأيت منه سماحة وفصاحة   أعدى بفيضهما يدى ولسانى (٣)

وقال يهنىء المؤيد بالقدوم من الصيد :

مرحبا بالحيا لكل جديب   لا عدمنا نواله وظلاله (٤)
ملك الجود والثنا والمعالى   والسجيات كلها والأصاله
رقت حسنة الرياض فخلنا   أن روضا قد استعار خلاله
وابتغى الأفق للعلا فحسبنا   أنه ينعل الجواد هلاله (٥)
جاء من صيده السعيد كبدر   ما رأى الطرف فى السناء مثاله (٦)
كم غزال رمى ، فلو أمن الشمـ   ـس من الخوف ماتسمت غزاله (٧)
ولعمرى لو استجار به الوحـ   ـش ثنى – بعدما استقلت – نباله (٨)
أيد الله ملكه ووقاه   وحمى سربه وصان جلاله (٩)

١٦ — وقال على بن محمود المبارك يذم دار سكناه :

دار سكنت بها أقل صفاتها   أن تكثر الحشرات فى جنباتها
الخير عنها نازح متباعد   والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته   كم أعدم الأجفان طيب سباتها

---

(١) الأذقان : مفرده ذقن ، وهى فى الإنسان مجمع لحييه .
(٢) الحجا : العقل ، يريد لقمان الحكيم .
(٣) أعدى : من العدوى ، يريد أكسب يده سماحة ولسانه فصاحة مثل سماحة الملك الممدوح وفصاحته . (٤) الحيا : المطر . النوال : العطاء .
(٥) ينعل الجواد هلاله : يجعل الهلال نعلا للجواد . (٦) السناء : الرفعة .
(٧) الغزالة : اسم من أسماء الشمس ، والمعنى أن الملك كلف بصيد الغزلان ، فلو أراد ألا يجعل الشمس مما يصطاد ، لما كان من أسمائها : الغزالة .
(٨) ثنى : أرجع . واستقلت : يريد فارقت القوس (٩) حمى الله سربه : حفظ نفسه

وتبيت تسعدها براغيث متى ... غنت لها رقصت على نغماتها(١)
رقص بتنغيص ولكن قافه ... قد قدمت فيه على أخواتها
وبها ذباب كالضباب يسد عين ... الشمس ما طربي سوى غناتها
أين الصوارم والقنا من فتكها ... فينا وأين الأسد من وثباتها ؟
وبها خفافيش تطير نهارها ... مع ليلها ليست على عاداتها
شوكاتها فاقت على سمر القنا ... فاعجب لشدة فتكها وثباتها
وبها من الجرذان ما قد قصرت ... عنه العتاق الجرد في حملاتها (٢)
ولها زنابير تظن عقاربا ... لا برء للمسموم من لدغاتها
ولها عقارب كالأقارب رتع ... فينا حمانا الله لدغ حماتها (٣)

١٧ — وقال ابن سعيد المغربي (٤) يصف الجيزة :

إن للجيزة في قلبي هوى ... لم يكن عندي للوجه الجميل
يرقص الماء بها من طرب ... ويميل الغصن للظل الظليل
وتود الشمس لو باتت بها ... فلذا تصفر في وقت الأصيل

١٨ — وقال محمد بن سليم المصري(٥) وقد كتب إلى السراج الوراق في حمار له سقط في يوم فات :

يفديك جحشك إذ مضى متردياً ... وبتالد يفدى الأديب وطارف
عدم الشعير فلم يجده ولا رأى ... تبناً وراح من الظما كالتالف
ورأى البويرة غير خاف ماؤها ... فرمى حشاشة نفسه كالخائف
قوم يموت حمارهم عطشاً لقد ... أزروا بحاتم في الزمان السالف

١٩ — وقال بن الجنان (٦) يصف روضاً على نهر :

ودوح بدت معجزات له ... تبين عليه وتدعو إليه
جرى النهر حتى سقى غصنه ... فمال يقبل شكراً يديه
وكف الصبا صنعت حليه ... فأضحى الحمام ينادى عليه

---

(١) تسعدها : تعاونها . (٢) العتاق : الخيل . والجرد جمع أجرد وهو السباق منها
(٣) الحمات : جمع حمة ، وهي إبرة العقرب التي تضرب بها . (٤) توفي سنة ٦٧٣ .
(٥) هو محمد بن محمد بن علي بن محمد بن سليم المصري المتوفى سنة ٧٠٧ هـ .
(٦) توفي سنة ٦٧٥ هـ .

كساه الأصيل ثياب الغنى لحل طبيب الدياجى لديه
وجاء النسيم له عائداً فقام له لاثماً معطفيه

٢٠ — وقال محمد بن الحسين (١) فى نوح الحمام :

ولقد رأيت على الأراك حمامة تبكى فتسعدنى على أحزانى (٢)
تبكى على غصن وأندب قامة لجميعنا يبكى على الأغصان
صرع الزمان وحيدها فتعللت من بعده بالنوح والأحزان
تخشى من الأوتار وهى مروعة منها ، فلم غنت على العيدان؟

٢١ — وقال محمد بن الحسن الصائغ العروضى (٣) يتشوق — وهو بمصر — إلى دمشق

لى نحو ربعك دائما يا جلق شوق أكاد به جوى أتمزق
وهمول دمع من جوى بأضالع ذا مغرق عينى وهذا محرق (٤)
أشتاق منك منازلا لم أنسها إنى وقلبى فى ربوعك موثق

٢٢ — وقال ابن دقيق العيد (٥) يتمنى الجمع بين الشباب والشيب :

تمنيت أن الشيب عاجل لمتى وقرب منى فى صباى مزاره
فآخذ من عصر الشباب نشاطه وآخذ من عصر المشيب وقاره

وقال فى الشكوى :

لعمرى لقد قاسيت بالفقر شدة وقعت بها فى حيرة وشتات
فإن بحت بالشكوى هتكت مروءتى وإن لم أبح بالصبر خفت مماتى
وأعظم به من نازل بملمة يزيل حيائى أو يزيل حياتى

٢٣ — وقال فى بعض الوزراء :

مقبل مدبر بعيد قريب محسن مذنب عدو حبيب
عجب من عجائب البر والبحـ ـر ونوع فرد وشكل غريب

وقال مجير الدين بن تميم يصف روضا :

بعث النسيم رسالة بقدومه للروض فهو بقربه فرحان

---

(١) هو الشاعر النديم ، صاحب الموصل ، توفى سنة ٦٥٨ هـ .
(٢) الأراك شجر يستاك به . (٣) توفى سنة ٧٢٢ هـ .
(٤) الجوى : شدة الوجد
(٥) هو محمد بن على بن وهب الإمام أبو الفتح بن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ

وللطيب ماقرأ الهزار بشدوه   مضمونهـا مالت له الأغصان (١)

وقال فى وكيل بدار القاضى بدمشق :

لا تقرب الشرع إذا لم تكن   تخـبره فهـو دقيق جليل (٢)
ووكل العـز الذى وجهه   على نجاح الأمر أقوى دليـل
ولا تمـل عنـه إلى غـيره   وحسبنا الله ونعم الوكيل

وقال فى روضة :

أرض كساها القطـر حلة سندس   رقت لهـا طرر من الغدران (٣)
وقد النسيم أضـاع نشر رياضها   فالورق تنشده بكل مـكان (٤)

وكتب إلى كمال الدين بن النجار وكيل بيت المال بدمشق :

كمال الدين يامولاى يا من   يبز البحر فى بذل النوال (٥)
أتيت لحـاجة ، فاغنم ثنـائى   عليك بهـا وشكرى وابتهالى
ولا تجعل سواك لهـا ؛ فإنى   عليـك بنجحها وقع اتكالى
أيجمل أن يقول الناس : إنى   أتيت لحـاجة لم تقضها لى ؟
وأصـبح بينهم مثلا لأنى   أتا النقص من جهة الكمال

وقال فى رثاء صديق له اسمه قطب الدين :

تأيتم فلا قلبى عن الحزن مقصر   عليكم ولا جفنى يجف له غرب (٦)
وأفلاك لذاتى تعطل سيرها   وهل فلك يجرى إذا عدم القطب (٧)

وقال فى التشوق :

لا تبعثوا غير الصبا بتحية   من أرضـكم فلها على جميل
خاضت دموع العاشقين وعرجت   عنهم إلى وثوبها مبلول

---

(١) الهزار بفتح الهاء : طائر. (٢) تخبره : تعلمه دقيق: أمر غامض .

(٣) القطر : المطر . والمعنى أن القطر كسا الأرض حلة خضراء من النبات ، وصحت لهذه الحلة طرر أى جوانب من الغدران ، أى المياه التى غادرها المطر .

(٤) أضاع : إما ضيعه أى أفقده ، وإما بثه فى الجو ، تقول : ضاع الطيب انتشرت رائحته والنشر : الريح الطيبة . والورق . جمع ورقاء وهى الحمامة .

(٥) يبزه . يفوقه ويزيد عليه . (٦) مقصر : مقلع وكاف عن الحزن عليكم . والجفن : يريد العين . الغرب: انهلال الدمع من العين . (٧) الفلك : واحد أفلاك النجوم . والقطب . كوكب بين الجدى والفرقدين يدور عليه الفلك .

الشعر المصرى فى هذا العصر

— ١ —

خلفت مصر بغداد فى عصر المماليك فى حمل مشاعل التقدم السياسى والفكرى والأدبى ، وصار المماليك أصحاب القوة فى العالم الإسلامى ، وهزموا التتار هزائم ساحقة ، واستدعوا بعض أبناء الخلفاء العباسيين وبايعوهم فى القاهرة بالخلافة . وفى عهد الأتراك نجد أن السلاطين والأمراء فى هذا العصر كانوا من الأعاجم الذين لا يهتزون للشعر ، ولا يميزون غثه من ثمينه ؛ ولا يقدرون الشعراء . لذلك انقرض الشعر فى بعض الجهات . وضعف فى بعضها ؛ وقد بقى على شىء من الرونق فى الشام ومصر والأندلس والمغرب لأسباب عديدة منها :

١ — وجود بعض المقدرين للشعر فى تلك الجهات . بل كان بعضهم يقول الشعر . كآل قلاوون .

٢ — وجود التنافس بين شعراء مصر والشام حتى كانت بينهم مداعبات ومراسلات .

ولكن عوامل الضعف كانت أكثر ظهورا ؛ لهذا قل التكسب بالشعر فى هذه البلاد وانقلب كثير من الشعراء كتابا فى الدواوين واستعملوا الشعر فى التملق . وإظهار التفصح . وعدل به إلى أغراض غير فطرية ؛ كمدح بعض الأولياء والتلهج بأحوال التصوف ، وعلى الجملة فان الشعراء فقدوا عطف الملوك ولم يجدوا فى الشعر مرتزقا . فانصرفوا إلى وسائل الكسب الأخرى : كالكتابة فى الدواوين والصناعات ، فكان منهم الجزار والحمامى والكحال والدهان . ثم إن أسباب اللهو وفراغ البال التى تدفع أحيانا بلابل الشعر إلى التغريد قد سكتت فى هذا العصر ، الذى كان فى جملته عصر جد وصرامة واضطراب . فان أجاد الشعراء فانهم يجيدون لأنهم أحبوا الشعر . ورأوا فيه فنا رفيعا حنت إليه نفوسهم . ومالت قلوبهم ؛ فقاله كثير منهم لا للمال ولا للكسب . ولكن لأن الفن تملكهم . وأخذ بزمام نفوسهم . فلابد لهم من القول . ولا بد لهم من الإجادة ، وكان التنافس بين شعراء مصر والشام دافعاً إلى إجادة الشعر فى هذا العصر .

— ٢ —

وقد سار الشعر فى هذا العصر فى الطريق التى اختطها الشعراء لأنفسهم فى أخريات العصر العباسى الثانى من الميل إلى الصناعة اللفظية وربما أفرط شعراء هذا العصر إفراطا فى تحلية الشعر بأنواع البديع والتلاعب بالألفاظ فى مهارة ولباقة حتى لقد نستطيع أن نسمى الشعر فى هذا العصر شعر الألفاظ والزينة. ويظهر أن لنضوب القرائح فى هــــذا العصر من الأفكار والمعانى والقدرة على التوليد وانصراف الأذهان عن تعلم الفلسفة وعلوم الكون شأنا كبيرا فى ضيق مدى الشعر وجدبه وخلوه من الابتكار . وإن بقاء الشعر فى هذا العصر حافظا روعته وجماله بعد أن ذهبت أسباب نهوضه أو كادت مما يستوقف الباحث فقد زال عنه تشجيع الملوك ولم يكن من السلاطين إلا القليل ممن يفهم الشعر وهم آل قلاوون والسلطان حسن والمؤيد شيخ الذى كان ينظم الشعر ويلحنه ثم السلطان الغورى وقليل منهم جدا من اختص بشاعر أو شعراء كما كانت الحال فى العصر العباسى . ولم يكن هــذا العهد عهد الصلات ولا عهد الإغداق ولا عهد ملء الأفواه بالدر والجوهر . فلم يجد الشعراء فى الشعر مرتزقا وانصرفوا إلى وسائل الكسب الأخرى .

وإنما تزدهى الفنون إذا صدرت عن نازعة صادقة مصدرها حب الفن ، لاحب الشهرة ولا حب المال . وقد يكون من الأسباب الدافعة إلى الإجادة فى هذا العصر حب بعضهم للشعر ، وما كان من التنافس الشديد بين شعراء مصر والشام . فما كان يبتدع شاعر هنا شاردة أو يجيد قصيدة حتى يتناولها الشعراء هناك بالنقد أو المعارضة أو السرقة ؛ حكوا أن ابن نباتة كان كلما اخترع معنى أخذه الصلاح الصفدى بلفظه أو بتغيير فيه قليل وأن ابن نباتة لذلك ألف رسالة جمع فيها ماقاله فأخذه منه الصلاح وسماها خبز الشعير ، لأنه مأكول مذموم واستهل خطبة الرسالة بقوله : « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا » . وكانت هناك مداعبات ومراسلات لا تكاد تنقطع بين شعراء مصر والشام .

— ٣ —

وقد ظهر فى هذا العصر ولوع الشعراء بأنواع البديع وافتنانهم فى الصناعة اللفظية ، فانهم لم يتركوا نوعا إلا أبرزوه فى أشعارهم غير أن هذه النزعة لم تفسد

الشعر إفسادها النـــثر ؛ لأن تقييد الشعر بالوزن والقافية حال دون تجاوز الحد فى البديع وتفاقم خطره .

وقد نبتت البديعيات فى هذا العصر ، وهى قصائد من بحر البسيط فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم يشتمل كل بيت منها على نوع بديعى وقد يشير الشاعر فى البيت إلى اسم النوع . وأول بديعية كانت لصـــفى الدين الحلى وجاءت بعدها بديعيات لعز الدين الموصلى . وابن حجة الحموى . وعائشة الباعونية . ومنشأ هذه البديعيات بردة البوصيرى ؛ فإن الشعراء بعده أرادوا معارضته وفوقه باظهار قدرتهم فى البديع ولكنهم فى الحق لم يوفقوا إلى الإجادة فجاءت هذه البديعيات صورا مشوهة من التكلف الممقوت والنسج السخيف . وقد شغف شعراء هذا العصر بالتورية وأبدعوا فيها إبداعا حتى لقد كانت وحدها دليل نبوغ الشاعر وعبقريته فتفاخروا بالإجادة فيها وباهوا باختصاص عصرهم باحكامها قال ابن حجة الحموى :

« لأن هذا النوع وهو التورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب » ثم قال فى موطن آخر : « ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين الذين سموا إلى أفق التورية وأطلعوا شموسها ومزجوا بها الذوق السليم لما دأروا كئوسها » . ومن أشهر شعراء التورية بمصر فى هذا العهد سراج الدين الوراق المتوفى سنة ٦٩٥ ﻫ وله فيمن اسمه عرفات :

أطنبوا فى عرفات وغدوا   يتعاطون له حسن الصفات
ثم قالوا لى : هل وافقتنا ؟   قلت: عندى وقفة فى عرفات

ونصير الدين الحمامى المتوفى سنة ٧١٢ ﻫ وله :

جودوا لنسجع بالمديـ   ـح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما تغر   رد عندما يقع الندى

وجمال الدين بن نباتة وقد كتب إليه المؤيد صاحب حماه فرد عليه ابن نباتة :

فديتك من ملك يكاتب عبده   بأحرفه اللاتى حكتها الكواكب
ملكت بها رقى وأخليتنى الأسى   فها أنذا عبد رقيق مكاتب

والقيراطي وكتب إلى صلاح الدين خليل الصفدي :

يا صلاح العلا صفاء ودادي ... لا يرى عن أبي الصلاح بديلا
فدع العتب إنني لست ممن ... لا يراعون في الأنام خليلا

ومن أشهر شعراء التورية في الشام مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨١ هـ .

وله :

ونهر يحب الروض أصبح مغرما ... يروح ويغدو هائما بوصالها
إذا بعدت عنه شكا بخريره ... جفاها وأمسى قانعا بخيالها

وبدر الدين الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ هـ وله :

وتنبهت ذات الجناح بسحرة ... بالواديين فنبهت أشواق
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن ... يعقوب والألحان عن إسحاق
قامت تطارحني الغرام بجهالة ... من دون صحبي بالحمى ورفاق
أنى تباريني جوى وصبابة ... وكآبة وأسى وفيض مآق؟
وأنا الذي أملى الجوى من خاطري ... وهي التي تملي من الأوراق

وصلاح الدين الصفدي وله :

لما زها زهر الربيع بروضه ... وغدا له فضل يثير لديه
قام الحمام له خطيباً بالهنا ... وجرى الغدير تخر بين يديه

وابن الوردي قال :

ناعورة مذعورة ... ولهانة وحائره
الماء فوق كتفها ... وهي عليه دائره

وقد التزم شعراء هذا العصر التضمين كثيرا في شعرهم ، وهو أن يمزج الشاعر بشعره شيئا من شعر غيره ، وكانت لهم براعة فائقة في تغيير المراد من الشعر المأخوذ مع حسن السبك ودقة الصناعة ؛ ويصارحنا مجير الدين بن تميم وهو من كبار الشعراء الممثلين لهذا العصر بشدة نزوعه إلى التضمين فيقول :

أطالع كل ديوان أراه ... ولم أزجر عن التضمين طيري
أضمن كل بيت فيه معنى ... فشعري نصفه من شعر غيري

وقد تجاوزوا الحد في ذلك حتى وصلوا إلى شيء من السخف ، فضمن جمال الدين ابن نباتة أعجاز ملحة الإعراب وهي متن في النحو ، ومن ذلك قوله بها في المديح :

ان قال قولا بين الغرائبا ، وقام قس فى عكاظ خاطبا ،
وإن سخا أتى على ذى العدد ، والكيل والوزن ومذروع اليد ،

وتبارى صلاح الدين الصفدى وجمال الدين بن نباتة فى تضمين أعجاز معلقة امرىء القيس فكتب الصلاح إلى جمال الدين معاتبا :

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى ، كجلمود صخر حطه السيل من عل ،

وهكذا جرى فيها إلى شوط بعيد فأجابه جمال الدين متهكما بطويلة أولها :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبا ، أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ،

وقد كثر الميل الى المقطوعات القصيرة فى هذا العصر لأن أكثر ما كان يدعو الشعراء إلى القول إنما هو إبراز لطيفة بديعة ، ونكتة مخترعة أو تورية رائعة، ومثل هذا يكتفى فيه بقليل من الأبيات وكان فى الشعراء عادة التراسل بالشعر فكانوا يكتفون بارسال قطع قصيرة تتناول أغراضهم ، والمطلع على ديوان ابن نباتة المصرى وهو خير من يمثل هذا العصر يرى فيه كثيرا من الثنائيات والثلاثيات والرباعيات وهلم جرا، وكثرت الفكاهة فى الشعر المصرى كقول أبى الحسين الجزار يصف داره المهدمة :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت الى السابعة
فلا فرق مابين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم فتصغى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت اذا زلزلت خشيت بأن تقرأ الواقعة

ولهم كثير من هذا النوع الذى تظهر فيه حلاوة الفكاهة وخفة الروح .

وقد قيل الشعر فى هذا العصر كثيرا فى الغزل والوصف والمجون ثم فى المديح والرثاء والشكوى ، وقال الشعراء فى الطرد محاكاة للعصر .

اشعر الشعراء

جمال الدين بن نباتة المصرى

٦٨٦ — ٧٦٨ هـ

هو الشاعر الأديب والكاتب المصنف ، جمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن نباتة ، أشعر شعراء المصريين زمن المماليك . وصاحب سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ، ووارث القاضى الفاضل فى التعصب للتورية ووالده من الأدباء العلماء (٦٦٦ — ٧٥٠ هـ) .

وهو من سلالة ابن نباتة الخطيب عبد الرحيم خطيب سيف الدولة الحمدانى ، وقد ولد رحمه الله تعالى بمصر الفسطاط سنة ٦٨٦ ونشأ بالقاهرة ، وتلقى العلم والأدب على كبار مشيختها ورؤساء دواوينها ، وأكب على قراءة شعر القاضى الفاضل ورسائله فرسخت فيه طريقته من الولوع بالتورية والتوجيه والطباق ، فعمل على تأييدها والإشادة بها فكان بعد الفاضل إماماً لهذه الطريقة نظماً ونثراً وحاكاه آخرون من أدباء عصره كصلاح الدين الصفدى وكثيراً ما أغار على معانيه وتورياته وكزين الدين بن الوردى وغيرهما ولم يأت بعده من شعراء مصر والشام من بلغ غايته فى لطف التصور ورقة اللفظ وانسجام العبارة واستعمال المعانى البلدية

وابن نباتة ممن لا يعنى باستعمال الجناس ولا يحفل به كابن الوردى وابن حجة وإن وقع أحياناً فى شعره . واختلط فى أواخر عمره ومات بالبيمارستان المنصورى بالنحاسين سنة ٧٦٨ .

ولقد نشأ ابن نباتة فى أزهى أيام الأدب فى عهد المماليك فقد عاصر كثيراً من رجال اللغة والأدب مثل جمال الدين بن هشام المصرى المتوفى سنة ٧٦١ هـ وابن منظور (سنة ٧١١ هـ) وابن سيد الناس (سنة ٧٣٤ هـ) وغيرهم وعاصر من الشعراء كثيرا منهم نصير الدين الحمامى (سنة ٧١٢ هـ) وشمس الدين محمد بن العفيف المتوفى ٧١٥هـ) وعلاء الدين الوداعى (سنة ٧١٦ هـ) وشهاب الدين بن أبى حجلة المغربى (سنة ٧٧٦ هـ) وزين الدين بن الوردى المتوفى ٧٥٣ هـ، وصلاح الدين الصفدى (سنة ٧٦٤ هـ) وابن اللبانة (سنة ٧٥٢هـ) والقيراطى (سنة ٧٨١ هـ) وابن دانيال الموصلى (سنة ٧١٠ هـ) وصفى الدين الحلى (سنة ٧٥٠ هـ)؛ وخالط كثيرا من كبار الكتاب مثل محيى الدين بن فضل الله العمرى (سنة ٧٤١هـ) وولده شهاب الدين (سنة ٧٥٥هـ)

وأخيه علاء الدين ، وشهاب الدين محمود الحلبي (سنة ٧٥٥ هـ) ... فكان لهذه النشأة الأدبية أثر في نفسه وشعره .

ويرى النقاد أن ابن نباتة أشعر شعراء عصره وحامل لواء الفن الجديد بمصر والشام . والحق أنه بلغ الغاية في إجادة التورية حتى أصبح العلم المفرد فيها ؛ وساعده على إتقان فنه الشعري استعداد فطري سليم وذوق مصري دقيق وقدرة على صياغة النكتة والترشيح لها وانصباب على قراءة أدب القاضي الفاضل حتى امتزج بنفسه وتمثل في معناه ولفظه وقد عرفنا كيف نشأ في أكناف الادب من طليعة صباه وكيف أفاد من شعراء عصره، حتى إذا حذق أدبهم ووعاه بذهم جميعا فيه وجرى مغبراً إلى الغاية ثم إنه لم يكتف بالفطرة الشعرية كما هو الشأن في كثير من شعراء عصره من أصحاب الصناعات كأبي الحسين الجزار ونصير الدين الحمامي وابن دانيال الكحال وغيرهم بل إن القارىء لشعره يرى فيه شاعرا مثقفا اطلع على دواوين الشعراء وأحاط كثيرا بكتب الادب وأخبار العرب وألم بجملة صالحة من العلوم .

وقد كان لكثرة انتقال ابن نباتة في بلاد الشام أثر في اتساع مدى فكره الشعري وكان ابن نباتة على تواضعه واستسلامه يحسن جمال شعره فخورا به تياها فلا تكاد تخلو له قصيدة من الإعجاب بمواهبه الشعرية والإدلال بها ، خذ مايقوله في آخر قصيدة :

من مبلغ العرب عن شعري ودولته	أن ابن عباد باق وابن زيدونا
حبرتها فيه زهراء المعاطف من	أعلى وأنفس مايهدى المجيدونا
إذا رأيت قوافيها وطلعته	فقد رأت مقلتاك البحر والنونا
كأن ألفاظها في سمع حسدها	كواكب الرجم يحرقن الشياطينا

وفي قوله : « فقد رأت مقلتاك البحر والنون » تورية تمتزج بمراعاة النظير امتزاجا رائعا بديعا :

وقال فيه ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ في خزانة الأدب عند الكلام على التورية .

« إنه (ابن نباتة) وإن تأخر في السبق عن فحول المتقدمين عصرا فقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بيانا وسحراً وتفقه في الطريقة الفاضلية لمذاهب ماسلكها المتقدمون وها نحن نستجدي من حواصلها نظما ونثرا ، وكم سأله عالم في سلوك هذه الطريقة فقال: لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ؛ وإن قيل

إن الفاضل تمذهب بهذا المذهب ، فذهبي — وأنا أستغفر الله — أنه (ابن نباتة) وصل فيه إلى درجة الاجتهاد وهذا القول يقول به من رفع الخلاف وتأدب ، فان هذه الطريقة ما أمها ناظم ولا ناثر فى الأيام الأموية ولا ابتسمت ثغورها فى الخلافة العباسية ، ولما انتهت الغاية إلى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغريبة وأظهر منها الزيادة المستفادة ، واعتادها بلغاء المتأخرين بعد ماشهدوا بسبقه، فأكرم بها عادة وشهادة ؛ ولما اتصلت بالشيخ جمال الدين بن نباتة أهل غربتها وشرف بأصل شجرته النباتية نسبتها وأسكن فى أبياته من بديع النظم كل قرينة صالحة ، وأمست سواجـــع إنشائها على فروعه النباتية صادحة » . ومن لطائفه فى التورية قوله وفيه تضمين :

وضعت سلاح الصبر عنه فما له ... يقاتل بالألحاظ من لايقاتله !
وسال عذار فوق خديه جائر ... على مهجتى فليتق الله سائله

ويمثل مذهب ابن نباتة فى الشعر قوله يرثى ولدا له مات صغيرا :

الله جارك إن دمعى جارى ... ياموحش الأوطان والأوطار(١)
لما سكنت من التراب حديقة ... فاضت عليك العين بالأنهار
شتان ما حالى وحالك : أنت فى ... غرف الجنان . ومهجتى فى النار
خف النجا بك يابنى إلى السرى ... فسبقتنى . وثقلت بالأوزار(٢)
ليت الردى إذ لم يدعك أهاب بى . ... حتى ندوم معا على مضمار(٣)
ليت القضا الجارى تمهل ورده . ... حتى حسبت عواقب الإصـــدار
ماكنت إلا مثل لمحة بارق ... ولى ، وأغرى الجفن بالإمطار
أبكيك مابكت الحمام هديلها ... وأحن ماحنت إلى الأوكار(٤)
أبكى بمحمر الدموع ؛ وإنما ... تبكى العيون نظيرها بنضار
قالوا : صغير ! قلت : إن ! وربما ... كانت به الحسرات غير صغار(٥)
وأحق بالأحزان ماض لم يسىء ... بيد ولا لسن ولا إضمار(٦)
نائى اللقا وحماه أقرب مطرحا ... يابعد مجتمع وقرب مزار !

---

(١) الأوطار : جمع وطر الحاجة تهتم لها وتعنى بها .
(٢) النجا : مقصور النجاء وهو السرعة .
(٣) أهاب بى : دعانى (٤) الهديل هنا : أب للحمام زعموا أنه هلك فى القدم فهى تبكيه
(٥) إن : أى نعم . (٦) اللسن بكسر اللام : اللسان .

لهــفى لغصن رافق بنباته   لو أمهلته الترب للإثمار
لهفى لجوهرة خفت . فكأننى   حجبتهـــا من أدمعى ببحار
لهـــفى لسار حار فيه تجلدى   واحيرتى بالكوكب السيار!
سكن الثرى ، فكأنه سكن الحشا   من فرط ماشغلت به أفكارى
أعزز على بأن ضيف مسامعى   لم يحظ من ذاك اللسان بقارى! (١)
أعزز على بأن رحلت ولم تخض   أقدام فكرك أبحر الأشعار
أعزز على بأن نثرت على الثرى   وعليك من دمعى كدر نثار (٢)
أبنى . إن تكس التراب فإنه   غايات أجمعنا . وليس بعار
ماف زمانك مايسر مؤمـــلا   فاذهب كما ذهب الخيال السارى
لو أن أخبارى لديك توصلت   لبكيت فى الجنات من أخبارى
أحزان مذكر ، وسلوة مفرد ،   ومقام مضيعة ، وذل جوار
أبنى . إنى قد كنزتك فى الثرى   فانفع أباك بساعة الإقتار (٣)
أبنى . قد وقفت على حوادث   فوقفن من طلـــل على آثار
ومضى البياض من الحياة وطيبها   لكنها أبقته فوق عـــذارى (٤)
ثم وادعاً ، فلقد تقرح ناظرى   سهراً ، ونامت أعين السمار
أرعى الدجى وكأن ذيل ظلامه   متشبث بالنجم فى مسمار
خلع الصباح على المجرة سجفه   أم قسمت شمس النهار درارى؟ (٥)
تبا لعادية الزمان على الفتى .   فلقد حذرت وما أفاد حذارى
وحويت ديناراً بوجهك فانتحى   صرف الزمان . فراح بالدينار (٦)

---

(١) أعزز على : أى ما أعز ذلك على وما أصعبه وقارى : من القرى وهو مايقدم للضيف من الطعام أو من القراءة ففى الكلمة تورية (٢) نثار : أى منثور

(٣) يريد بساعة الإقتار يوم الحساب أى الإقتار من الحسنات . وأن طفله سيكون له فى ذلك اليوم ذخرا .

(٤) يشير إلى مشيبه . والعذار : الشعر المحاذى للأذن .

(٥) المجرة : منطقة فى السماء ذات نجوم كثيرة لايميزها البصر . فترى كرقعة بيضاء . والسجف : الستر . والدرارى : النجوم . والمعنى : هل خلع الصباح بياضه على المجرة . فهو ماتراه من بياضها . ولا صباح بعد ذلك . أم أن الشمس تناثرت نجوما . هى التى أراها . وعلى ذلك لاتطلع الشمس ؟

(٦) يشبه وجه ابنه بالدينار بهجة وصفاء .

وقصيدته الأخرى التي قالها يمدح بها السلطان الأفضل ويعزيه في والده المؤيد :

هناء محا ذاك العزاء المقدما ... فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع ... شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
تفيض مجاري الدمع والبشر واضح ... كوابل غيث في ضحا الشمس قد همى
سقى الغيث عنا تربة الملك الذي ... تدانت له الدنيا وعز به الحمى
مليكان : هذا قد هوى لضريحه ... برغمي . وهذا للأسرة قد سما
ودوحة ملك شاذوى تكافأت ... فغصن ذوى منها . وآخر قد نما(١)
فقدنا لأعناق البرية مالكا ... وشمنا لأنواع الجميل متمما
إذا الأفضل الملك اعتبرت مقامه ... وجدت زمان الملك قد عاد مثلما
أعاد معاني البيت حتى حسبته ... بوزن الثنا والحمد بيتا منظما(٢)
وناداه ملك قد تقادم إرثه ... فقام كما ترضى العلا وتقدما
تقابل منه مقلة الدهر سؤددا ... صميا ، وتنضو الرأي عضباً مصمما
ويقسم فينا كل سهم من الندى ... ويبعث الأعداء في الروع أسهما(٣)
كأن ديار الملك غاب إذا انقضى ... به ضيغم أنشا به الدهر ضيغما(٤)
كأن عماد البيت غير مقوض ... وقد قمت يا أزكى الأنام وأحزما
نهضت فما قلنا : سادة معشر ... تداعت ، ولا بنيان قوم تهدما
أما والذي أعطاك ما أنت أهله ... لقد شاد من علياك ركنا معظما
فان يك من أيوب نجم قد انقضى ... فقد أطلعت أوصافك الغر أنجما
وإن تك أوقات المؤيد قد خلت ... فقد جددت علياك وقتاً وموسما
عليه سلام الله ماذر شارق ... ورحمته ماشاء أن يترحما (٥)

فهما مثالان لشعره ومذهبه فيه

وقال ابن نباتة : في الناصر حسن وقد أمره أن ينسخ له ديوانه :

أحبابنا داركم والعيش نعمان ... والسفح دمعي ودار القلب حران(٦)

---

(١) شاذوى : نسبة الى يوسف بن أيوب بن شاذى . وهو السلطان صلاح الدين الأيوبي . (٢) البيت : أي بيت الملك .

(٣) سهم من الندى : أي نصيب . (٤) الضيغم : الأسد .

(٥) ذر : طلع . والشارق الشمس .

(٦) العيش : الحياة . نعمان بالفتح : واد في طريق الطائف يخرج الى عرفات .

أشكو اشتياقاً وما بالوصل من قدم ‏ ‏ كأن وصلى لفرط الحب هجران
وربما رمت أن أشكو السهاد الى ‏ ‏ عدل المنام ، وقلت : النوم سلطان
يأيها الناصر السلطان لاغمضت ‏ ‏ عين لها عن سنى مرآك سلوان(١)
كم فى ملوك الورى فضل ومعرفة ‏ ‏ كانوا ، ومثلك فى ذا النحو ما كانوا
ان يعض كسرى فكم ايوان معدلة ‏ ‏ لديك قد زانه يمن وايمان
أمرت شعرى ياخير الملوك على ‏ ‏ أشعار قوم ؛ فلى أمر وديوان

وأكثر شعر ابن نباتة فى المديح والرثاء ، لأنه شاعر فقير يعيش من فنه، وأكثر مدائحه فى النبي صلى الله عليه وسلم ثم فى الملك المؤيد صاحب حماة وأبنائه وآل فضل الله والشهاب محمود وابن الأثير صاحب ديوان الإنشاء، ومدح الملك الناصر والسلطان حسنا، ثم طائفة كبيرة من القضاة والولاة والمحتسبين وليس له فى الهجاء الا أبيات قليلة هى الى الدعابة أقرب منها الى الهجاء، ولكن لسانه لم يعف عن هجر الكلام حتى فى القصائد التى يمدح بها الكبراء. وهذا ان دل على شيء فأنما يدل على تدهور الآداب العامة فى ذلك العصر .

وابن نباتة كثير الغزل وغزله معظمه صناعى ؛ يجعله طليعة لقصائده . ويستعمل فى أكثره ضمير المذكر كما هى عادة شعراء عصره ومن قبلهم .

وأحسن ماقاله فى الغزل قوله من قصيدة فى مدح الرسول :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ‏ ‏ ولمعة برق بالغضا تتسعر
وذكر جبين البابلية إذ بدا ‏ ‏ هلال الدجى والشيء بالشيء يذكر
سقا الله أكناف الغضا سائل الحيا ‏ ‏ وإن كنت أسقى أدمعاً تتحدر

وله قصائد فى الخمريات وقد كان فى هذا الباب مقلداً قليل الابتكار ، ومما أحسن فيه من ذلك قوله :

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب ‏ ‏ فالكأس من فضة والراح من ذهب
واخطب إلى الشرب أم الدهر إن نسبت ‏ ‏ أخت المسرة واللهو ابنة العنب
غراء حالية الأعطاف تخطر فى ‏ ‏ ثوب من النور أو عقد من الحبب

وقد ذكر ابن حجة الحموى أن ابن نباتة كان يغير على بدائع علاء الدين الوداعى

يقال له نعمان الأراك ونعمان أيضا : صفة مشبهة من الفعل نعم ينعم أى صار ناعما لينا . حران : بلد بشمالى الشام .

(١) السنى : ضوء البرق .

المتوفى سنة ٧١٦ هـ ، وقد أورد فى خزانة الأدب جملة من ذلك ، وذلك كقول الوداعى :

والنهر كالمبرد يجلو الصدا ببرده عن قلب ظمآنه

الذى أخذه ابن نباته فقال :

والنهر فيه كمبرد فلأجل ذا يجلو الصدا

ويقول الوداعى :

ماكنت أول مغرم محروم من باخل بادى النفار كريم

فيقول ابن نباتة :

مبخل يشبه ريم الفلا ياطول شجوى من بخيل كريم

ولابن نباتة ديوان كبير ، وله كتاب سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون وكتاب « مطلع الفوائد ومجمع الفرائد » و « فرائد السلوك فى مصايد الملوك » .

ولابن نباتة رسالة فى المفاخرة بين السيف والقلم . قال على لسان القلم يرد على السيف « أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ؟ وأنا للصلح وأنت للضراب وأنا للعمارة وأنت للخراب أعلى مثلى يشق القول ويرفع الصوت والصول وأنا ذو اللفظ المكين وأنت عن دخل تحت قوله تعالى : أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ، فقد تعديت حدك وطلبت مالم تبلغ به جهدك هيهات أنا القائم بمصالح الدول وأنت فى الغمد طريح والمتعب فى تمهيدها وأنت غافل مستريح والساعى فى تدبير حال القوم والمفنى لنفعهم العمر إذا كان نفعك يوما أو بعض يوم فاقطع عنك أسباب المفاخرة واستر أنيابك عند المكاشرة فما يحسن بالصامت محاورة المفصح والله يعلم المفسد من المصلح(١) .

---

(١) لابن نباتة ترجمة فى الدرر الكامنة ٤ : ٢١٦ – ٢١٨ وفى مصادر عديدة .

الشاب الظريف

٦٥١ — ٧١٠ هـ

لقب بالشاب الظريف لخلاعة ولهو فيه ولرقة أخلاقه وظرفه فى نفسه واسمه محمد شمس الدين بن سليمان عفيف الدين الكوفى التلمسانى ولد بالقاهرة فى جمادى الآخرة سنة احدى وستين وستمائة وان كان منبت أسرته بتلمسان من بلاد المغرب الأقصى كما دلنا على ذلك اسمه وقوله فى شعره :

وما أنا إلا شمس كل فضيلة لها مشرق لكن أصلى مغرب

وقد عاش الشاب الظريف طيلة حياته فى دور السلاطين الذين يعرفون فى التاريخ بالمماليك ولقد كان ذلك العصر الذى عاش فيه من العصور المجيدة فى تاريخ مصر التى بسطت سلطانها على العالم الإسلامى وقد اتصل ببعض سلاطين مصر كالمنصور قلاوون واتصل كذلك ببعض الأمراء والعظماء من المصريين والشاميين : كقاضى القضاة وبعض أمراء بنى أيوب وآل عبد الظاهر ومدحهم ببعض قصائد من شعره

ولقد ولى شاعرنا عمالة الخزانة فى دمشق ولذلك انتقل اليها وعاش حقبة طويلة فيها ويظهر أنه لم يل عملا ما بالديار المصرية .

وكان أبوه عفيف الدين التلمسانى شاعرا محسنا والشاب الظريف شاعر مجيد رقيق خفيف الروح ناصع الديباجة فى شعره نفحات من العبقرية المصرية ، وكان مولعا بالبديع كبقية شعراء عصره ولكن البديع لم يفسد عليه شعره وأكثر شعره فى الغزل شأن أكثر شعراء هذا العصر . ووصفه شهاب الدين بن فضل الله فقال : « نسيم سرى ونعيم جرى وطيف لابل أخف موقعا منه فى الكرى . لم يأت إلا بما خف على القلوب وبرىء من العيوب رق شعره فكاد يشرب ودق فلا غرو للقضب أن ترقص والحمام أن يطرب ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتان بشعره وخاصة أهل دمشق فانه بين غمائم حياضهم ربا وفى كمائم رياضهم حبا حتى تدفق نهره وأينع زهره . وقد أدركت جماعة من خلطائه لا يرون عليه تفضيل شاعر ولا يروون له شعرا إلا وهم يعظمونه كالمشاعر ولا ينظرون له بيتا إلا كالبيت ولا يقدمون عليه سابقا حتى ولو قلت ولا امرأ القيس ما بالبيت ومرثله

وظلم بالحمى أوقات لم يبق من زمانها إلا تذكره ولا من إحسانها إلا تشكره وأكثر شعره لا بل كله رشيق الألفاظ سهل على الحفاظ لايخلو من الألفاظ العامية وما تحلو به المذاهب الكلامية فلهذا علق بكل خاطر وولع به كل ذاكر وعاجله أجله فاخترم وحرم أحباءه لذة الحياة وحرم » .

ومن شعره :

ناولينى الكاس فى الصبح   ثم غنى لى على قدحى
وأديرى شمس وجهك لى   فضياء الشمس لم يلح
واشغلى كفيك فى وتر   لا تهديها إلى الصبح
وإذا أطربتنى . وبدا   بانتشائى حال مفتضح
عانقينى باليدين كما   يفعل الاحباب من فرح
وإذا عانقت من طرب   غصن قـــد منك متشح
فدعى أزرار طوقك عن   صــدرك الفتان بالملح
ثم روحى بالأمان فـ   ـثلى بسرى قط لم يبح

وقال :

صدقتم قده يحكى القضيبا   ألم تره حوى زهرا وطيبا
ولكن تحمل الكثبان بانا   ولم أر بانة حملت كثيبا
ولما أن تلاقينا وأبدى   لنا شفق الضحى كفا خضيبا
ملأت يديه من ياقوت دمعى   وكنت محقت لؤلؤه نحيبا
ذهلت عن النسيب به فبانت   محاسنه تعلمنى النسيبا

وقال :

صدودك هل له أمد قريب ؟   ووصلك هل يكون ولا رقيب
قضاة الحسن ماصنعى بطرف   تمنى مثله الرشأ الربيب
رمى فأصاب قلبى باجتهاد   صدقتم كل مجتهد مصيب
بأى حشاشة وبأى طرف   أحاول فى الهوى عيشا يطيب؟
وهذى منك ليس لها تصبر   وهــذا منك ليس له نصيب
وفى تلك الهوادج ظاعنات   سرين وكل ذى وجه حبيب
إذا أسفرن فانكسرت عيون   لهن فتكن فانكسرت قلوب
فيا تلك الذوائب هل صباح   فلى فى ليلكن أسى مذيب

ويا تلك اللحاظ أرى عجيبا   سهاما كلما كسرت تصيب
ويا تلك المعاطف خبرينا   متى ينعطف الغصن الرطيب

وقال من قصيدة فى الشكوى والحكمة :

أبت رقتى إلا الذى يقتضى الهوى   وعزمى إلا ما اقتضى الرأى والعقل
فوا عجبا أنى خفيت ولم أبن   وقد راح معلوماً بى الحزن والسهل ؟
طريد ولى مأوى مباح ولى حمى   وحيد ولى صحب غريب ولى أهل
سأجهد : إما للمنايا أو المنى   قصاراى : إماالنصر أو ماجنى النصل (١)
فان لم تصلنى همتى بمطالبى   ولم يتنسج الشيب فى لمتى غزل
فلا نظرت عينى ولا فاه مقولى   ولا بطشت كفى ولا سعت الرجل
ومن عرف الأمر الذى أنا عارف   رأى كل صعب كل ادراكه سهل
خذ العز من أى الوجوه رأيته   فلا خير فى عيش يكون به الذل
والمرء من داعى الطبيعة قائد   إذا لم يذده دونه الحلم والنبل
من الترب هذا الطبع والنفس من علا   فللمرء أن يدنو وللمرء أن يعلو

وقال فى التغزل :

يا ساكنا قلبى المعنى   وليس فيه سواك ثانى
لأى معنى كسرت قلبى   وما التقى فيه ساكنان (٢)

وقال فى زيارة الحبيب :

ولقد أتيت إلى جنابك قاضياً   باللثم للعتبات بعض الواجب (٣)
أتيت أقصد زورة أحيا بها   فرددت ـ ياعينى ـ هناك بحاجب (٤)

وقال فى التغزل :

بدا وجهه من فوق أسمر قده   وقد لاح من سود الذوائب فى جنح
فقلت : عجيب ! كيف لم يذهب الدجى   وقد طلعت شمس النهار على رمح ؟ (٥)

---

(١) قصاراى : أى غايتى ، وبين النصر والنصل جناس غير تام . ويريد بما يجنيه النصل الموت . (٢) فى قوله كسرت قلبى تورية ، والمقصود : إيذاء القلب بالهجر ويورى بذلك بالكسرة المعروفة للتخلص من التقاء الساكنين ، وكذلك فى قوله : ساكنان : يريد محبوبين . (٣) الجناب : الناحية والكنف.
(٤) كذلك التورية هنا فى كلمة حاجب (٥) يقصد بالدجى : الشعر الأسود الذوائب . وشمس النهار : الوجه . والرمح : القد .

وقال فيما يجد العاشق وما يصنع :

لا تخف ما فعلت بك الأشـواق   واشرح هواك فكلنا عشـاق
فعسى يعينك من شكوت له الهوى   فى حمـله فالعاشقون رفاق
لاتجزعن فلست أول مغرم   فتكت به الوجنات والأحداق
واصبر على هجر الحبيب فربمـا   عاد الوصال وللهوى أخلاق(١)
كم ليلة أسهرت أحداق بهـا   وجداً وللأفـكار بى إحداق(٢)

ومن شعره وفيه بديع منسجم .

مثل الغزال نظرة ولفتة   من ذا رآه مقبلا ولا افتتن ؟
أعذب خلق الله ثغرا وفـا   إن لم يـكن أحق بالحسن فمن ؟
فى ثغره وخـده وشـكله   المـاء والخضرة والوجه الحسن

ومن شعره كذلك قوله :

عفا الله عن قوم عفا الصبر عنهم   فلو رمت ذكرى غيرهم خاننى الفم
تجنوا كأن لاود بينى وبينهم   قديـما وحتى ما كأنهم هم
وبالجذع أحباب إذا ماذكرتهم   شرقت بدمع فى أواخره دم
ألم وما فى الركب منـا متيم   وعاد وما فى الركب إلا متيم
وليس الهوى إلا التفاتة طامح   يروق لعينيه الجمـال المنعم
خليلى ما للقلب هاجت شجونه   وعاوده داء من الشوق مؤلم
أظن ديار الحى منا قريبة   وإلا فمنهـا نفحة تتنسم

عمر بن الوردى

٦٨٩ — ٧٤٩ ﻫ

هو زين الدين عمر ، ولد بالمعرة سنة ٦٨٩ ﻫ ومات بحلب سنة ٧٤٩ ﻫ ، وكان شاعرا أديبا نحويا فقيها مؤرخا عفيفا لا يستجدى بشعره وله ديوان شعر مطبوع وشعره متوسط فى الجودة غاص بالبديع وبخاصة التورية تظهر فيه النزعة الفقهية والعلمية أحيانا ومن شعره .

---

(١) أى من أخلاق كل معشوق أن يهجر دلالا وتجنيا ثم يصل بعد ذلك .
(٢) أحدق به : أحاط أى أن الأفكار كانت تحيط بى وتساورنى .

دهرنا أمسى ضنينا   باللقا حتى ضنينا
ياليالى الوصل عودى   واجمعينا ، أجمعينا

ومن شعره :

أنتم أحبائى وقد   فعلتم فعل العدا
حتى تركتم خبرى   فى العالمين مبتدا

ومن قوله فى رثاء ابن تيمية وقد مات مسجونا بقلعة دمشق :

تقى الدين أحمد خير حبر   خيوط لمعضلات به تخاط
توفى وهو محبوس فريد   وليس له إلى الدنيا انبساط
قضى نحباً وليس له قرين   ولا كنظيره لف القماط

وله القصيدة المشهورة فى الحكم منها :

اعتزل ذكر الأغانى والغزل   وقل الفصل وجانب من هزل
ودع الذكر لأيام الصبا   فلأيام الصبا نجم أفل
إن أهنا عيشة قضيتها   ذهبت لذاتها والإثم حل
واهجر الخمرة إن كنت فتى   كيف يسعى فى جنون من عقل
صدق الشرع ولا تركن إلى   رجل يرصد بالليل زحل
حارت الأفكار فى قدرة من   قد هدانا سبلنا ، عز وجل
كتب الموت على الخلق فكم   فل من جمع ، وأفنى من دول

صفى الدين الحلى

٦٧٧ — ٧٥٠ ﻫ

الحلى شاعر غير مصرى المولد والنشأة والحياة ، ولكنه اتصل بملوك مصر ومدحهم وزار مصر وتمتع بمناظرها ، وهو عبد العزيز بن سرايا بن على ، ولد بالحلة من مدن الفرات سنة ٦٧٧ ﻫ ، ونشأ بها وتأدب وأجاد الشعراء ، وخدم ملوك الدولة الأرتقية ، وقد رحل إلى مصر فى سنة ٧٢٦ ﻫ ، ومدح السلطان الناصر بن قلاوون بقصيدة عارض فيها المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

بأبى الشموس الجانحات غواربا   اللابسات من الحرير جلابيا

فابتدأها بقوله :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا   فتركن حبات القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة   غادرن فود الليل منها شائبا
بيض دعاهن الغبي كواعباً   ولو استبان الرشد قال كواكبا

وتوفى عام ٧٥٠ هـ في بغداد ، وقد طرق معظم فنون الشعر ، وقال من الأوزان المولدة ، وفي التشطير والتخميس ، وهو أول من نظم القصائد النبوية الجامعة لأنواع البديع المسماة بالبديعيات ، وكان شعره سهل اللفظ جيد الأسلوب ، وقد عده بعض الأدباء أشعر شعراء عصره . ومن شعره وهو في غاية الرقة :

إن غبت عن عياني   يا غاية الأماني
فالفكر في ضميري   والذكر في لساني
ماحال عنك عهدي   ولا انثنى عناني
شوقي إليك باق   والصبر عنك فاني

ومن شعره :

قد نشر الزنبق أعـــلامه   وقال كل الزهر في خدمتي
لو لم أكن في الحسن سلطانه   ما رفعت من دونه رايتي
فقهقه الورد به ســـاخراً   وقال : ما تحذر من سطوتي ؟
وقال للسوسن : ماذا الذي   يقوله الأشيب في حضرتي ؟
فامتعض الزنبق من قوله   وقال للأزهار : يا رفقتي
يكون هذا الجيش بي محدقا   ويضحك الورد على شيبتي

وهذا شعر في منتهى الرقة ، ولكن صفي الدين قد يكون في منتهى الجزالة والضخامة إذا قال في الأغراض الشعرية التي تتطلب قوة وحماسة كقوله :

لمن الشوازب كالنعام الجفل   كسيت جلالا من غبار القسطل
يبرزن في حلل العجاج عوابسا   يحملن كل مدرع ومسربل
شبه العرائس تجتلي فكأنها   في الخدر من ذيل العجاج المسبل
فعلت قوائمهن عند طرادها   فعل الصوالج في كرات الجندل
فتظل ترقم في الصخور أهلة   بشبا حوافرها وإن لم تنعل

ومن جيد شعره ورصينه القصيدة النونية المشهورة التي قالها في صباه ، وكأنه كان يعارض بها نونية ابن زيدون ، ومن هذه القصيدة :

سل الرماح العوالى عن معالينا واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا
وسائل العرب والاتراك ما فعلت فى أرض قبر عبيد الله أيدينا ؟
لما سعينا فما رقت عزائمنا عما نروم ولا خابت مساعينا
يايوم وقعة زوراء العراق وقد دنا الأعادى كما كانوا يدينونا
بضمر ما ربطناها مسومة إلا لنغزو بها من بات يغزونا
وفتية إن نقل أصغوا مسامعهم لقولنا أو دعوناهم أجابونا
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة يوما وإن حكموا كانوا موازينا

بدر الدين الذهبي

المتوفى عام ٦٨٠ هـ

كان من أرق شعراء الشام أسلوبا وألطفهم طريقة ، ويمتاز شعره بكثرة الوصف وجمال الديباجة وروعة البديع ، وتوفى عام ٦٨٠ هـ ، ومن شعره :

ورياض وقفت أشجارها وتمشت نسمة الصبح إليها
طالعت أوراقها شمس الضحا بعد أن وقعت الورق عليها

وقوله :

عرج على الروض يانديمى ومل إلى ظله الظليل
فالزهر يلقاك بابتسام والريح تلقاك بالقبول

وقد كان متصلا بمصر وملوكها ومدح الكثير منهم .

صلاح الدين الصفدى

٦٩٦ — ٧٦٤ هـ

كاتب شاعر مؤرخ ، ولد فى صفد سنة ٦٩٦ هـ ، وتلق العلم بدمشق عن ابن نباتة المصرى الشاعر ، وتولى ديوان الإنشاء بصفد والقاهرة وحلب ، وأشهر كتبه الواف بالوفيات ، وهو أكبر معجم للتراجم يقع فى نحو خمسين مجلدا . ولا يوجد هذا الكتاب كاملا فى مكان واحد . فنه أجزاء بمصر وحلب وتونس وفينا ولندرة وأكسفورد وباريس . وتوفى بدمشق عام ٧٦٤ هـ ومن شعره :

بسهم أجفانه رمانى فذبت من هجره وبينه
إن مت مالى سواه خصم لأنه قاتلى بعينه

وله قصيدة طويلة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم يعارض بها لامية كعب ابن زهير. منها :

سلوا الدموع فان الصب مشغول ... ولا تملوا ففى إملائها طول
واستخبروا صادحات الأيك عن شجنى ... هل فى الغرام الذى تبديه تبديل؟
وهل لما ضمت الأحشاء بعدكم ... من الجوى عند ماتحويه تحويل؟
أحبتى لا وعيش مر لى بكم ... وربع لهوى باللذات مأهول
ماكان لى مذ عرفت الوجد قط ولا ... يكون فى غيركم قصد ولا سول

ومن قوله :

ياغائبين تعللنا لغيبتكم ... بطيب لهو ولا والله لم يطب
ذكرت والكأس فى كفى لياليكم ... فالكأس فى راحة والقلب فى تعب

التلعفرى

٦٩٣ — ٧٦٥هـ

هو شهاب الدين محمد بن يوسف ، ولد بالموصل . وعكف على الأدب والشعر حتى نبغ فيهما . وأجاد فى المدح، ومن مدحهم كثير من الملوك والأعيان ، منهم : الملك الأشرف موسى الأيوبى . وكان التلعفرى خليعاماجنا ، يقامر بكل مايعطيه له الملك الاشرف ، حتى أمر بطرده الى حلب . فمدح العزيز ، فأحسن إليه . ولكنه عاش مقامرا فقيرا مستجديا عاثر الحظ طول حياته .

شعراء آخرون

ومن شعراء هذا العصر المملوكى: الشاعر تقى الدين بن حجة الحموى (٧٦٧ — ٨٣٧ هـ) ولد فى حماه ورحل فى طلب العلم الى الموصل ودمشق والقاهرة وعادالى بلده ، ثم قصد القاهرة فى زمن الملك المؤيد شيخ . وهو صاحب كتاب خزانة الادب ، وهى بديعية نظمها فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد شرحها فى هذا الكتاب شرحاوافيا ...ومنهم سراج الدين الوراق (٦٥٥ هـ) وكان كاتبا للأمير يوسف سيف الدين والى مصر، وهوممن يهتمون بالتورية وفنون البديع

ومحمد بن سوار المتوفى عام ٦٧٧ هـ، والنواجى المتوفى عام ٨٤٩ هـ، والبسطامى م ٩٦٠ هـ ،وابن داود القرشى المصرى م ٨٢٨ هـ وابن مكانس المتوفى عام ٨٦٤ هـ.

شرف الدين البوصيري

٦٠٨ — ٦٩٥

هو الكاتب الشاعر المتصوف ، شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي(١) البوصيري صاحب البردة والهمزية .

كان أحد أبويه من بوصير والآخر من دلاص . ولد بدلاص (٢) سنة ٦٠٨ هـ ، ونشأ ببوصير (٣)، ثم انتقل إلى القاهرة ، وتعلم علوم العربية والأدب، فقال الشعر البليغ في جده وهزله ، ونظم من جزله ومرذوله ، وفصيحه وعاميه ، وكتب الرسائل الأنيقة ، واتخذ كتابة الدواوين صناعة ، فتصرف في مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم ، وباشر مديرية الشرقية مدة ، وله في ذم مباشري الشرقيـة قصيدة طويلة .

ويمتاز شعره بالرصانة والجزالة وحسن استعمال البديع في مدائحه النبوية ، إلا أنه لم يحفل بهذه المزايا في غيرها، فجارى شعراء زمانه في أسلوبهم حتى في استعمال بعض الألفاظ المولدة والأهاجي المقذعة ، ثم تنسك وتصوف .

ومن شعره قصيدة البردة الشهيرة التي وقع الإجماع على أنها أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بانت سعاد ونحوها من مدائح الصحابة ؛ قيل إنه فلج فنظمها في مرضه وتوسل بها إلى رسول الله فشفي من مرضه . . وأولها :

أمن تذكر جيران بذي سلم	مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة(٤)	وأومض البرق في الظلماء من إضم (٤)
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا	وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أيحسب الصب أن الحب منكتم	ما بين منسجم منه ومضطرم؟

---

(١) صنهاجة إحدى قبائل البربر وطنها الصحراء جنوبي المغرب الاقصى .

(٢) قرية من قرى مديرية بني سويف (٣) هي بوصير قوريدس من قرى بني سويف أيضاً

(٤) واد يبتدىء من غربي المدينة ويصب في بحر القلزم (البحر الاحمر) .

ومن حكمها البديعة المشوبة بمحاسن البديع قوله :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على　　حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

فاصرف (١) هواك وحاذر أن توليه　　إن الهوى ماتولى يصم(٢) أو يصم

وراعها وهى فى الأعمال سائمة(٣)　　وان هى استحلت المرعى فلا تسم

كم حسنت لذة للمرء قاتلة (٤)　　من حيث لم يدرأن السم فى الدسم

واخش الدسائس منجوع ومن شبع　　فرب مخمصة شر من التخم

وقصيدة البوصيرى الهمزية فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم لا تقل عن البردة فى فصاحتها ، وأولها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء　　يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك فى علاك وقد حا　　ل سنى منك دونهم وسناء

ومنها :

صاح لاتأس ان ضعفت عن الطا　　عة واستأثرت بها الأقوياء

إن لله رحمة وأحق النـــاس منه بالرحمة الضعفاء

فابق فى العرج عند منقلب الذو　　د ففى العود تسبق العرجاء

لا تقل حاسدا لغيرك : هذا　　أثمرت نخله ونخلى عفاء

وأت بالمستطاع من عمل البر　　فقد يسقط الثمار الإناء

وله قصيدة أخرى على وزن بانت سعاد ، وأولها :

الى متى أنت باللذات مشغول　　وأنت عن كل ما قدمت مسئول

وقد نبغ فى الشعر والكتابة ، وأخذ التصوف عن أبى العباس المرسى . وعاصر : ابن مالك والشاطبى وصفى الدين ومحيى الدين بن عبد الظاهر ، فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وقد اشتغل بالكتابة فى الدواوين .

---

(١) الصرف فى عرف زمانهم : العزل عن الحكم ضد التولية .

(٢) جواب (ما) الشرطية ، أى ما تولى منه ، من أصميت الصيد اذا قتلته وأنت تراه ، وه أو يصم ، من وصم العود اذا صدعه ، أو من الوصم بمعنى العيب

(٣) يلمح الى ما يستعمل فى رعى الإبل

(٤) الأبيات الآتية يلمح فيها الى صناعة الطب ، والاستفراغ والامتلاء والحمية من ألفاظها

ولما عين مباشرا لمديرية الشرقية لكتابة الحساب نقد أعمال المباشرين فى قصيدة طويلة ، يقول منها :

أمولاى الوزير غفلت عما يتم من اللئام الكاتبينا
تنسك معشر منهم وعدوا من الزهاد والمتورعينا
وقيل لهم دعاء مستجاب وقد ملئوا من السحت البطونا

وقد مال فى آخر حياته الى الزهد ، وأقام بالإسكندرية حتى وفاته .

وقد قال البوصيرى الشعر البليغ ، ونظم الشعر فى شتى الأغراض ، ولكن يغلب على شعره الرصانة والجزالة ، وحسن استعمال البديع فى المدائح النبوية ، وهو فى غير تلك المدائح لم يعن بهذا ، لجارى شعراء زمانه فى أسلوبهم حتى فى استعمال الالفاظ المولدة ، والاهاجى اللاذعة ، ولولا مدائحه النبوية ، لم يتسام الى درجة الشعراء المبرزين ، فأى تبريز فى قصيدة المباشرين التى مر بك بعضها ؟ وأى تجويد فى شعره على لسان الحمارة ، الذى وجهه لناظر الشرقية ويقول فيه :

يأيها السيد الذى شهدت أخلاقه لى بأنه فاضل
ما كان ظنى يبيعنى أحد قط ولكن صاحبى جاهل

هذا شعر ساقط فى غرضه ومعناه ، وأسلوبه على ما فيه من خطأ لغوى ، فسبحان من جمع لمثل هذا الشاعر بين مثل هذا الكلام ، مع : « أمن تذكر جيران » و « كيف ترقى رقيك الانبياء » .

وقصيدتاه البردة والهمزية هما أبلغ ما قال البوصيرى بل وقع الاجماع على أن البردة أفضل مدائح الرسول بعد بانت سعاد ونحوها من مدائح الصحابة ، واشتهر أن سبب نظمه لها أنه أصيب بالفالج فنظمها فى مرضه وتوسل بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشفاه الله ، وهذه القصيدة كانت نموذجا للشعراء ينسجون على منوالها ويحرصون على مجاراتها ، كما أنها كانت مثالا لأصحاب البديعيات يحتذونها لكثرة ما تضمنت من المحسنات .

ومن شعر البوصيرى يمدح أيدمر الامير التركى ، وهو طويل النفس فى هذه القصيدة فقد بلغت ٢١٠ من الأبيات :

أكرم بأيدمر الشمسى من بطل بذكره فى الوغى الابطال تفتخر

تخاف منه وترجوه كما فعلت   في قلب سامعها الآيات والسور
بنانه : من يداه الغيث منسكب   وسيفه : من سطاه النار تستعر
نهته عن لذة الدنيا نزاهته   وشرد النوم عن أجفانه السهر
وليس يضجره قول ولا عمل   وكيف يدرك من لا يتعب الضجر
يمسى ويصبح في تدبير مملكة   أعيا الخلائق فيها بعض ما يزر (١)
يكفيه حمل الأمانات التي عرضت   على الجبال فكادت منه تنفطر

وقال يمدح المقر الصاحبي الزيني زين الدين :

أهل التقى والعلم ، أهل السودد   وأخو السيادة أحمد بن محمد
لا تشركن به امرأ في وصفه   فتكون قد خالفت كل موحد
الشمس طالعة فهل من مبصر؟   والحق متضح فهل من مهتدى؟
إن الفتى من سودته نفسه   بالفضل لا من ساد غير مسود
والناس مختلفو المذاهب في العلا   والمذهب المختار مذهب أحمد
وفى علوم الأولين حقوقها   والآخرين ، وفاء من لم يجحد
فكأنه فينا خليفة آدم   أو آدم لو أنه لم يولد

ويقول من قصيدة يمدح بها أستاذه أبا العباس المرسى ويعزيه عن شيخه أبي الحسن الشاذلي ؛ وعدد أبياتها ١١٨ بيتا :

كتب المشيب بأبيض وبأسود   بغضاء ما بيني وبين الخرد
خجلت عيون الحور حين رمقتها   وصف المشيب وقلن لى لا تبعد
ولذاك أظهرت انكسار جفونها   دعد ، وأذن خدها بتورد
يا جدة الشيب التي ما غادرت   لنفوسنا من لذة بمجدد
إن الفناء لكل حي غاية   محتومة إن لم تكن فكأن قد

ويقول فيها في شأن الإمام الشاذلي :

إن الإمام الشاذلي طريقه   في الفضل واضحة لعين المهتدى
فانقل ولو قدماً على آثاره   فاذا فعلت فذاك آخذ باليد
واسلك طريق محمدى شرعة   وحقيقة ومحمدى المحتد
من كل ناحية سناه يلوح من   مصباح نور نبوة متوقد

---

(١) من وزر : بمعنى قام بالوزارة وهى معونة السلطان .

وقال يداعب بهاء الدين بن علي، ويشكو فقره وكثرة عياله :

يأيها المولى الوزير الذى   أيامه طائعـــة أمره
ومن له منزلة فى العلا   تكل عن أوصافها الفكره
أخلاقك الغر دعتنا إلى الـ   ـإبلاء فى القول على غره
ولم تزل تصـفح عن جـــنى   وتؤثر العفو مع القدره
إليك نشكو حالنا إننا   عائلة فى غاية الكثره
أحدث المولى حديثاً جرى   لى معهم بالخيط والإبره
صاموا مع النـاس ولـكنهم   كانوا لمن أبصرهم عبره
إن شربوا فالبئر زير لهم   ما برحت والشربة الجرة

ولما قال البوصيرى قصيدة البردة :

أمن تذكر جيران بذى سـلم   مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم (١)

جاءت رصينة فى تركيبها ، شريفة فى معانيها ، فكانت مدحاً لائقا بالنبي صلى الله عليه وسلم . ولما اشتهرت القصـيدة وشاع لها حديث بين القوم ، حرصوا على تقليدها وهم مقلدون بفطرتهم ، فجاء صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ، فكان أول من زاحم مدح رسول الله بغرض آخر ، وهو حصر أنواع البديع والتمثيل لها، فعمل بديعيته التى أولها :

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم   واقر السلام على عرب بذى سـلم (٢)

ثم جاء بعده جمال الدين بن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ ، فعمل بديعيته التى أولها :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر   ولمعة برق بالغضا تتسعر

ثم جاء بعده عز الدين الموصلى المتوفى سنة ٧٨٩ ، فجرى على نهج الحلى ، وزاد عليه أن جعل البيت من قصيدته يحمل اسم النوع البديعى ومثاله، وأول هذه البديعية :

براعة تستهل الدمع فى العلم   عبارة عن نداء المفرد العلم

ثم جاء بعده ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ ، فكان أول بديعيته التى راعى فيها ما راعاه عز الدين الموصلى قوله :

لى فى ابتدا مدحكم ياعرب ذى سلم   براعة تستهل الدمع فى العلم

---

(١) ذو سلم : موضع بالحجاز.   (٢) سلع : جبل بالمدينة .

ثم جاء بعده الإمام جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، فعارض بديعية الحوى بأخرى أولها :

من العقيق ومن تذكار ذى سلم براعة العين فى استهلالها بدم

ثم جاءت الشيخة الصالحة السيدة عائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٣ هـ ، فكانت لها بديعية أولها :

فى حسن مطلع أقمارى بذى سلم أصبحت فى زمرة العشاق كالعلم

وأخيراً توفى البوصيرى فى عام ٦٩٥ هـ ، وقبره بها مشهور .

وفى شعر البوصيرى الشاعر يقول الاستاذ حامد مصطفى من ترجمة كتبها له :

البوصيرى من شعراء الدرجة الثانية لا الثالثة ولا الأولى ، فشعره فى الجملة وسط إلا فى مدح رسول الله فانه فى الدرجة الأولى بين الأشعار وذلك لقوة استعداده لقرض الشعر وسلامة طبعه ، وتوفره على العناية بموضوعه ، وتعلقه الشديد بذات الرسول ، وتفانيه فى حبه وإجلاله لمقامه ، فأمدته العناية الإلهية بسبب إخلاصه لرسوله :

مديحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب يهدى صادق الكلم

فأبدع فى هذا الغرض ماشاء الله أن يبدع ، وأتى بالمطرب والمعجب ، وفاق فى هذا الميدان السابقين واللاحقين :

المادحون وأرباب الهوى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم

فى مدائحه هذه ترى اللفظ الموثق ، والأسلوب الجزل ، والمعنى الشريف ، والحكمة البالغة ، والبديع المستعذب لخفته ، وعدم تكلفه . . والاستعارة البديعة والتشبيه الأخاذ ، إلى متانة القافية وترابط المعانى ، وأخذ بعضها بحجز بعض . أما شعره فى غير المديح النبوى فدونه بكثير وإن كان فصيحاً قوياً ، لكنه عادى لا يستثير الإعجاب ، ولا يهز المشاعر إلا فى القليل النادر . وأقل من ذلك فى الجودة وأنزل لفظاً وأسلوبا : شعره الذى قاله على سبيل المداعبة ، يجرى فيه على سجيته ، ولم يحتفل له بل اتجه فيه إلى مستوى العامة ، فهناك ترى الاسفاف فى المعنى ، والنزول فى الأسلوب والألفاظ العامية الكثيرة تتزاحم وتتلاحق . فشعره على هذا ثلاثة أقسام : ماقيل فى مدح الرسول وهو فى الذروة من البلاغة والفصاحة ، وما وجه إلى الأمراء والوزراء وهو فى الدرجة الوسطى ، وماقاله لنفسه أو لغيره فى مداعباته وهزلياته وهو فى الدرجة الدنيا .

أما ألفاظه : فيغلب عليها العذوبة والرشاقة ، لاسيا أن احتفل القول ، واهتم به . وقد يلبسه حلية من البديع الخفيف الذى لا تكلف فيه فيزيده بهاء ورواء . ولكن يعيبها أحيانا ما يقع فيها من الأخطاء اللغوية والألفاظ العامية ، ويكثر ذلك فى دعاباته ومجونه . وليس هذا العيب خاصا به بل هو شائع فى عصره ، يشاركه فيه أقرانه ومعاصروه .

وأما أسلوبه : فرفيع الدرجة ، حسن العبارة إلا فى هزلياته ومداعباته ، وقد يقع فيه اللحن أو مجانبة الراجح من مذاهب النحاة بدافع ضرورة الوزن وتحكم القافية .

وأما معانيه : فى متناول الأيدى غالبا ويقل فيها التعمق والابتكار كما هو الحال فى شعر أهل عصره . . وثروته فى المعانى ليست بالواسعة ، ولذا كثر اعتماده على معانى السابقين وإن كان يصوغها صياغة جديدة محاولا أن يغطى بها سرقته . والفقره هذا تراه كثيراً ما يكرر معانيه ، ويصوغها فى أساليب مختلفة . وقد يعمد إلى معنى فتخونه العبارة ولا توصله اليه ولكنها بجوار هذا يكثر فيها من الحكم الصائبة والأقوال الجامعة مما لا ترى مثله لشاعر من شعراء عصره .

والخلاصة : أن لشعره محاسن وعيوباً ـ أما محاسنه فرشاقة اللفظ وعذوبته وسهولته وقوة أسلوبه ونصاعته وخفة بديعه ، وبراعة استعارته ـ وإن كان قليل الاستعارات ـ وكثرة حكمه ، ومتانة قوافيه وطول نفسه فى شعره كما فى الهمزية والبردة وغيرهما ، وتمثيل شعره لبيئته وتسجيله عادات قومه وألفاظهم وأمثالهم . هذا الى شرف موضوع شعره والاتجاه به الى أسمى المقاصد وأنبل الأغراض ، وهى مدح الرسول وصحابته والدفاع عن الدين .

وأما عيوبه : فكثرة الألفاظ العامية والأخطاء اللغوية والنحوية ، واعتماده على معانى غيره . وتكريره معانيه وخطؤه فيها أحياناً

وقد شرح الأستاذ محمد رضوان أحمد همزية البوصيرى شرحا جديداً ، سماه « الروضة الندية فى شرح الهمزية » ، وهو شرح جليل . وقد نشره الأديب الشاعر الأستاذ عبد الله زكريا الأنصارى الكويتى على نفقته .

الحلقات العلمية والأدبية فى جامع عمرو

حتى نهاية عصر المماليك

أحرقت مدينة الفسطاط عام ٥٦٤ هـ ، وأحرق جامع عمرو على يد ابن سعاقة بإشارة مؤتمن الخلافة جوهر الذى أمر بحرقه خوفا من أن يخطب فيه لبنى العباس .

فلما تولى صلاح الدين الملك جدد جامع عمرو عام ٥٦٨ هـ . ولما تولى القاضى تاج الدين بن عبد الوهاب قضاء مصر (الفسطاط) للمرة الثانية فى جمادى الأولى ٦٥٩ هـ(1) أيام الظاهر بيبرس ، عمل على عمارة المسجد ، وأكمل هذه العمارة السلطان بيبرس عام ٦٦٦ هـ ، كما أحدث فيه عمارة جديدة: المنصور قلاوون عام ٦٨٧ هـ ، والأمير سلار نائب السلطنة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٢ هـ ، وقايتباى عام ٨٧٦ هـ ، والأمير مراد بك نحو عام ١٢١٠ هـ .

وبجامع عمرو مقبرة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد دخلت فى المسجد بعد القرن الثامن ، وقد توفى عبد الله نحو عام ٦٤ هـ عن ٧٢ سنة .

وقد كان يقص بجامـــع عمرو : سليمان التجيبى عام ٣٨ هـ ، وجمع له القضاء إلى القصص .

وكان جامع عمرو منتدى علميا وأدبيا طول العصور ، وظل فى عصر المماليك كذلك ، تتعدد فيه الحلقات ، ويعلم فيه الأساتذة ، ونقل المقريزى عن محمـــد ابن عبد الرحمن بن الصائغ أنه أدرك بالجامع قبل وباء سنة ٧٤٩ بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم ، لاتكاد تبرح منه .

ويؤثر عن عمرو بن العاص خطبة ألقاها فى هذا الجامع العتيق ، روى عن ابن لهيعة عن الأســود بن مالك عن بحير بن ذاخر قال : رحت أنا ووالدى إلى صلاة الجمعة تهجيرا فأظلنا الركوع إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فذعرت . فقلت : ياأبت من هؤلاء ؟ فقال يابنى : هؤلاء الشرط . فأقام المؤذنون الصلاة ، فقام عمرو بن العاص على المنبر . فرأيت رجلا ربعة قصير القامة وافر

---

(1) ولى القضاء المرة الأولى مابين (٦٥٤ - ٦٥٥ هـ) ، ثم أعيد إليه مابين (٦٥٩ - ٦٦١ هـ) ، ثم أعيد إليه مرة ثالثة فى رمضان عام ٦٦٢ هـ ، وظل فيه حتى مات فى ١٧ رجب عام ٦٦٥ هـ (١٣٢ : ٢ المقريزى) .

الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن بها العقيان، تأتلق ، عليه حلة وعمامة وجبة ، فحمد الله وأثنى عليه حمدا موجزا ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم .

فسمعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام ويأمر بالاقتصاد وينهى عن الفضول وكثرة العيال وإخفاض الحال فى ذلك فقال: يامعشر الناس . إياكم وخلالا أربعا فانها تدعو إلى النصب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذلة بعد العزة إياكم وكثرة العيال ، واخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، فى غير درك ولا نوال . ثم انه لابد من فراغ يؤول إليه المرء فى توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصب الأقل ، ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه، فيجوز من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه غافلا .

يامعشر الناس . إنه قد تدلت الجوزاء ، وذلت الشعرى وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ووضعت الحوامل، ودرجت السخائل وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر فحى لكم على بركة الله تعالى إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وفراخه وصيده ، واربعوا خيلكم واسمنوها ، وصونوها وأكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا .. وإياكم والمومسات المعسولات ، فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم .

حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم فيكم صهرا وذمة فكفوا أيديكم ، وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم، ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه . واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم: معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية .

وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض .

فقال له أبو بكر رضى الله عنه: ولم يارسول الله ؟ قال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة ، فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم فتمتعوا فى ريفكم ماطاب لكم ، فإذا يبس العود وسخن الماء وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر ، فحى إلى فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال إلا ومعه تحفة لعياله على ماأطاق من سعته أو عسرته .. أقول قولى هذا واستحفظ الله عليكم (١)

وهذه الخطبة قطرة من بحر من بلاغات العرب التى كان جامع عمرو منتداها ، ومسرح فصاحاتها ؛ وقد ظل طول العصور عكاظ الأدب والبيان والهداية .

---

(١) المقريزى ٢ : ٢٦٠

الأدب فى عصر الأتراك العثمانيين

٩٢٣ — ١٢١٣ هـ

١٥١٧ — ١٧٩٨ م

تمهيد :

خضعت مصر للحكم التركى عام ٩٢٣هـ بانتصار السلطان سليم الأول على قوات طومان باى العسكرية ، فانهارت دولة السلاطين من المماليك واضطربت أحوال المجتمع وتفككت عراه ، وأصاب المدارس الركود ، وأصاب الأزهر كذلك ما أصاب المعاهد الاخرى من الذبول ، وفقدت مصر استقلالها ، وخضعت لحكم الاتراك العثمانيين سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧ م) ، وتقلص ظل الازدهار العلمى ، وانصرف كثير عن العلوم العقلية والفلسفية والرياضية والجغرافيا ، وأخذ القول بحرمتها يقوى شيئاً فشيئاً ؛ حتى تركت هذه العلوم من الأزهر وبقيت مهجورة ينظر اليها بعين السخط ، حتى صدرت بعد ذلك المصر فتوى من شيخ الازهر الشيخ الانبابى والشيخ محمد محمد البنا المفتى بجواز تعلمها ، وعدم حرمة تدريسها

وفى الحق أن الفتح العثمانى قضى على مظاهر النشاط الفكرى التى كانت مزدهرة فى عهد السلاطين ، فقد عنى الغزاة الأتراك عقب الفتح مباشرة بتجريد مصر الإسلامية من ذخائرها النفيسة فى الآثار والكتب ، وحمل كل ذلك الى القسطنطينية ، وقد قبض الغزاة على العلماء الاعلام والزعماء وقادة الفكر ، وبعثوا بهم جميعاً الى تركيا وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية الإسلامية وتضاءل شأن العلوم والفنون وانحط معيار الثقافة بعد أن كانت مصر موئل الثقافة ومحط العلماء بعد سقوط بغداد على أيدى المغول وانقضاء البقية الباقية من سلطان المسلمين فى الاندلس ، وبعد أن وجد العلماء من المماليك ما أملوا ووجد الإسلام فيهم حماة يقفون له كما وقف الايوبيون من قبل وكان ردهم للمغول فى موقعة عين جالوت على يد قطز حدثا تاريخياً حفظ الحضارة الإسلامية من معاول التتر ، ورفع شأن مصر وجعلها مهبط الثقافة الإسلامية والأمينة على تراث الإسلام منذ ذلك التاريخ حتى اليوم وقد تميز العصر التركى فى مصر بفتور الهمم عن التأليف والتدوين وانصراف المؤرخين عن تناول الشئون العامة والامور النافعة الى ملق الحكام والأكابر ، وتدوين سيرهم الشخصية وأما

العلماء فقد استكانوا إلى الراحة وظنوا أنه لا مطمع لهم فى الاجتهاد ؛ فاقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس ، فجهلوا الحياة وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث ، وما جد فى الحياة من علم ، وما جد فيها من مذاهب وآراء ، فأعرض الناس عنهم ، ونقموا هم على الناس ، فلم يؤدوا الواجب الدينى الذى خصصوا أنفسهم له ،

ولما فترت همة المتأخرين من العلماء عن التأليف . عمدوا إلى مصنفات السلف الصالح رضوان الله عليهم وشرحوها ، ثم عمدوا إلى الشروح فشرحوها ، وسموا ذلك حاشية ، ثم عمدا إلى الحواشى فشرحوها وسموا ذلك تقريراً ؛ فتحصل عندهم متن هو أصل المصنف ، وشرح ، وشرح شرح ، وشرح شرح الشرح ، وكانت النتيجة أن تطرق الابهام إلى المعانى الأصلية ، واضطربت المباحث ، واختلت التراكيب ، وتعقدت العبارات ، واختفى مراد المصنف .

ولما سيطر العثمانيون على جمهور المسلمين فى العالم رأوا أن يجمعوا لأنفسهم بين السلطتين الدنيوية والدينية ، فنقلوا الى القسطنطينية خليفة المسلمين على أيامهم ، وهو المتوكل على الله بن المستمسك بالله سنة ٩٢٣ هـ ، وهى سنة فتحهم لمصر (١)، وهناك نزل لهم عن حقه فيها ، فصاروا خلفاء المسلمين منذ ذلك الحين .

---

(١) فى سنة ٩٠٦ هـ تولى الملك الأشرف قانصوه الغورى . وفى سنة ٩١٧ هـ بدأت الحرب بينه وبين سليم العثمانى بمرج دابق بجهة حلب . ومات الغورى تحت سنابك الخيل سنة ٩٢٢ هـ ، فخلفه فى مصر طومان باى ، فساس الناس أحسن سياسة ، وكان نائبا عنه أيام تخلفه بالشام ، فاستتب الأمن ورضى الناس ، وفى آخر سنة ٩٢٢ هـ دخلت عساكر سليم مصر بعد أن تغلبوا على جند مصر ، وبعد أن كانوا فى بأس شديد من مجالدة طومان باى ، لأنه صابرهم ، وصمد فى وجوههم حتى هم سليم بالعودة إلى القسطنطينية ، لولا وقوع التفرق فى صفوف المصريين ، فان العرب خذلوا المماليك وقد لجأ طومان باى إلى شيخ العرب حسن مرعى . وكانت بينهما مودة سابقة ، ونعمة من طومان باى عليه ، إذ كان قد خلصه من سجن الغورى الذى لبث فيه مدة طويلة ، ولكن شيخ العرب حسن مرعى دل الأتراك على طومان باى ، فأحضره السلطان سليم وما إن وقع بصره عليه حتى صاح ورفع صوته شاكراً لله وقال : الآن

ومن ذلك العصر حرمت مصر والشام استقلالها ، وصارتا إمارتين من الإمارات الكثيرة التابعة لتلك الدولة الواسعة الأطراف ، وكانتا أهم البلاد التي تحيا فيها العربية وآدابها .

وكانت سياسة الدولة أن تطالب الوالي بمال مفروض يرسله إليها كل عام لا يهمها إلا الحصول عليه، غير عابئة بما يكون في سبيل جمعه من إرهاق وظلم . ولقد انضم إلى ذلك أيضاً حاجة هذه الدولة الناشئة إلى تجميل عاصمتها الجديدة ، فاستولت على كل ما حسن في نظرها مما رأته في البلاد المفتوحة ، وكانت مصر آهل تلك البلاد بالمحاسن فجردتها منها : أخذوا منها خزائن كتبها ، وقد كانت آهلة بها ، لأن عناية المماليك بالعلم ومعونتهم للعلماء ، وحرصهم على تصدير الكتب بأسمائهم ، قد خلف

فتحت مصر . وقد نوى استبقاءه تمجيداً لشجاعته. ولكن من حوله احتالوا لقتل طومان باى بأن أمروا جماعة من الغوغاء أن ينادوا حين مرور السلطان سليم بهم : « نصر الله السلطان طومان باى » ، فأوغر ذلك صدر سليم عليه وأمر به فشنق على باب زويلة ، وقد أراد السلطان سليم أن يجعل لمهاجمته لمصر مبررا من الشرع فاستفتى مفتيه على جمال الدين ، ووجه إليه هذه الأسئلة .

١ — إذا نادى أحد سلاطين الإسلام بالجهاد لإبادة الملحدين ، فصادفته عوائق بسبب المساعدة التي يبديها سلطان آخر من المسلمين ، فهل تبيح الشريعة للأول أن يستولي على ملك الثاني ؟ فكان الجواب نعم بالاستناد إلى الحديث الذي يقول : « من نصر كافراً فهو كافر » .

٢ — إذا كانت أمة من الأمم تدين بالإسلام (يريد المصريين) تؤثر تزويج أبنائها من الكفار (يريد الشراكسة) بدلا من تزويجهم من المسلمات فهل يجوز مقاتلة هذه الأمة ؟ فكان الجواب : لا شك في ذلك .

٣ — إذا كانت أمة تنافق في احتجاجها برفع كلمة الإسلام ، فتنقش آيات كريمة على الدراهم والدنانير مع علمها بأن النصارى واليهود يتداولونها هم وبقية الملاحدة فيدنسونها ويرتكبون أفظع الخطايا بحملها معهم إذا ذهبوا إلى بيوت الخلاء، فما ينبغي أن تعامل هذه الأمة ؟ فكان الجواب : إذا رفضت هذه الأمة الإقلاع عن هذه العادة جازت محاربتها .

فى مصر ثروة هائلة من تلك الكتب ، فوضع العثمانيون أيديهم على هذه الذخيرة، ونقلوها إلى عاصمتهم ؛ والحمد لله إذ كانوا غاصبين لامبيدين لإخوانهم كما فعل المغل الذين سبقوهم بالإغارة على الممالك الإسلامية . ولم يكتفوا بالعلم بل اختاروا أفاضل العلماء وكبارهم وذوى الشهرة الواسعة فيهم إلى القسطنطينية أيضاً ، يقصدون بذلك ابعادهم عن بلادهم ، والحيلولة بينهم وبين الشعب الذى يهتدى بآرائهم . ويعول على مشورتهم حتى يأمنوا الثورة عليهم والقيام بالعصيان لحكامهم، كما كانوا يقصدون بحشد هؤلاء العلماء فى عاصمتهم الانتفاع بهم فى تأثيل ملكهم الجديد . وبنائه على قواعد ثابتة . ولم يقف حرصهم على الانتفاع بمحاسن مصر عند هذا بل انهم أخذوا من رجال كل صناعة أمهرهم ، فنقلوا منهم العدد الجم . قال ابن إياس فى تاريخه بعد أن سرد أسماء كثيرين من الأمراء والعلماء والأعيان الذين وجهوا بهم إلى عاصمتهم: « وجماعة من السيوفية والصياقلة والسباكين والحدادين »، ثم قال فى موضع آخر : « وتوجه إلى اسطنبول (القسطنطينية) الكثير من البنائين والنجارين والحدادين وسواهم » .

الحياة الثقافية فى هذا العصر

— ١ —

نبغ فى هذا العصر عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء ، منهم : الشهاب الخفاجى المتوفى ١٠٦٩ هـ ، والبديعى المتوفى عام ١٠٧٣ هـ ، وعبد القادر البغدادى المتوفى عام ١٠٩٣ هـ صاحب خزانة الأدب ، والسيد مرتضى الزبيدى (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ) مؤلف تاج العروس، والصبان المتوفى عام ١٢٠٦ هـ .

ومنهم المحبى (١٠٦١ - ١١١١ هـ) مؤلف خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، والشعرانى المتصوف المتوفى عام ٩٧٣ هـ، وعبد الله الشبراوى المتوفى عام ١١٧٢ هـ وسواهم .

وقد تولى مشيخة الأزهر فى هذا العهد كما قال الجبرتى لاول مرة : الإمام محمد بن عبد الله الخرشى المالكى وقد توفى سنة ١١٠١ هـ وتولى بعده الشيخ محمد النشرتى وتوفى سنة ١١٢٠ هـ، وجاء بعده الشيخ عبد الباقى المالكى القلينى فلما مات تقلد بعده الشيخ محمد شنن المالكى المتوفى سنة ١١٣٣ هـ، ثم تولى بعده الشيخ ابراهيم بن

موسى الفيومى المالكى المتوفى سنة ١١٣٧ هـ ثم الشيخ الشبراوى وتوفى ١١٧١ فتولى المشيخة بعده الشيخ الحفنى المتوفى سنة ١١٨١ هـ ثم تولى المشيخة بعده الشيخ عبد الرؤوف السجينى وتوفى سنة ١١٨٢ هـ ثم تولى بعده الشيخ أحمد الدمنهورى المذاهبى وتوفى بمنزله ببولاق سنة ١١٩٢ هـ ، وبعد وفاته حصل نزاع فى تولى المشيخة بين الشيخين : عبد الرحمن بن عمر العريشى الحنفى وأحمد العروسى الشافعى مدة سبعة أشهر ، ثم آلت إلى الثانى وتوفى سنة ١٢٠٨ هـ ، فانتقلت المشيخة إلى الشيخ عبد الله الشهير بالشرقاوى وهو الذى أنشأ رواق الشراقوة ، وقد دخل الفرنسيون مصر فى أيامه وانتخبوه عضوا فى الديوانين : العمومى والخصوصى .

— ٢ —

ولقد نفى العثمانيون العلماء المصريين إلى القسطنطينية (١)، وانتزعوا الكتب من المساجد والمدارس والمجموعات الخاصة ليودعوها مكتبات العاصمة التركية . ومازالت منها إلى اليوم بقية كبيرة فى مكتبات استانبول ، ومنها مؤلفات خطية لكثير من أعلام القرن التاسع الهجرى المصريين مثل : المقريزى ، والسيوطى ، والسخاوى وابن إياس ، مما يند وجوده بمصر صاحبة هذا التراث العلمى .

وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية فى مصر عقب الفتح التركى، كما انهارت عناصر القوة والحياة فى المجتمع المصرى، وتضاءل شأن العلوم والآداب وانحط معيار الثقافة واختفى جيل العلماء الأعلام الذين حفلت بهم العصور السالفة، ولم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة التى أظلتها دولة السلاطين المصرية سوى آثار دارسة يبدو شعاعها الضئيل من وقت إلى آخر .

وقد أصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور واختفى من حلقاته كثير من العلوم التى كانت زاهرة به من قبل ، حتى إن العلوم الرياضية لم تكن تدرس به فى أواخر القرن الثانى عشر وقد لاحظ ذلك الوزير أحمد باشا والى مصر سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) فى نقاشه للشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر يومئذ وأنكره فى حديث أورده الجبرتى (٢) مما يدل على ما آلت

(١) فى ابن إياس مؤرخ الفتح العثمانى فصل خاص يذكر فيه أسماء مئات من الأكابر والعلماء المصريين الذين نفاهم السلطان سليم إلى قسطنطينية (بدائع الزهور جـ ٣ ص ١١٩ وما بعدها) .

(٢) عجائب الآثار جـ ١ صـ ١٩٣ .

اليه أحوال الدراسة بالازهر خلال العصر التركى من التأخر والركود

وكان بين الأساتذة الذين كانت لهم حلقات فى الجامع الأزهر فى أوائل العصر العثمانى : نور الدين على البحيرى الشافعى المتوفى سنة ٩٤٤ هـ ، والعلامة شهاب الدين ابن عبد الحق السنباطى المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، وعبد الرحمن المناوى المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، وشمس الدين الشيشينى القاهرى الشافعى ، والإمام شمس الدين أبو عبدالله العلقمى المتوفى سنة ٩٦٢ هـ والإمام شمس الدين الصفدى المقدسى الشافعى المتوفى فى حدود التسعين وتسعمائة (راجع فى تراجم هؤلاء العلماء : الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة ـ وهو مخطوط بدار الكتب) .

وكان منهم فى أواسط العصر العثمانى : عبد الباقى بن يوسف الزرقانى المالكى المتوفى سنة ١٠٩٩ هـ ، والعلامة شاهين بن منصور بن عامر الأرمناوى المتوفى سنة ١١٠١ هـ ، والعلامة شمس الدين محمد بن محمد الشهير بالشرنبابلى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ ، والإمام العلامة ابراهيم بن محمد شهاب الدين البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦ هـ ، والشيخ حسن بن على بن محمد الجبرتى جد الجبرتى المؤرخ وقد توفى سنة ١١١٦ والعلامة عبدالحى بن عبد الحق الشرنبلالى المتوفى سنة ١١١٧ هـ (راجع فى تراجم هؤلاء العلماء : عجائب الآثار للجبرتى ـ الجزء الأول) .

بعض مشهورى العلماء

١ ـ البديعى : (١٠٧٣ هـ) هو يوسف البديعى الدمشقى . خرج من دمشق فى صباه ، وحل فى حلب وذاعت شهرته . ومن مؤلفاته : هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ـ والصبح المنبي عن حيثية المتنبي (١)

٢ ـ البغدادى (١٠٩٣ هـ) هو عبد القادر بن عمر البغدادى نزيل القاهرة ، وكان فاضلا بارعا واسع الاطلاع على كلام العرب نظما ونثرا ، وكان يحفظ مقامات الحريرى وكثيراً من دواوين العرب ، وهو أحسن المتأخرين معرفة باللغة والأشعار والطرائف البديعة . خرج من بغداد إلى دمشق وتردد على القاهرة . وأخذ العلوم الشرعية والعقلية عن الشهاب الخفاجى وغيره . ومن أشهر كتبه ، خزانة الأدب ولب لباب العرب ، وهو شرح لشواهد شرح الكافية يتضمن تراجم كثير من

---

(١) خلاصة الأثر ج ٤ ص ١٠ .

الشعراء والأدباء ، وهو من المراجع النافعة (١)

وكان البغدادي غزير المادة ، محبا لاقتناء الكتب ، فكانت خزانة كتبه تشتمل على كثير من الكتب النادرة .

٣ – ومن أشهر المؤلفين في هذا العصر : الزبيدي وهو محمد بن محمد الشهير بالمرتضى الحسيني الزبيدي ، ولد سنة ١١٤٥ هـ ، ونشأ باليمن ، ورحل في في طلب العلم فنزل مصر سنة ١١٦٧ هـ ، واشتهر أمره وذكره بين العلماء والأمراء ، وألف رحلات لأسفاره ، ثم تجرد لشرح المحيط فأتمه في سنين عدة ، وسماه « تاج العروس » ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب مكتبته في جامعه ، أوعز إليه أن يقتني تاج العروس فاشتراه من مؤلفه بمائة ألف درهم ، وكان السيد مرتضى يعرف التركية والفارسية والكردية ، وقد عول في شرح القاموس على لسان العرب ، واستدرك على صاحب القاموس بعد كل مادة ما غفل عن ذكره من المفردات اللغوية . ومن مؤلفاته : « إتحاف السادة المتقين » وهو شرح لإحياء العلوم للغزالي ، وتوفي سنة ١٢٠٥ هـ .

٤ – الصبان (١٢٠٦ هـ) وهو أبو العرفان محمد بن علي الصبان . ومن مؤلفاته : حاشية على شرح الأشموني على الألفية ، وحاشية على شرح السلم في المنطق ، وحاشية على شرح السمرقندية في البيان ، وحاشية على آداب البحث ، ومنظومة في علم العروض .

٥ – نور الدين الحلبي (٩٧٥ – ١٠٤٤ هـ) وهو علي بن إبراهيم بن علي بن عمر الملقب نور الدين بن برهان الدين الحلبي . ولد بالقاهرة ، وتولى التدريس بالمدرسة الصلاحية . ومن مؤلفاته : إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون ، ويعرف بالسيرة الحلبية .

٦ – المحبي (١٠٦١ – ١١١١ هـ) هو محمد أمين المحبي بن فضل الله بن محب الله بن محمد محب الدين . ولد في دمشق ونشأ بها ثم سافر إلى الاستانة وأدرنه وانتقل إلى القاهرة وتولى القضاء بها . ومن مؤلفاته : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر .

---

(١) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٤٥١

٧ - المرادى (١٢٠٦ هـ) وهو أبو الفضل محمد خليل المرادى مفتى الحنفية ، ومن مؤلفاته : سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر .

٨ - ابن إياس (توفى حوالى ٩٣٠ هـ) هو محمد بن أحمد بن إياس من تلاميذ السيوطى . ومن مؤلفاته: بدائع الزهور فى وقائع الدهور ويعرف بتاريخ مصر لابن إياس .

٩ - الإسحاقى (بعد ١٠٣٢ هـ) هو محمد بن عبد المعطى الإسحاقى ، ومن مؤلفاته: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول . وفى ثناياه حكايات مخجلة .

١٠ - حاجى خليفة (١٠٦٧ هـ) هو مصطفى بن عبد الله ولد بالآستانة وانتقل إلى بغداد . وحج وسمى لذلك «حاجى» . وأشهر مؤلفاته: كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون .

١١ - برهان الدين الحلبى (٩٥٦ هـ) وقد تعلم فى حلب والقاهرة ، وله كتاب : ملتقى الأبحر فى الفقه الحنفى .

١٢ - خير الدين الفاروقى الأيوبى (١٠٨١ هـ) . ولد فى الرملة وتعلم فى الأزهر. وله : كتاب الفتاوى الخيرية لنفع البرية فى فقه الحنفية .

١٣ - شمس الدين الشربينى الخطيب (٩٧٧ هـ) ومن كتبه : شرح منهاج الطالبين للنووى فى فقه الشافعية .

١٤ - عبد الوهاب الشعرانى (٩٧٣ هـ) ولد فى ساقية أبى شعرة فى المنوفية وعاش متصوفا . ومن مؤلفاته : الميزان ومختصر تذكرة القرطبى .

١٥ - الصدر بن عبد الرحمن الأخضرى (نحو ٩٤١ هـ) وله كتاب : السلم فى المنطق ، والجوهر المكنون فى الثلاثة الفنون .

١٦ - شهاب الدين بن سلامة القليوبى (١٠٦٩ هـ) . ومن مؤلفاته : حكايات غريبة وعجيبة تعرف بنوادر القليوبى .

١٧ - داود بن عمر الأنطاكى (١٠٠٨ هـ) أصله من أنطاكية ورحل إلى الأناضول ثم إلى دمشق والقاهرة . وتوفى بمكة . ومن أشهر كتبه: تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب . وتعرف بتذكرة داود ، وهى فى علوم الطب وتزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق (١) .

---

(١) خلاصة الأثر جـ ٢ صـ ١٤٩ .

١٨ ـ طاش كبرى زادة المتوفى عام ٩٦٨ ، وهو أبو الخير أحمد بن مصلح ، ولد في بروسة وتفقه بها وبأنقرة ثم بالآستانة، وله :

مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، وهو كتاب أحصى فيه علوم العربية ، فبلغ قدرها ثلثمائة ، وطريقته فيه أن يذكر العلم ويعرفه ثم يسرد تاريخ نشأته ، وأشهر المؤلفات فيه ، وهو مطبوع بالهند من أمد بعيد .

١٩ ـ المقرى المتوفى عام ١٠٤١ هـ ، وهو أبو العباس أحمد بن محمد المقرى التلمسانى، تعلم بفاس ومراكش ، ثم نزل القاهرة ، وتزوج بها ، وحج خمس مرات، وأشهر مؤلفاته : نفح الطيب ، فى غصن أندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ـ وهو فى أربع مجلدات : ففى الأول والثانى : وصف الأندلس ، وبين محاسنها ، وما امتاز به أهلها من توقد الذهن ، وحرص على العلوم ، ثم تناول فتح المسلمين لها ، وما تعاقب عليها من الدول ، وذكر من رحل منها إلى المشرق ، ومن نزح إليها منه . وفى الجزأين الثالث والرابع ، ترجم لسان الدين ابن الخطيب ، وتوسع فى ذلك ماشاء ، فذكر آباءه وشيوخه ، وروى شعره ونثره وفصل تصرفه وما ختمت به حياته . وهى ترجمة مطولة لم يعهد فى العربية ترجمة مثلها فى الطول ، اللهم إلا ما كان من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا إسراف من المقرى ، لأن الإعجاب بنبوغ ابن الخطيب لا يصل إلى هذا الحد من الإفراط والإسهاب .

من جهاد العلماء العلمى

ا ـ من العلماء فى هذا العصر الصبان المتوفى عام ١٢٠٦ هـ ، وهو أبو الوفا محمد بن على الصبان المصرى ، وله :

١ ـ حاشية على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك .
٢ ـ حاشية على شرح السلم .
٣ ـ حاشية على شرح السمرقندية .
٤ ـ حاشية على آداب البحث .

ب ـ ومن أعلام هذا العصر الجبرتى ١١٦٧ — ١٢٣٧ هـ ، ١٧٥٣ — ١٨٢٤ م ، وهو مؤرخ مصر فى العصر التركى وأوائل حكم محمد على ، شهر بكتابه المشهور الذى يقع فى أربعة مجلدات كبار . . وفكرة كتابة التاريخ أو عزبها إلى الجبرتى أستاذه الشيخ مرتضى الزبيدى صاحب قاموس : تاج العروس ، ولكن الشيخ مرتضى مات بالطاعون

سنة ١٢٠٥ ولم يستفد من فكرته. وازدحمت الأحداث بعد ذلك فجاءت الحملة الفرنسية وأعقبها الإنكليز والأتراك وعمت الفوضى من جديد إلى أن تولى محمد على سنة ١٢٢٠ ، وكان الجبرتى قد تجاوز الخمسين من عمره فراح حينئذ يفكر فى كتابة تاريخه الذى راودته فكرته منذ خمس عشرة سنة فجمع ما كان تناثر عنده من أشتات المئات الأوراق والكراريس وشرع يدون أحداث المائة التى سبقته على ما هو معروف حتى وصلها بالاحداث التى عاش فى مدتها ، ثم بقى يتتبع الأمور عشرين سنة لا يني تحريرا وتحبيرا . وتنقيباً وتنقيراً . وقد وصف هو نفسه طريقة كتابته حيث قال : « انى لم أعثر على شيء من تراجم المتقدمين من أصل هذا القرن ولم أجد شيئاً مدونا فى ذلك إلا ما حصلته من وفياتهم فقط ، وما وعيته فى ذهنى ، واستنبطته من بعض أسانيدهم ، وأجازات شيوخهم . على حسب الطاقة » . وقال فى مكان آخر : « لم أخترع شيئا من تلقاء نفسى ، والله مطلع على أمرى وحدسى » . وهو يؤكد دائما أن روايته : « بحسب التيسير إذ التفصيل متعذر ، وجمع الشوارد فى الظلام متعسر ، وذلك بحسب الأمكان ، وما وعاه الفكر والذهن خوان » .

وتاريخ الجبرتى هو تاريخ عربى مصرى شرقى ، فهو يأتى مباشرة فى الترتيب بعد المقريزى وابن إياس ، ولولم يقيض الله الجبرتى لهذه الفترة من الزمن لما علمنا اليوم أنباءها إلا من مراسلات قناصل الدول وتجار الإفرنج وهم إنما يكتبون حسب أهوائهم وينهجون الخطة التى رسمتها لهم دولهم فى تقصى الحوادث والنظر اليها والحكم عليها . وحسب الجبرتى فخرا أنه أطلعنا على حقائق راهنة من وجهة نظرنا نحن ، أما عن غير الحوادث فقد ساير الحركة الاقتصادية والحياة الخاصة وصور العادات والرجال أحسن تصوير ، وأرخ للقاهرة وشوارعها ومتنزهاتها وقصورها وجال جولة واسعة فى كل مرفق من مرافق البلاد ، فهو إذن صورة صحيحة لعصره .

إن لكتاب الجبرتى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » أثراً كبيراً فى تاريخ مصر ، وقد أرخ فيه الجبرتى لمصر فى القرن الثانى عشر ولست وثلاثين سنة من من القرن الثالث عشر ، مؤرخاً للأحداث يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى ، تكلم على كل سنة بذكر من مات فيها من العلماء والأدباء والأمراء ، وله كتاب : « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » .

جـ ـ وهؤلاء أعلام من العلماء فى القرن الثانى عشر الهجرى . . . نذكر أسماء بعضهم فى إيجاز :

الشيخ محمد البناني : طلب العلم في الأزهر . وحضر دروس الشيخ الصعيدي والدردير وغيرهم ، حتى مهر وأنجب ودرس ومات سنة ١١٨٦ هـ عن ثلاثين سنة (١)

الشيخ حسن الشبيني ، رحل من بلدته فوه إلى الجامع الأزهر ، فطلب العلم وأخذ من الشيخ الديربي فجعله مليا عليه في الدرس (٢) وتوفي عام ١١٨٣ هـ

الفقيه الشيخ الخاق الحنفي من كبار علماء الشافعية ، تصدر للاقراء والتدريس بالأزهر عدة سنين . ثم تولى مشيخة إفتاء الحنفية بعد موت الشيخ حسن المقدسي (٣) وقد توفي عام ١١٨٧ هـ .

المحدث المقرى شمس الدين محمد بن قاسم البقرى شيخ القراء والحديث بصحن الجامع الأزهر (٤) .

والشيخ المحدث منصور بن عبد الرزاق الطوخي الشافعي إمام الجامع الازهر (٤)

شيخ الإسلام البراوي الشافعي الازهري . ورد الجامع الازهر وهو صغير فقرأ العلم على مشايخ عصره ، وتفقه على الشيخ مصطفى العزيزي ، وحضر دروس الملوي والجوهري والشبراوي ، وشهد له بالفضل أهل عصره وأحدقت به الطلبة، واتسعت حلقته، وقد صلى عليه في الأزهر في مشهد حافل (٥)، ودفن عام ١١٨٢ هـ

الفقيه الصالح الشيخ أحمد بن أحمد السنبلاوي الشافعي الأزهري ، كان عالما مواظبا على تدريس الفقه والمعقول بالجامع الأزهر ، ولازم على قراءة ابن قاسم بالأزهر كل يوم بعد الظهر وكان يحترف ببيع الكتب ـ توفي سنة ١١٨٠ هـ (٦)

الشاعر الكاتب محمد بن رضوان السيوطي الشهير بابن الصلاحي (١١٤٠ - ١١٨٠ هـ) (٧)

الفقيه المحدث شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن الحسن الخالدي الشافعي الازهري الشهير بالجوهري (١٠٩٦ - ١١٨٢ هـ) . وقد اشتغل بالعلم ، وجد في تحصيله حتى فاق أهل عصره ، ودرس بالازهر وأفتى نحو ستين سنة ، ومات فصلى عليه بالأزهر (٨) عام ١١٨٢ هـ .

---

(١) ٣٧٥ جـ ١ الجبرتي
(٢) ٣٣٨ جـ ١ الجبرتي
(٣) ٤٠٨ جـ ١ الجبرتي
(٤) ٨٨ جـ ١ الجبرتي
(٥) ٣١٢ جـ ١ الجبرتي
(٦) ٢٨٥ جـ ١ الجبرتي
(٧) ٢٦٥ - ٢٨٤ جـ ١ الجبرتي .
(٨) ٣٠٩ جـ ١ الجبرتي

الشيخ عبدالرؤوف بن محمد البشبيشي . ولد ببشبيش من أعمال المحلة الكبرى، وقد تصدر لتقرير العلوم الدقيقة والنحو والمعاني والفقه ، وانتفع به غالب مدرسي الأزهر . وتوفي سنة ١١٤٣ (١) .

الشيخ أبو الحسن البكري خطيب الأزهر (٢) .

شيخ مشايخ الاسلام عالم العلماء الأعلام الشيخ علي العدوي المالكي (١١١٢ - ١١٨٩ هـ) . وهو من بني عدي ، ومن مشهوري العلماء ، صلي عليه في الأزهر بمشهد عظيم ، ودفن بالبستان بالقرافة الكبرى (٣) عام ١١٨٩ هـ .
المفتي الفقيه الشيخ إبراهيم الشرقاوي . وكان لايفارق محل درسه بالأزهر طول النهار (٤) ، وتوفي عام ١١٨٥ هـ .

الشيخ علي الشاوري المالكي مفتي فرشوط قرأ بالأزهر العلوم . وقدم إلى مصر ومات بها وصلي عليه في الأزهر (٥) عام ١١٨٥ هـ .

الشيخ علي العدوي المالكي الأزهري (١١٠٠ - ١١٨٥ هـ) تلقى العلم في الأزهر ثم درس بالأزهر ونفع الطلبة (٦) .

الشيخ مصطفى الصاوي ، وقد تعلم في الأزهر ، ولازم الشيخ البراوي وتخرج به وأقرأ الدروس ، وكان شاعرا لطيفا وكاتبا مجيدا . وتوفي عام ١٢١٦ هـ (٧)
الشيخ محمد الخالدي الشافعي (١١٥١ — ١٢١٥ هـ) وقد كان من مشهوري علماء الازهر في عهده . . وله كتب كثيرة ، وصلي عليه بالأزهر في مشهد حافل ، رحمه الله (٨) .

السيد مصطفى الدمنهوري الشافعي من العلماء المشهورين المذكورين ، تفقه على أشياخ العصر ولازم الشيخ الشرقاوي الذي صار شيخ الازهر ، وكان يكتب على الفتاوى على لسان الشيخ الشرقاوي ويتحرى الصواب . . . ومات في عهد الفرنسيين مقتولا (٩).

---

(٢) ١٥٧ ج ١ الجبرتي
(٣) ١٦١ ج ١ الجبرتي — (٤) ٤١٥ و ٤١٦ ج ١ الجبرتي
(٥) ٣٦٩ ج ١ الجبرتي — (٦) ٣٦٧ ج ١ الجبرتي
(٧) ٣٦٧ ج ١ الجبرتي (٨) ٢١٣ - ٢١٧ ج ٣ الجبرتي (٨) ١٦٥ ج ٣ الجبرتي .

الشيخ عبد الرحمن الأجهورى المالكى ، من علماء الازهر الشريف ، درس بالازهر مدة أنواع الفنون فى الدين واللغة ، وتوفى سنة ١١٩٨ هـ (١)

الشيخ محمد بن على الصبان الشافعى الازهرى ، صاحب المؤلفات الذائعة المشهورة التى خلدت ذكره ، وتوفى سنة ١٢٠٦ هـ (٢) .

الشيخ أحمد العروسى الشافعى الازهرى (١١٣٣ – ١٢٠٨ هـ) حضر فى الازهر على شيوخه وعلمائه (٣) .

الشيخ شهاب الدين السمنودى المحلى الشافعى ، العالم الازهرى ، وقد قرأ بالجامع الأزهر ، وتوفى عام ١٢٠٩ هـ (٤) .

الشيخ أحمد السماليجى الشافعى المدرس بالمقام الأحمدى بطنطا . توفى عام ١٢٠٩ هـ (٥) .

الشيخ عبد الرحمن النحراوى الأجهورى ، درس بالأزهر وأفاد الطلبة وتوفى عام ١٢١٠ هـ (٦) .

وفى هذه السنة أيضا توفى الشيخ حسن الهوارى المالكى شيخ رواق الصعايدة (٧)

الشيخ عثمان بن محمد الحنفى المصرى الشهير بالشامى ، وتوفى عام ١٢١٠ هـ (٨)، وكذلك الشيخ شمس الدين الفرغلى الشافعى (٩) وله شعر عذب

الشيخ أحمد بن محمد السجاعى الأزهرى قدم الأزهر صغيرا فتمهر ودرس وأفتى وألف ، وترك آثارا علمية مشهورة ، توفى عام ١١٩٠ هـ (١٠)

الشيخ عطية الأجهورى الشافعى ، العالم الأزهرى ، وقد توفى عام ١١٩٠ هـ (١١)

الشيخ إبراهيم بن خليل الصبحانى الغزى الحنفى العالم الأزهرى ، وقد ولد بغزة وورد إلى الأزهر فتعلم فيه ، ثم عاد إلى غزة وتولى فيها الإفتاء ، وارتحل إلى

---

(١) ٣١٢ جـ ١ المرجع
(٢) ٨٥ وما بعدها جـ ٢ الجبرتى
(٣) ٢٢٧ – ٢٣٣ جـ ٢ الجبرتى
(٤) ٢٥٢ – ٢٥٤ جـ ٢ الجبرتى
(٥) ٢٥٩ جـ ٢ الجبرتى
(٦) ٢٦٠ جـ ٢ الجبرتى
(٧) ٢٦٢ جـ ٢ الجبرتى
(٨) ٢٦٣ جـ ٢ الجبرتى
(٩) ٢٦٣ جـ ٢ الجبرتى
(١٠) ٣ جـ ٢ الجبرتى
(١١) ٤ جـ ٢ الجبرتى

دمشق و تولى أمانة الفتوى . توفى عام ١١٩٠ هـ (١)

الشيخ محمد العوفى المالكى كان شاعرا ماجنا ، ومع ذلك كانت حلقة درسه فى الأزهر تزيد على الثلثمائة . مات سنة ١١٩١ هـ (٢)

الإمام الشيخ أحمد بن عيسى الزبيرى الشافعى البراوى من علماء الأزهر ، ولد بمصر وبها نشأ وحضر دروس مشايخ الوقت ، ولما توفى والده أجلس مكانه فى الأزهر ، وقد توفى بطنطا عام ١١٩٢ هـ ، وصلى عليه بالأزهر ، ودفن بتربة المجاورين (٣)

الشيخ محمد العدوى من علماء الأزهر ، درس فى الأزهر ودرس فيه ، و توفى عام ١١٩٣ (٤)

الشيخ شهاب الدين أحمد السجاعى الشافعى الأزهرى ، من علماء الأزهر ، ولد بمصر ونشأ بها و تصدر للتدريس فى حياة أبيه و بعد موته فى مواضعه ، وصار من أعيان العلماء : و توفى عام ١١٩٧ هـ (٥)

الشيخ عبد الله بن أحمد المعروف باللبان الشافعى الاحمدى الازهرى المتوفى عام ١١٩٨ هـ (٦) ، والشيخ محمد الاحمدى م ١١٩٩ (٧)

الشيخ محمد الحفنى الشافعى وكان من خيار شيوخ الأزهر (٨) وتوفى سنة ١٢٢١ هـ.

والشيخ سليمان البجيرمى الشافعى من علماء الازهر المشهورين (٩)

الشيخ أحمد البرماوى الشافعى (١١٣٨ - ١٢٢٢ هـ) .. وكان من الشيوخ الاجلاء (١٠)

الشيخ ابراهيم الحريرى مفتى مذهب السادات الحنفية كوالده ؛ وقد توفى عام ١٢٢٤ هـ (١١) .. وتوفى فى هذا العام الشيخ عبدالمنعم العماوى المالكى وهو من كبار الشيوخ .

الشيخ محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقى المالكى الازهرى من علماء البلاغة ،

---

(١) ٤ جـ ٢ الجبرتى (٢) ١٥و١٦ جـ ٢ الجبرتى (٣) ٣٥ جـ ٢ الجبرتى
(٤) ٥٨ جـ ٢ الجبرتى (٥) ٧٥ جـ ٢ الجبرتى (٦) ٨٤ جـ ٢ الجبرتى
(٧) ٩٤ - ٩٥ جـ ٢ الجبرتى (٨) ٢٤ جـ ٢ الجبرتى (٩) ٢٤ جـ ٤ الجبرتى
(١٠) ٧٦ جـ ٤ الجبرتى (١١) ١٠٤ جـ ٤ الجبرتى

تصدر للاقراء والتدريس بالأزهر وإفادة الطلبة ، وكان فريدا فى تسهيل المعانى ، وتوفى عام ١٢٣٠ هـ ، ودفن بتربة المجاورين (١)

الشيخ محمد الأمير المالكى الأزهرى (١١٥٤ – ١٢٣٢ هـ) من كبار الشيوخ الأجلاء فى الأزهر (٢)

بعض مجالس الأدب

كانت أمور مصر فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى قد خلصت إلى اثنين من الزعماء : أحدهما الأمير إبراهيم ، والآخر الأمير رضوان . وقد أصبحا صاحبى الأمر فى البلاد لاينازعهما إلا المنافسون فى دخائل صدورهم ، وأما ظاهر الأمر فلم يكن لهما فيه شريك . حتى إن الباشا العثمانى الذى كان يمثل السلطان لم يكن له إلى جانبهما أمر ولا نهى . ولقدكان لكل من هذين الأميرين اتجاه يتجه إليه فى رياسته ، فكان إبراهيم صاحب السلطان ، وقائد الجيوش ، ومدبر السياسة ، على حين كان رضـــوان مؤلف القلوب ، وقبلة القصاد ، وكان الأميران على اختلاف اتجاهيهما متفقين متآلفين ، فقضيا فى رياستهما سبع سنين ونيفاً . وكان بيت رضوان يتألق بالأنوار الساطعة ، ويخلع عليه الفن المصرى رواءه ، وتجمع فى أبهائه هامات العصر من الأدباء والعلماء ، وقدكان بمصر حينئذ فى الحق أدباء وعلماء ، على رغم من يتهم هذا العصر بالظلمة والانحطاط .

وهناك على ضفة الخليج المصرى كما يقول بعض المؤرخين اشترى رضوان داراً من أحد أكابر التجار ، كانت واقعة على بركة الأزبكية ، وموضعها اليوم مايلى حديقة الأزبكية وميدان الأوبرا ، وكانت تلك البركة إذذاك متنزهاً من متنزهات القاهرة المحبوبة ، تحيط بها بيوت أعيان التجار والأمراء . وكان للأمير رضـوان فوق ذلك فى الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة منظرة بديعة تطل من الغرب على الخليج الناصرى ، والجنوب على بركة الأزبكية ، ومن الشمال على بركة أخرى استحدثها الأمير بتوسيع مجرى الماء فى الخليج القاهرى مما يلى قنطرة الدكة . وقـــد نسق الأمير قصره أبدع تنسيق ، وجعل لها حدائق فسيحة نقل إليها بديع الزهر والشجر ، وأقام فى أركانها الجواسق الجميلة . وجعل فى جوانب الحدائق مما يلى البركة قناطر

(١) ٢٣١ ج ٤ الجبرتى . (٢) ٢٨٤ ج ٤ الجبرتى .

تجرى المياه من تحتها ، واتخذ فوق تلك القناطر مجالس للنزهة والاسترواح ، وأما داخل القصــــور فكانت القباب العالية المحلاة بذوب العسجد ، واللازورد ، والزجاج الملون ، وقد نقشت أعاليها وأسافلها بأروع النقوش وأدقها . وكانت الأنوار تسطع فى هذه القباب فى أثناء الليل ، فتكاد تخطف الأبصار من بهائها وروائها

وفى هذه الأبهاء التى تأخذ بمجامع القلوب كان يجتمع أدباء العصر وأعيان العلماء يتسامرون فى حضرة الأمير ، ويتجاذبون أطراف الملح والنوادر فى حشمة ووقار لا يخرج عنهما أحد . وكان من هؤلاء أديب العصر الأعظم : قاسم بن عطاء الله المصرى ، وصديقه مصطفى أسعد الدمياطى ، وإلى جانبهما مجمع باهر من شيوخ وشبان ، بعضهم للجد والوقار كالشيخين : الشبراوى والحفنى ، وبعضهم للفكاهة كالشيخ عامر الأنبوطى المشهور فى الهجاء .

اجتمع مجلس الأدباء يوماً فى القصر ، وإذا الأمير يسأل عن أحدهم فلا يجده . قال : « أين ابن الصلاحى ؟ » ولم يكد ينتهى من سؤاله حتى ردد جانب البهو صوت جهورى ينشد :

شاق طرف السرور ظرف الربيع   فتملى بحســــن تلك الربوع
ما ترى الزهر ضاحكا لبكاء الـــ   طل من در قطره بالدموع
وغصــون الرياض تخلع أثوا   ب التدانى على الندى الخليع
فأنــنا بجمع إخوان صــــدق   زان طبع الوفاء قدر الجميع
يا صلاحى أرح فؤادك والبس   من بشير اللقا قميص الرجوع

فالتفت الجلوس كلهم نحو القادم فإذا هو الذى كان يسأل الأمير عنه ، وصاح الشيخ عامر قائلا : « لقد ذكرنا القط . . . . » فضحك الجمع ولم يمتنع عن الضحك الأمير ، وجلس الأدباء بعضهم إلى بعض فى أنحاء البهو الأعظم من قصر رضوان ، وجلس الأمير على سرير عال من آيات الفن المصرى ، جوانبه من الخشب المخروط ، تكتنفه وتتخلله رسوم من العاج والآبنوس والصدف ، وقد كسيت جوانب السرير بالحرير الملون البديع ، تتغير ألوانه فى ضــــوء المصابيح المتألقة كما تتغير الألوان إذا وقع الضوء على رقاب الحمام القرمزى الداكن .

واتجه الأمير إلى الأديب الأكبر ابن عطاء ، وأقبل عليه باسما ، وقال له : « ماذا جئت به اليوم يا ابن عطاء ؟ لقد رأيتك بالأمس تسير بين أشجار

البستان ، فقلت فى نفسى لا بد أنك متحفنا اليوم بشىء جديد » .

فابتسم الاديب وقال : « الحق ما تقول أيها الامير ، دامت نعمتك ، وأقر الله أعيننا ببقائك ، وعلو دولتك » .

فقال له الامير : « إذن فهات ، وقد أحضرت لك الشيخ عامر الانبوطى عمداً » .

فصاح الاديب ابن عطاء وهو باسم وقال : « أعوذ بجاهك منه أيها الامير » .

فصاح عند ذلك الشيخ متدخلا فى الحديث « وماذا تخشى يا ابن عطاء ؟ أليس لكل منا فنه ؟ » .

فنظر إليه ابن عطاء وهو باسط يديه بسطة الرجاء وقال : « لقد عنت بكنف الامير من لسانك ، فدونك سواى إذا شئت » .

فقال الامير ضاحكا : « إذن أنا مجيره منك يا شيخ عامر » . وضحك الشيخ عامر وقال : « إذا شئت أيها الامير ، فلقد والله قضيت الليلة الماضية أشحذ لسانى وذهنى لنزاله . وقد والله فوت على فريستى » .

فضحك الندى ، وأنصت بعد لأى لمدحة الأديب ابن عطاء : فأنشأ يقول :

بكت بدمع الطل عين النرجس　　　فأضحكت ثغر الأقاح الألعس

واستمر فى مزدوجته يصف البستان حيناً والماء حيناً . يقول منها :

حديقة بها السرور محدق　　　جدولها مسلسل منطلق

فى جوه نجم الزهور مشرق　　　والبان ظله غدا يسترق

من وجنة الماء احمرار الورد

ثم تخلص إلى ذكر الحب على سنة الاقدمين من الشعراء ، وتخلص من ذلك إلى مدح رضوان فقال :

دع علة التعليل بالأمانى　　　واقصد حمى الموصوف بالامان

وانف لباس البؤس والاحزان　　　واسأل عن النعيم من رضوان

سل ما تريد ، لا تخف من رد

مليكنا جلت لنا أوصافه　　　لم يبد فى غير العطا إسرافه

ضياؤه قرت به أضيافه　　　تفعل فى جيش العدى أسيافه

ما يفعل الصرصر يوم الحصد

إلى أن أكمل مدحته بين اهتزاز الأمير وإعجاب السامعين ، لولا ابتسامة عابثة من الشيخ عامر وهو ينظر إلى الأمير .

. فقال له الامير : « وما تستطيع أن تقول فى هذا ياشيخ الهجائين ؟ » فقال الشيخ : « لا أقول فى هذا شيئاً مادام فيه ذكرك ومديحك . أيها الأمير : ولكنه لو لم يستعذ بك وجدنى قائلا » .

فتحرك الأديب ابن عطاء حركة غضب وأنفة وقال :

أيسمح لى الامير أن أرد عليه جواره إلى حين ، لا حرمنى الله جوارك فان هذا الشيخ قد ظن أننى أتوارى منه ضعفاً » ، فتبسم الأمير وقال : « نازله بقصيدة أخرى جديدة إذا شئت » .

فصاح الشيخ عامر وظنها فرصة فى ابن عطاء فقال : « أصبت القصد لا زلت موفقاً أيها الأمير » .

فاهتز ابن عطاء وقال : « نعم إذا شئت أيها الأمير ، إن عفوى خير من إعدادى ، وإذا شئت قلت » .

فأذن له الأمير وتطلع الحاضرون إلى الأديب يظنون أنه سيسف ويتعرض لطعنات منازله الهجاء . فقال ابن عطاء :

ترك الهجر ووافى كرما   بعد ما كان لعهدى قد نسى
أهيف القد كغصن علما   من نسيم الروض فى الميس

فاهتز الأمير وقال : « هيه يا ابن عطاء » .

فسرت فى الشاعر هزة جديدة واستمر يقول :

مفرد فى الحسن ثنى معجبا   ألف القد بشكل حسن
غصن بان هزه ريح الصبا   خده يزهو على الورد الجنى
ساحر الجفن أرانا عجبا   أسره للأسد حال الوسن

وما زال بالسمط وراء السمط ، والعقد من بعد العقد ، حتى تخلص إلى مدح الأمير على عادته إلى أن ختم موشحه قائلا :

كفه الغيث على الناس همى   فأعاد الخصب بعد اليبس

حالة النثر فى هذا العصر

لما فتح العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ ﻫ كان النثر قد وصل إلى منتهى ضعفه وإذا كنا قد عبنا النثر فى عهد المماليك بكثرة ما فيه من تكلف أنواع البديع فماذا تقول اليوم ، وقد عجز الكتاب عن أن يصلوا إلى هذه المرتبة فحاولوا البديع فلم يستطيعوا أن يأتوا بشىء له قيمة فنية ، وترددوا فى الحضيض وأتوا بالغث السمج الذى إن حسن فيه شىء كان سرقة واغتصابا من بقايا آثار من سبقوهم من الكاتبين ؛ على أن الضعف فى اللغة وأصولها تدلى إلى درك صار فيه كثير من الكتاب عاجزا عن التحرز من اللحن وماذا يكتب الكاتب أو يبدع الفنان والخوف يملأ جوانبه والناس لاهون عن الاستماع إليه بما هم فيه من ضيق وشقاء ؟ . وقد أبطل العثمانيون ديوان الإنشاء فطوى بذلك للعربية والأدب العربى عصر زاهر مجيد ، وحلت اللغة التركية محل العربية وأصبحت لغة الكتابة والدواوين ، وغزت العربية بكثير من الكلمات التركية التى تفشت فى كتابة الأدباء فى ذلك الحين تظرفا وتشبثا بمحاكاة العناصر الحاكمة المسيطرة على العالم العربى . وما زال إهمال الملكات يزداد والجهل بأصول الكتابة يتسع ، حتى صار من يحاول التعبير عن خلجات نفسه فى شوق أو شكوى ، أو تهنئة ، أو تعزية لا يجد من نفسه قدرة على التعبير عن ذلك ، فهو يقلب الدفاتر ويتصفح الكتب ليرى صورة التعبير التى قدر عليها غيره فيستعيرها ويستر بها جهله ، ولما شاع هذا الضعف وجد بعض النابهين من الكتاب فى هذه الحاجة من إخوانهم وسيلة إلى الكسب فألفوا نماذج إنشائية تصور الوجدانيات من عتاب ، وشوق ، واستزارة ، ومقاطعة إلى غير ذلك فراجت بين الناس تلك الكتب كما راجت قبلها دواوين الخطب المنبرية بين الخطباء . وقد وصل إلينا من ذلك النوع كتاب بديع الإنشاء والصفات فى المكاتبات والمراسلات للشيخ مرعى المتوفى سنة ١٠٣٠ ﻫ وكتاب إنشاء العطار للشيخ حسن العطار شيخ الإسلام المتوفى سنة ١٢٥٠ ﻫ ، ولا شك أن عصرا لا يجد فيه أغلب كتابه وسيلة للتعبير عن مرادهم لا يزيد فيه شأن إخوانهم القادرين على ذلك عن التورط فى الخطأ والتعثر فى الركاكة والحرص على المبالغة التى تستدعى نظر مرتكبها ، فأما البديع والتلاعب بأنواعه والتبارى فى صياغتها من : تورية واستخدام وجناس واقتباس ، فذلك

ماعجزوا عنه لأنه وإن كان تكلفاً إلا أنه صنعة تحتاج إلى حذق ويستلزم من محاولها قدرة على تنويع القول وغنى فى ألفاظ اللغة وذلك كله شىء قد فات حرص هؤلاء الكتاب .

صور من النثر فى هذا العصر

١ ـ قال الشهاب الخفاجى فى ترجمة الرئيس داود الحكيم (١) :

ضرير بالفضل بصير ، كأنما ينظر ماخلف ستارة الغيب بعين فكر خبير : لم تر العين بل لم تسمع الآذان ولم تحدث بأعجب من مسائلة الركبان إذا جس نبضاً لتشخيص مرض عرض أظهر من أعراض الجواهر كل غرض فيفتن الأسماع والأبصار ، ويطرب بجس النبض مالا يطربه حسن الأوتار :

يكاد من رقة أفكاره يحول بين الدم واللحم
لو غضبت روح على جسمها ألف بين الروح والجسم

فسبحان من أطفأ نور بصره وجعل صدره مشكاة نور ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، وله فى كل علم سهم مصيب ومنطق على بتهذيب التهذيب ، وكنت قرأت عليه الطب وغيره فى سن الصغر ، فسمعت منه مايغار له نسيم السحر ، ويطرب من لطفه نغمات الوتر ، ينثر فيه نثار العلوم ، على عرائس المنثور والمنظوم (٢) .

٢ ـ ومما كتبه عبد الوهاب الحلبى إلى الشهاب الخفاجى :

« لقد طفحت أفئدة العلماء بشراً ، وارتاحت أسرار الكاتبين سرا وجهرا ، وأفعمت من المسرة صدور الصدور ، وطارت الفضائل بأجنحة السرور بيمن قدوم من اخضرت رياض التحقيق بأقدامه ، وغرقت بحار التدقيق من سحائب أقلامه »

وهذا كلام لا يحتاج إلى تعليق ففيه أن البحار تغرق ، وفيه أن الفضائل تطير وفيه أن للتحقيق رياضا ، إلى غير ذلك من اللغو والسخف .

---

(١) هو داود بن عمر الحكيم صاحب كتاب تذكرة أولى الالباب فى علوم الطب.
(٢) ريحانة الالبا صـ ٢٧١ .

الشعر فى عصر الأتراك

صور من الشعر فى هذا العصر

١ ـ الشهاب الخفاجى (١) : يتغزل ويتطرق إلى مدح محمد بن القاسم الحلبى (٢) :

حتام يغزونى صدوده ... والصبر قد كثرت جنوده (٣)
لم أدر فاتر جفنه ... والخصر أسقم أم عهوده ؟ (٤)
نشوان يعبث بى كما ... عبثت بآمالى وعوده (٥)
لولا مياه الحسن جا ... لت فيه لاحترقت خدوده
كالصب لولا دمعه ... يهمى لأحرقه وقوده (٦)
يخفى الهوى وعيونه ... بغرامه المضنى شهوده
في رياض الحسن من ... دمعى حيا يهمى مديده (٧)
زمن بجيد اللهو قد ... نظمت على نسق عقوده (٨)
إذ دوح أنسى يانع ... يكسونا انفتحت وروده (٩)
والكأس نجم لاح فى ... فلك المسرة لى سعوده
يصفو فيخلى ذكر من ... قد زين الدنيا وجوده
ذاك ابن قاسم الذى ... ما زال فى تعب حسوده

٢ ـ وقال السيد عبد الرحيم العباسى يصف ضعفه :

---

(١) ولد فى سرياقوس وتعلم بمصر ، ثم رحل إلى الحرمين فالآستانة ، وكان من رجال اللغة والأدب ، توفى سنة ١٠٦٩ هـ .

(٢) أجابه محمد على هذه القصيدة بقصيدة

(٣) حتام أصلها (حتى ما) لحذفت ألف ما الاستفهامية لجرها بحتى . يغزونى يسير إلى قتالى وانتهابى . والصدود : الإعراض .

(٤) جفن فاتر : غير حاد النظر ، والخصر : وسط الإنسان . والعهود : المواعيد

(٥) النشوان : السكران . ويعبث بى : يلعب بى . (٦) الصب : المشتاق الذى يكابد حرارة الشوق . يهمى : يسيل . وقوده : اتقاده واشتعاله .

(٧) الحيا : المطر . المديد : الممدود المتصل . (٨) نسق : نظام واحد .

(٩) الدوح : الأشجار العظيمة . والورود : جمع ورد .

أرعشني الدهر أي رعش ... وكنت ذا قوة وبطش
قد كنت أمشي ولست أعيا ... فصرت أعيا ولست أمشي

وقال يشكو من الأصدقاء :

مالي أرى أحبابنا في الناس ... صاروا كمثل حبابنا في الكاس(١)
بينا يروقك عند أول نظرة ... كاللؤلؤ المتناسق الأجناس
فإذا أعدت الطرف فيهم لم تجد ... شيئاً ، وصار رجاؤهم كالياس

وقال في الحكمة :

حال العقل ناطق ... عما خفي من عيبه
فإن رأيت عارياً ... فلا تسل عن ثوبه

٣ ـ وقال محمد بن القاسم الحلبي يجيب الشهاب الخفاجي على قصيدته الدالية السابقة :

للظبي لفتته وجيده ... وللورد ما أبدت خدوده
والدر يزهو بالذي ... في ثغره منه نضيده(٢)
وبوجهه شرك العقو ... ل فأي عقل لا يصيده(٣) ؟
في كل يوم للهوى ... من حسنه معنى يزيده
يستوقف الأبصار حتى ... لا يسوغ لها وروده
ملك تحكم في الجما ... ل فنال منه ما يريده
مازال يسطو في الورى ... من فعل مقلته جنوده
حتى ظننا أنه ... بالأجر آثره شهيده
يبدي الصدود وكلما ... صانعته عنه يعيده(٤)
أتراه يجحد ما لقيت به وهل يغني جحوده
وهو النهار إذا بدا ... من نفسه قامت شهوده
كضياء مولانا شها ... ب الفضل إذ طلعت سعوده
مازال يسمو في سما ... ء المجد زينها وجوده !

---

(١) الحباب : ما يرى على الماء من الفقاقيع ولا يلبث أن يفنى .
(٢) النضيد : المتسق المرصع (٣) الشرك : المصيدة .
(٤) صانعته عنه : أي حاولت أن أرده عنه ، وأغريه بالوصل .

حتى تقطعت المطا مع عنه واستحق حسوده
وقاد فكر ، أى خطب ليس يطفئه وقوده (١)
كرمت له همم إلى غير العلا ليست تقوده
يزهو على جيد الزما ن بما ينمقه فريده (٢)
من كل سجع من مزا يا الحسن قد نظمت عقوده
وإذا ذكرت الشعر فهو كما سمعت به لبيده (٣)
قد كنت أجهد فى ابتغا ء لقاء أيام تفيده
حتى وفت لى بالذى قد كان فى أملى وعوده
فلقيته البحر الخضم يفيض للعافين جوده
متدفقا بالفضل تخشى أن يفرقها وفوده
مولاى ، عذراً إنها من خاطر قد جف عوده
بعدت بقول الشعر فى عهد الصبا حينا عهوده
لبى دعاك ، وأى مو لى لا تلبيه عبيده ؟
ما ضره عبد نأى ما دام من لقياك عيده

٤ ـ وقال أحمد بن على العلقمى فى المدح :

بأبصارنا وجهك المذهب يكاد سنى برقه يذهب
وأشواقنا فيك لا تنقضى وشمس جمالك لا تغرب
وحبك فى الماء مستودع وأشربه كل من يشرب
وفى كل عين وقلب به مشيرا لك المنزل الأرحب
وذاتك جنة أهل النهى ونفسك عنصرها أطيب
فمن غير نطقك لا نشتفى ومن غير ذاتك لا نطرب
وكم لك من رتب فى العلا تعالى العلا إذ لها ينسب (٤)

---

(١) وقوده : انقياده (٢) الفريد : صغار اللؤلؤ تفصل بين العقد المنظوم من اللؤلؤ والذهب ، ويريد الشاعر أن ما يكتبه الممدوح من نثر وشعر يكون كالعقد المفصل فى جيد الزمن (٣) لبيد : شاعر جاهلى وأحد أصحاب المعلقات
(٤) أى أن العلا يشرف ويسمو إذا حصلت على رتبة عالية .

٥ - وقال عبد الرحمن بن عماد الدين فى الموت وطلب الرحمة :

قد شاب فودى حين شاب فؤادى　　فكأنما كانا على ميعاد (١)
حسن الخواتم أرتجى من محسن　　قدمن لى قدما بحسن مبادى
وعمادى التوحيد فهو وسيلتى　　فى نيل ما أرجوه عند معادى (٢)
إن قيل . أى سفينة تجرى بلا　　ماء وليس لأهلها من زاد
قل . رحمة الرحمن من أنا عبده　　تسع العباد ، فمن هو ابن عماد

٦ - وقال الأمير محمد بن منجك فى الغزل :

تناهى عنده الأمل　　وقصر دونه العذل (٣)
رشا يفتر عن برد　　تكاد تذيبه القبل (٤)

٧ - وقال الأستاذ الإمام أبو المواهب البكرى يصف يوم مرح وأنس :

يا يوم بولاق وأنسى به　　حكاك من شوال يوم الهلال
وأقبل النيل جنوبا ، وما　　من عارض إلا نسيم الشمال (٥)
يا عارضا أوجب للنيل ما　　سلسله ، وهو طليق المجال (٦)
وقهوة تنضح مسكا ، ولا　　بدع ، فنى الفنجان شكل الغزال (٧)
حبابها من فوقها مانع　　نقاره ، فهو شباك اللآل (٨)
تديرها هيفاء ممشوقة　　خود تثنت فى برود الدلال (٩)

---

(١) الفود : الشعر على جانب الرأس مما يلى الأذنين . (٢) المعاد : الحياة الأخرى . (٣) تناهى . انتهى ، والعذل . اللوم والعتاب . (٤) رشا . أصله رشأ فسهلت همزته ، وهو الظبى إذا قوى ومشى مع أمه ، يفتر : يضحك ضحكا حسنا . البرد : حب الغمام يشبه به الأسنان . القبل جمع قبلة . (٥) عارض : مانع يمنع من المضى . (٦) سلسله أجراه فى حدور . طليق المجال غير مقيد فى جولانه وسيره . (٧) القهوة من أسماء الخمر . لا بدع معناه لا عجب . والمسك : من دم دابة كالظبى يقال لها غزال المسك والمعنى أن هذه الخمر يفوح منها طيب كالمسك ولا عجب ، فإن صورة الغزال على الفنجان الذى به الخمر .

(٨) الحباب نفاخات الماء التى تعلوه . واللآل اللآلى .

(٩) الهيفاء ضامرة البطن رقيقة الخصر . ممشوقة : حسنة القوام . الخود : الحسنة الخلق الشابة ، تثنت : تمايلت ، البرود : الثياب . الدلال هو جرأة المرأة فى تكسر ،

كاد حجا من أقبلت نحوه ... يذهب من رنات تلك الحجال(١)
بغرة أو طرة وزعت ... أفكارنا بين الهدى والضلال (٢)
تقول للشمس ، وقد أقبلت : ... تلثمى ما أنت إلا خيال

٨ - وقال الشيخ عبد الله الشبراوى(٣) فى السيد عبد القادر نقيب الأشراف الذى حضر من البلاد الرومية ، وبعد أن بات ليلة وجد مذبوحا :

أيها القوم ويحكم ! قد هدمتم ... بنية الله ، واتهمتم عباده(٤)
وذبحتم هذا المهذب غدراً ... وقطعتم بغلظة أورادهم(٥)
ثم نحتم عليه زورا : ولكن ... ذاك أمر قضى الإله نفاده(٦)
أيها النائحون مهلا ! فمن ذا ... نال من دهره الخئون مراده
لاتطيلوا على النقيب نحيباً ... فهو بالذبح نال أعلى سعاده(٧)
كم نبي وصالح وولى ... مات قتلا ، ونال أجر الشهاده
هذه سنة الأماجد قدما ... كحسين وسعد بن عباده
حاز هذا الشريف لطفاً من الله ... ه وساوى فى حوزه أجداده
لوفور الأجور والرتبة العليا ... يا وحسنى من ربنا وزياده
ياخليل لاتأسفن وأرخ ... قدر الله قتله وأراده

كأنها مخالقة وليس بها خلاف (١) الحجال : الخلاخيل (٢) الغرة : الوجه والطرة الناصية.

(٣) توفى سنة ١١٧٢ هـ (٤) بنية الله : ما ابناه الله

(٥) الغدر : ترك الوفاء . الوريدان : عرقان فى العنق والجمع أوردة وورود وأوراد كما جمع الشاعر .

(٦) نفاده : فناءه ، يريد وقوعه .

(٧) أى أنه مات مقتولا مظلوما . جزاؤه الجنة . ونال سعادة الدار الأخرى وهى الباقية الخالدة .

وصف الشعر فى هذا العصر

— ١ —

أخذ الشعر يتدلى إلى الضعف فى عهد العثمانيين ، وحال نظما خاليا من روعة المعانى ، قفراً من بدائع الصناعة ، ولا عجب فان الفنون لا تزدهر إلا حيث تطمئن القلوب وتهدأ النفوس ويكثر الخير وتسهل أسباب الحياة .

وفى هذا العصر — عصر العثمانيين — وقف الشعر عند هذه الأغراض ، واقتصر الشعراء على تقليد السابقين من إخوانهم أهل العصر الماضى ، حتى إنك إذا قرأت فى الكتب التى عنيت بتراجم هؤلاء الشعراء وجدت مؤلفيها ينبهون على هذه السرقات ، فلا ترى شاعراً ترفع عنها ، وهم إذا سرقوا لم يدقوا ولم يتلطفوا ، بل صاروا إلى الاغتصاب والإغارة ، وفى كتاب : ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، لشهاب الدين الخفاجى كثير من ذلك . وفى هذا العصر لم يكن للشعراء نفاذ فى الأنواع البديعية كاخوانهم فى العصر السابق وليس ذلك عن زهد فيها وترفع عنها ولكنه كان عجزاً عن تحقيقها لضعفهم البالغ فى ملكاتهم . ومع ذلك زادت الأنواع البديعية فى عصرهم ، فقد أثبت منها عبد الغنى النابلسى صاحب البديعية المسماة : نفحات الأزهار ، على نسمات الأسحار ، نوعاً جديداً أسماه « التاريخ » وقال فى هذا الشأن . وهو نوع اخترعه المتأخرون ، ولهم فيه العجب العجاب ، وقد أدرجته فى سلك فنون البديع لعلو مرتبته ، وسمو مناقبه ، ولطافة مسلكه ، وطلوع شمس البلاغة فى أوج فلكه ، وهو عبارة عن أن يأتى الشاعر ، أو المتكلم بكلمة أو كلمات إذا حسبت حروفها بحساب الجمل بلغت عدد السنة التى يريدها المتكلم من تاريخ هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ويشترط فى التاريخ أن يتقدم عليه لفظ أرخ أو أرخوا ، أو واحدة مما يشتق من التاريخ من غير فصل بينه وبين كلمات التاريخ ، بل تكون مقارنة لها .

ولقد كان لسقوط الأخلاق الذى أشرنا إليه بوجه عام فى وصف الحالة العامة للحياة الاجتماعية فى هذا العصر صورة ظاهرة فى الشعر ، فقد امتلأ بالعهر ، والألفاظ الجارحة ، والتصريح بأسماء العورات مما لا يستبيح أديب أن يردد صداه

— ٢ —

وفى هذا العصر ظهر لشعراء الشام فضل على شعراء مصر على حين كان هؤلاء فى عصور سابقة ، أسبقهم إلى الفضل وأجمع لمزايا الإجادة ، بل لقد كانوا قادتهم فى المعانى ، وسادتهم فى سلامة الذوق وانسجام القول . وماذلك إلا لأن شعراء الشام لم يكونوا يعتمدون إلا على ملكاتهم السليمة ، وفطرتهم العربية منذ قديم ، حتى لقد كانوا على أيام الثعالبى فى القرن الرابع والخامس خيراً من إخوانهم شعراء العراق لتلك الأسباب ذاتها ، وقد بقيت لهم هذه الميزة إلى العصر العثمانى ، ولكن المصريين كانوا يفوقونهم بلطف الحس ، وسلامة الذوق ، ورقة الطبع ، وما انضم إلى ذلك من الملكة المكتسبة بالدراسة ، وحفظ كلام الفحول فظهرت ميزة المصريين على الشاميين فلما انحطت الملكة عند المصريين فى هذا العصر وقعدوا عن تقويتها بالاكتساب رجحت مزايا الشاميين عليهم .

— ٣ —

ومن شعراء هذا العصر : عائشة الباعونية ، وعبد الله الشبراوى الأزهرى ، ويوسف الحنفى أبو المحاسن ، وابن سلامة الإدكاوى ، وابن النحاس ، ويحيى الأصيل ، وهؤلاء كلهم مصريون . وشمس الدين الهلالى ، وشهاب الدين العنايانى وحسين بن الجزرى ، ومنجك باشا ، وابن الملا الحلبى الحصكفى ، وأحمد بن حسين باشا الشهير بالكيوانى ، وأحمد بن إلياس الكردى الأصل الدمشقى المولد ، وهؤلاء كلهم من شعراء الشام ، ومن غيرهم : ابن معتوق الموسوى من شعراء العراق.

أشهر شعراء هذا العصر

الشهاب الخفاجي المصري

٩٧٥ — ١٠٦٩ هـ

تمهيـــد :

والد الشهاب هو محمد بن عمر الخفاجي المصري الشافعي المتوفى عام ١٠١٩ هـ أحد علماء عصره ، وأعلام دهره . وكان من الفضــــلاء والأدباء البارعين ، المتعمقين المحققين المتفننين ، أخذ عن كبار الشيوخ ، وتصدر للإفادة ، فانتفع به جماعة من كبار العلماء ، من جلتهم ابنه الشاعر العلامة الشهاب الخفاجي صاحب طراز المجالس وسـواه من المؤلفات القيمة . ، وتوفي والده بعد حياة حافلة ، وخدمات جليلة أسداها للعلم والدين والأدب واللغة (١)

أما ابنه الشهاب الخفاجي (٢) : فمجال الحديث عنه واسع ، والمراجع التاريخية

---

(١) ٤١٩ جـ ٧ دائرة المعارف للبستاني ، وورد في هذا المرجع أن وفاته عام ١٠١١ هـ وهو غير صحيح إذ قد ذكر الشهاب في الريحانة في ترجمته لخاله أبي بكر الشنواني أنه توفي هو ووالده في وقت واحد (١١٦ الريحانة) ، وقد توفي خاله سنة ١٠١٩ هـ .

(٢) ترجم لنفسه في الريحانة (٢٧٢ — ٣١٩) . وترجم له المحبي في الجزء الأول من تاريخ خلاصة الأثر (٣٣١ — ٣٤٣) . كما ترجم له ابن معصوم في سلافة العصر (٤٢٠ — ٤٢٧) ، وأشار إلى كتابه الريحانة في ص ٨ وأثنى عليه . وله ترجمة في مصباح العصر في تواريخ شعراء مصر طبع بيروت ١٢٨٨ . وترجم له جورجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٨٧ جـ ٣ .

وترجم له الاستاذ محمود مصطفى في الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربي . وفي الجزء الثاني من المفصل ترجمة له (٣٠٨ — ٣١١) . وترجم له فنديك في اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ٣٥١ . وترجم له البستاني في دائرة المعارف ٥٨٧ و ٥٨٨ جـ ١٠ - كما ترجم له كثير من علماء الادب في شتى المؤلفات ، وله ترجمة في عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر (ص ١٧٧ من التراجم الملتقطة منه الملحقة بآخر طبقات الشافعية للاسدي رقم ٢٤٠ تاريخ - تيمورية) وله ترجمة في كتابي بنو خفاجة الجزء الثاني ص ٥٩ - ٧٣

والأدبية عنه وعن حياته وشعره كثيرة ، وسأتناول جوانب هـــذه الشخصية الكبيرة فى إيجاز .

يقول ابن معصوم فى « السلافة » عنه : أحد الشهب السيارة ، والمقتحم من بحر الفضل لجه وتياره ، فرع تهدل من خفاجة (١) ، وفرد سلك سبيل البيان ومهد لجاجه (٢) ، إلى آخر مايقول . ويقول فنديك فى كتابه « اكتفاء المطبوع » :

الخفاجى يرجع نسبه إلى قبيلة « خفاجة » ، وسكن أبوه فى قطعة أرض بقرب سرياقوس شمالى القاهرة(٣) ،وخفاجة قبيلة عربية كبيرة كان لها دولة فى العراق ومنها امراء كثيرون، وإذا فالشهاب يرجع فى نسبته إلى بنى خفاجة على وجه التحقيق كما رأينا فى هـــذه المصادر وكما ورد فى سواها . وإذا كان المحبى فى خلاصة الاثر لم يحقق هـذه النسبة واكتفى بقوله : خفاجة هى من بنى عامر فلعل أصـــل والده منهم (٤) فذلك لانه لم يكن من علماء الانساب وكانت حياته بعيدة عن الحجاز ونجد وصميم القبائل العربية ، ولم يكن من العرب الخلص ، وغير العرب الخلص لايهتمون بالأنساب ومعرفتها اهتماما كبيرا . والشهاب هو شهاب الدين محمود بن محمد بن عمر الخفاجى ترجم لنفسه فى الريحانة فقال ماننقله عنها فى إيجاز: وكنت بعدسن التمييز ، فى مغرس طيب النبت عزيز ، فى حجر والدى ومقام والدى غنى عن المدح ، فلما درجت من عشى قرأت على خالى سيبويه زمانه علوم العربية (٥) ونافست

---

(١) هى قبيلته العربية التى ينتمى الشهاب إليها (٢) ٤٢٠ السلافة
(٣) ٣٥١٠ اكتفاء القنوع .

(٤) راجع خلاصة الاثر ٢٤٣ جـ ١ ، ومقدمة الجزء الاول من حاشية الشهاب المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى ص ٧ حيث صـــدر بذكر ترجمة المحبى للشهاب فى كتابه خلاصة الاثر .

(٥) خاله هذا هو أبو بكر اسماعيل بن شهاب الدين ، والده شهاب الدين الشنوانى القطب الربانى ، وجده الاعلى ابن عم سيدى على وفا الشريف الوفائى التونسى . وكان أبو بكر علامة عصره فى جميع الفنون وكان فى عصره إمام النحاة . ولد بشنوان ، ودرس فى القاهرة على ابن قاسم العبادى وعلى محمد الخفاجى والد الشهاب وأخـــذ عن كثير سواهما ، وتخرج عليه كثير من العلماء وانتهت إليه الرياسة العلمية ، ولازمه وتخرج عليه ابن أخته الشهاب الخفاجى وسواه من أكابر

إخوانى فى الجد والطلب ، ثم قرأت المعانى والمنطق وبقية علوم الأدب الاثنى عشر ونظرت فى كتب المذهبين : أبى حنيفة والشافعى . ومن أجل من أخذت عنهم : شيخ الإسلام ابن شيخ الإسلام الشمس الرملى وأجازنى بجميع مؤلفاته ومروياته بروايته عن شيخ الإسلام زكريا الأنصارى (توفى ٩٢٦ هـ) وعن والده ، ومنهم أحمد العلقمى(١) أخذت عنه الأدب والشعر ، والعلامة الصالحى الشامى(٢) والشيخ داود البصير أخذت عنه الطب (٣) . ثم ارتحلت مع والدى للحرمين وقرأت هناك على ابن جاد الله وعلى حفيد العصام وغيره . ثم ارتحلت إلى القسطنطينية فتشرفت بمن فيها من الفضلاء والمصنفين واستفدت وتخرجت عليهم ، وممن أخذت عنه الرياضيات وقرأت عليه إقليدس وغيره أستاذى ابن حسن ، ثم انقرض هؤلاء العلماء فى مـــدة يسيرة فلم يبق بها عين ولا أثر وآل الأمر إلى اجتراء السلاطين والوزراء بقتل العلماء وإهانتهم . ولما عدت إليها ـ أى القسطنطينية ـ ثانيا بعدما وليت قضاء العساكر بمصر رأيت تفاقم الأمر وغلبة الجهل فذكرت ذلك للوزير ، فكان ذلك سبب عزلى وأمرى بالخروج من تلك المدينة(٤) » . « فان أردت مالى من المآثر فن تآليفى : الرسائل الأربعون ، وحاشية تفسير القاضى فى مجلدات ، وحاشية شرح الفرائض ، وشرح الدرة ، وطراز المجالس ، وحديقة

العلماء ، ثم ابتلى بالفالج فمكث فيه سنين لا يقوم من مجلسه إلا بمساعد وله عدة مؤلفات ، وله شعر رواه الشهاب فى الريحانة (١١٥ الريحانة) وتوفى سنة ١٠١٩ عقب طلوع الشمس من يوم الأحد ثالث ذى الحجة وبلغ من العمر نحو الستين ودفن بمقبرة المجاورين (راجع ترجمته فى الريحانة) (١١٤ – ١١٧) وفى الجزء الأول من خلاصة الأثر (٧٩ – ٨١) ، وفى الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا فى الكلام على شنوان (١٣٨ – ١٤٣ج١٢) .

(١) ترجم له فى الريحانة ص ١٩٥ .

(٢) هو محمد بن نجم الدين الصالحى الهلالى م ١٠١٢ هـ – ١٦٠٣ م وله ديوان شعر اسمه « مجمع الحام فى مدح خير الأنام » طبع فى القسطنطينية سنة ١٨٩٨ (٣٩٣ اكتفاء القنوع) .

(٣) راجع ٢٧٢ الريحانة وترجم له فى الريحانة ص ٢٠٥ .

(٤) راجع ٢٧٣ الريحانة .

السحر ، وكتاب السوانح ، والرحلة(١) ، وحواشى الرضى ، والجامى ، وشرح الشفاء وغير ذلك ، ولى من النظم ماهو مسطور فى ديوانى ، ومن المنثور رسائل منها ؛ الفصول القصار(٢) والمقامة الرومية (٣) التى ذكرت فيها أحوال الروم وعلمائها(٤) » .

وللشهاب عدة مقامات نسج فيها على منوال مقامات الحريرى منها : مقامة الغربة(٥) ، والمقامة الساسانية(٦) ، ومقامة عارض بها مقامة الوطواط(٧) ، والمقامة المغربية(٨) .

« وله كتاب : شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ، وكتاب : ديوان الأدب فى ذكر شعراء العرب ، ذكر فيه مشاهير الشعراء من العرب العرباء والمولدين وله كتاب : طراز المجالس(٩) وهو مجموع حسن الوضع جم الفائدة رتبه على خمسين مجلسا ذكر فيه مباحث لغوية ونحوية وأصولية وتفسيرية ، وله رسائل كثيرة ومكاتبات وافرة لم يجمعها ومقامات ذكر بعضها فى ريحانته(١٠) » .

« وكان لما وصل إلى الروم فى رحلته الأولى ولى القضاء ببلاد الروم إلى أن حتى وصل إلى أعلى مناصبها فى زمن السلطان مراد حتى اشتهر بالفضل الباهر فولاه السلطان قضاء سلانيك فاستفاد مالا كثيرا ثم أعطى بعدها قضاء مصر وبعد ما عزل عنها رجع إلى الروم فمر على دمشق وأقام بها أياما ومدحه فضلاؤها بالقصائد .

---

(١) قرأه عليه تلميذ للشهاب هو عبد القادر البغدادى وأجازه الشهاب بماله من التآليف والآثار وما رواه عن مشايخه الأخيار (راجع ٢٨٦ الريحانة) .

وعبد القادر هذا هو عبد القادر البغدادى نزيل القاهرة وتلميذ الشهاب وصاحب خزانة الأدب وتوفى سنة ١٠٩٣ (٣٠٦ فنديك) .

(٢) نسج فيها على منوال ابن المعتز وذكر منها جزءا فى الريحانة ٢٨١ – ٢٨٥

(٣) راجعها فى الريحانة ٢٧٦ – ٢٨١ (٤) ص ٢٧٦ الريحانة .

(٥) راجعها فى الريحانة (٢٨٦ – ٢٩٠) وذكر شرحا موجزا لبعض ما فيها من معان غريبة (راجع ٢٩٠ – ٢٩٢) .

(٦) راجعها فى الريحانة (٢٩٢–٢٩٥) (٧) راجعها فى الريحانة (٢٩٥–٢٩٨)

(٨) راجعها فى الريحانة (٢٩٨ – ٣٠٠) وشرحها فى الريحانة (٣٠٠ – ٣٠٩)

(٩) طبع فى القاهرة ١٢٨٤ (١٠) ٣٣٣ ج ١ خلاصة الأثر .

واعتنى به أهلها وعلماؤها ، ودخل حلب إثر ذلك ثم رحل إلى الروم وكان إذ ذاك مفتيها يحيى بن زكريا فأعرض عنه فصنع مقامته التي ذكرها في الريحانة وتعرض فيها للمولى المذكور فكان ذلك سبب نفيه إلى مصر وأعطى قضاء فيها فاستقر بمصر يؤلف ويصنف وأخذ عنه جماعة اشتهروا بالفضل الباهر ، منهم . عبد القادر البغدادي والحموي وأخذ عنه والدي وكتب عنه أصل الريحانة الذي سماه « خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا (١) » . . وأصل والده من سرياقوس قرية من قرى الخانقاه(٢) » .

« ومنى الشهاب بعداوة بعض شعراء عصره(٣) » « وتوفي سنة ١٠٦٩ هـ — ١٦٥٨ »(٤) في رمضان وعمره فوق التسعين(٥) » وإذا يكون ميلاده نحو عام ٩٧٥ هـ

مكانته العلمية :

« الشهاب الخفاجي الحنفي قاضي القضاة المصري وصاحب التصانيف الكثيرة وأحد الافراد المجمع على إمامته وتفوقه وبراعته في عصره(٦) » أجرى من ينبوع الفضل ما أخجل بمصر نيلها وبالشام سيحانه ، وأهدى لارباب الأدب من رياض أدبه أطيب ريحانه (٧) . وكان أحد أفراد الدنيا المجمع على تفوقه وكان في عصره بدر سماء العلم ونير أفق النثر والنظم رأس المؤلفين ورئيس المصنفين ، سار ذكره مسير المثل ، وطلعت أخباره طلوع الشهب في الفلك ، وكل من رأيناه أو سمعنا به ممن أدرك وقته معترفون له بالتفرد في التقرير والتحرير وحسن الإنشاء وليس فيهم من يلحق شأوه ولا يدعي ذلك . وتآليفه كثيرة مقبولة وانتشرت في البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة فان الناس اشتغلوا بها ، وأشعاره ومنشآته مسلمة لا مجال للخدش فيها ، والحاصل أنه فاق كل من تقدمه في كل فضيلة وأتعب من يجيء بعده مع ما خوله الله من السعة وكثرة الكتب ولطف الطبع والنكتة والنادرة (٨) .

وهذا يغنينا عن كل كلام في بيان منزلة الشهاب الخفاجي في عصره وبعد عصره

ثقافة الشهاب :

أما ثقافة الخفاجي الأدبية فواسعة جدا تنبئنا عنها الريحانة وطراز المجالس أحد

---

(١) ٣٣٣ و ٣٤ جـ ١ خلاصة الأثر (٢) ٣٤٣ جـ ١ خلاصة الاثر

(٣) ٤٢٧ السلافة لابن معصوم (٤) ١١٥ فنديك (٥) ٥٨٨ جـ ١٠ البستاني

(٦) ٥٨٧ جـ ١٠ البستاني (٧) ٤٢٠ السلافة لابن معصوم (٨) ٣٣١ و ٣٣٢ جـ ١ خلاصة الأثر للمحبي م ١١١١ هـ ، و ص ٧ جـ ١ من حاشية الشهاب على البيضاوي

مؤلفاته ويدلنا عليها أيضا شعره ومقاماته ، ولقد كان الخفاجي متضلعا في علوم اللغة والأدب والبلاغة إلى حد بعيد .

وأما ثقافته الدينية فقد أهلته لتولي عدة مناصب قضائية عظيمة ، منها منصب قاضي القضاة المصري ، وأما ثقافته العامة الأخرى فواسعة جدا كما تنبئنا عنها آثار الخفاجي وكما ذكر في ترجمته لنفسه وكانت له مكتبة مشهورة ، وذكر بعضهم أنه وجد في مخلفاته عشرة آلاف مجلد .

نثره :

عاش الخفاجي في آخر عصر المماليك حيث الملكات الأدبية في اضمحلال وفناء والإنتاج الأدبي في الشعر والنثر سقيم مرذول ، ولكن الخفاجي مع هذا كله سليم العبارة قوي الملكة حسن الأسلوب بليغ الأداء يسير كلامه مع الطبع والذوق ولا تنبو عنه الأسماع ولا الأذواق فهو في نثره : رسائله ومقاماته وكتبه الأدبية التي ألفها - زعيم عصره في هذا المذهب الأدبي المطبوع المقبول البعيد عن أثر الصنعة والتكلف أو الحوشية والإغراب أو السوقية والابتذال .

شعره :

للخفاجي ديوان شعر مفقود ذكره في الريحانة وقد عثرنا بعد ذلك على نسخة خطية منه بمكتبة الأزهر (بنمرة ٥٠٥ خصوصية أدب) وله عدا ذلك شعر كثير جدا ذكره في كتابه الريحانة وفي كتابه طراز المجالس ، وله مقصورة في مدح النبي صلوات الله عليه عارض بها مقصورة ابن دريد وقصائد أخرى في هذا المعنى ضمن مجموعة مخطوطة بدار الكتب (٧٦ مجاميع (١)) ومقصورته في مدح النبي عارض بها مقصورة زهير بن أبي سلمى ضمن ترجمة لموعدة أشياء أخرى من آثاره ألحقت بكتاب خبايا الزوايا المخطوط (٢) وروى المحبي في خلاصة الأثر بعض شعره ، قال : (٣) ومن أجود شعره قصيدة دالية مشهورة :

---

(١) راجع الجزء الثالث من فهرس دار الكتب حيث قال : « قصائد الخفاجي م١٠٦٩ » وذكر فيها ميميته التي عارض بها معلقة زهير ، ومقصورته التي عارض بها ابن دريد ، وخمس قصائد أخرى في مدح الرسول .

(٢) بالدار (٨٤ و ١٣١٢ و ٤٦٩٧) أدب .

(٣) ٢٣٦ وما بعدها ج١ خلاصة الأثر .

قدحت رعود البرق زندا   أضرمن أشجانا ووجدا
فى لجة الظلماء إذ   مدت على الخضراء بردا
حتى تشابه نوره   وتمطت الأغصان قدا
وعلى الغدير مفاضة   سردت له النسمات سردا
وحبابه من فوقه   قد بات يلعب فيه نردا
فسقى معاهد بالحمى   قد أنبتت حبا وودا
تذر الليالى فى ثرى   من عنبر للمسك أهدى
عجباً لدر ناصع   أودعن فى مسك مندى
فى ظل عيش ناعم   بنسيم أسحار تردى
والدهر عبد طائع   أهدى لنا شرفا وسعدا
ما زال أصدق ناصح   كم قال لى هزلا وجدا
سل امرؤ عن طوره   فى كل حال ما تعدى
فالخطب بحر زاخر   فاصبر له جزرا ومدا
فى ذمة الأيام للأحرار دين قد يؤدى
إن ماطلت فلربما   أنجزن بعد المطل وعدا
فاذا رمى طأطىء له   رأسا ، تراه عنك عدى
أفبعد إخوانى الألى   درجوا ، أخاف اليوم فقدا
عينى إذا استسقت بهم   تسقى بدمع العين خدا
لو كانت القطرات تجمد   نظمت فى الجيد عقدا
قوم لهم يدعو الثنا   من شاسع الأقطار وفدا

مؤلفات الخفاجى :

١ ـ الريحانة واسمها « ريحانة الألباوزهرة الحياة الدنيا » ويقول فيها الشهاب هذه دعاثر من « خبايا الزوايا فيما فى الرجال من البقايا(١) » وقد سار عليها هذا الاسم أيضا(٢) وهى تراجم أدبية واسعة لشعراء القرن الحادى عشر وأدبائه وعلمائه فى مصر والشام واليمن والحجاز والمغرب . قسمها عدة أقسام : فالقسم

---

(١) ص ٦ من الريحانة

(٢) وللشهاب كتاب آخر بهذا الاسم سنذكره عما قليل

الاول فى تراجم أهل الشام و نواحيها ، والقسم الثانى فى تراجم المصريين من أهل المغرب وما والاها ، والقسم الثالث فى تراجم مكة ومن بحماها ، ذكر فيه الدولة الحسينية ومن بها من بقية العلماء والشعراء والأعيان ، والقسم الرابع فى ترجمة أهل اليمن ممن بلغه خبره فى هذا الزمان ومن بقى بها من الفضلاء والشعراء وكان قريب العهد . والقسم الخامس فى الترجمة لأدباء وعلماء مصر والقسم السادس فى الترجمة لنفسه . وقد أثنى عليها كل العلمـــاء ورجال الأدب ويقول فيها ابن معصوم : « أهدى إلى من مكة المشرفة كتاب ريحانة الألبا تأليف العلامة النحرير . شهاب الدين الخفاجى ، وهو الشهاب الذى أضاء نور فضله فى هذا الزمن الداجى ، فرأيته قد أجاد فيما ألف وتكفل بالمقصود وما تكلف فلله كتابه من ريحانة تنفست فى ليلها البارد وعطرت معاطس الأسماع بطيب نشرها الوارد حتى غاطها كل كلف بالأدب راح لعرفها متنشقا الخ »(١) ، وقد بنى الخفاجى الريحانة على التراجم ، ولكنه توسع فى تراجم الشعراء فشرح أقوالهم ونقد مايستحق النقد منها وهو كتاب أدب وتاريخ جليل الفائدة(٢) وقد ذيلها المحبى صاحب خلاصة الأثر م ١١١١ هـ بكتاب سماه « نفحة الريحانة » وقد طبعت الريحانة فى مصر سنة ١٢٩٤ هـ فى ٣٢٨ صفحة ، وهذه الطبعة المذكورة هى التى نقلنا منها ما ذكرناه عن الشهاب ثم طبعت مرة أخرى سنة ١٣٠٦ هـ فى ٤٣٣ صفحة .

٢ ـ حديقة السحر ، أشار إليها الشهاب فى الريحانة(٣) .

٣ ـ الفصول القصار ، أشار إليه الشهاب فى الريحانة(٤) .

٤ ـ الشهب السيارة(٥) .

٥ ـ طراز المجالس كتاب أدب ولغة بناه على خمسين مجلسا (أى درسا) بحث فيه كثيرا من موضوعات البلاغة والنقد واللغة والتفسير والحديث والتاريخ وسواها ، وقد طبع فى القاهرة سنة ١٢٨٤ وطبع بطنطا طبعة أخرى وقد أشار إليه الخفاجى فى الريحانة(٦)

٦ ـ خبايا الزوايا فيما فى الرجال من البقايا ، وهو من كتب الأدب ولكنه

---

(١) ص ٨ من السلافة (٢) ٢١٠ ج ٣ الأدب العربى لمحمود مصطفى

(٣) راجع ص ٢٠ و ٣٨ و ٢٧٦ (٤) راجع ٢٧٦ و ٢٨١

(٥) راجع ١١٩ الريحانة (٦) راجع ص ٢٧٦

متضمن تراجم من أهل عصره فيهم شيوخه وشيوخ ابنه، وعددهم يزيد على سبعين، ومنه عدة نسخ خطية بدار الكتب(١) ؛ وهو خمسة أقسام وخاتمة : الأول في رجال الشام، والثاني في رجال الحجاز، والثالث في رجال مصر، والرابع في رجال المغرب، والخامس في رجال الروم(٢) .

٧ ـ شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل ، صدره بمقدمة في التعريب وشروطه ثم أورد الكلمات المعربة مرتبة على حروف المعجم وبين أصلها في لغاتها الأولى ، وكان يأتي بين هذه الألفاظ بكثير من المحرف والمولد مع الإشارة إلى أصلهما والكتاب نافع عظيم الفائدة في بابه(٣) وقد طبع الشفاء في مصر سنة ١٢٨٣ في ٢٤٥ صفحة، ثم طبعته دار الكتب أخيرا في مجلد كبير الحجم .

٨ ـ شرح درة الغواص في أوهام الخواص وهو نقد شديد للحريري تعقبه فيه في كل ما أورده في « درة الغواص » ورد عليه بحجج وشواهد قوية . وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة الجوائب بالقسطنطينية من مدة كبيرة(٤) .

٩ ـ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي سماها « عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي » طبعت في ثمانية أجزاء ببولاق سنة ١٢٨٣ هـ ، فالجزء الأول والثاني في تفسير البقرة ، والثالث والرابع إلى آخر التوبة. والخامس والسادس إلى آخر الفرقان ، والسابع إلى آخر الزخرف ، والثامن هو نهاية هذا الكتاب وقد طبع بتصحيح الشيخ محمد الصباغ في عهد الخديوي إسماعيل عام ١٢٨٣ هـ وفي آخر الجزء الثامن قصيدة للسيد عبد الهادي نجا تقريظا للكتاب وفي مقدمة الجزء الأول منه تقريظ للشيخ محمد الدمنهوري .

١٠ ـ وللخفاجي شرح للشفاء سماه « نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض » وقد طبع في أربعة أجزاء في القسطنطينية سنة ١٢٦٧ هـ

---

(١) ٣١٠ : ٣ الأدب العربي لمحمود مصطفى ، ٩٢ : ٣ فهرس الدار (وهي بنمرة ٨٤ ، ١٣١٢ ، ٤٦٩٧ أدب بدار الكتب)

(٢) والخاتمة في نظم المؤلف وشعره ، وقد فرغ من تأليفه في ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٠٤٢ هـ . ويليها ترجمة للمؤلف وقصيدة نبوية عارض بها معلقة زهير .

(٣) راجع ٣٠٨ : ٣ ، الأدب العربي لمحمود مصطفى .

(٤) وللألوسي م ١٢٧٠ هـ مفتي بغداد كتاب على الدرة سماه كشف الطرة عن الغرة أخذ فيه كثيرا عن شرح الخفاجي ووافقه في كثير من نقده للحريري .

١١ ـ ومن مؤلفاته : كتاب الرحلة ، وكتاب السوانح(١) وكتاب حديقة السحر ، وكتاب الرسائل الأربعون ، وكتاب حاشية شرح الفرائض ، وكتاب حواشي الرضى والجامى ، مما ذكرناه سابقا .

١٢ ـ وللخفاجي ديوان شعر ، وله عدة مقامات ورسائل أوردها في الريحانة، وقد ذكر جورجي زيدان أن في الخزانة التيمورية نسخة من ديوان الشهاب في نحو ٣٠٠ صفحة بخط المؤلف على الأرجح . وله قصائد مختلفة في برلين والمكتبة الخديوية، وله كتاب ريحانة النار أو ذوات الأمثال يتضمن كل بيت مثلا وهو في باريس . وقد سبق أن ذكرنا أن له أبنا ترجم الشهاب لشيوخه في كتابه خبايا الزوايا

ولا يفوتنا أن نقول إن الشهاب كان من شنوان ـ وهى إحدى قرى المنوفية ـ ثم أقام بأرض له بجوار سرياقوس ، كان له ذرية كبيرة بقيت إلى العصر الحديث بشنوان (٢) . وأخيراً فان التراث العلمى والأدبى للشهاب الخفاجي كبير ضخم وعظيم عائد ، وهو فى حاجة إلى البحث عنه والعناية به .

نماذج من شعره

١ ــ أرح طرف عين جفاها الهجوع   فان عنـاء الجفون الدموع
حسيت كؤوس الهوى مرة   وساق المنى لمرادي مطيـع
إلى حين غابت نجوم الهدى   فكان لهـا فى عذارى طلوع
تقنعت بالوصل من طيفه   وكل محب لعمرى قنوع

---

(١) ومنه نسخة خطية بمكتبة الأزهر (نمره ٩٥٣ خصوصية أدب) ، وفى المكتبة أيضا نسخة خطية من ديوانه (بنمرة ٥٠٥ خصوصية أدب) وسنتولى نشرهما بمشيئة الله ، ونشر كتابه « خبايا الزوايا » وذلك إذا وفق الله وأراد .

(٢) لشنوان حديث فى المجد والتاريخ طويل وقد ذكر الجبرتى عنها فى حوادث سنة ١٢٢٣ هـ أن منها الفقيه العلامة محمد الشنوانى الشافعى الأزهرى شيخ الإسلام بعد موت الشيخ الشرقاوى، وقد تولى المشيخة عام ١٢٢٧ هـ وتوفى فى ٢٤ من المحرم سنة ١٢٣٣ هـ (١٣٥ ـ ١٣٧ كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر) ، وقد يكون هذا الإمام العالم العظيم من أحفاد الشهاب ومن سلالة الخفاجيين فى شنوان . وسنراجع حياته وما كتب عنه لتحقيق ذلك فى الجزء الأخير من الكتاب .

ومن شنوان خرج أيضا كثير من العلماء والأدباء والشعراء .

ولى عنده حاجة للهوى   وليس لها غير ذلى شفيع
رهنت فؤادى على حبه   فما باله لفؤادى يضيع
ثقيل المحاسن فى ظله   وماء الجمال عليه يشيع

٢ — قلت (١) للندمان لما   مزقوا برد الدياجى
قتلتنا الراح صرفا   فاقتلوها بالمزاج

٣ — ومن شعره (٢) :

لا وغصن راق للطرف ورق   وعليه حلل الظرف ورق
وشموس لم تغب عن ناظرى   والشعور الليل والخد الشفق
وعيون حرمت نومى وما   حللت لى غير دمعى والأرق
ما احمرار الراح إلا خجل   من رضاب سكرت منه الحدق

٤ — وله أيضا (٣) :

قل للأحبة أنتم مذ غبتم   لم ألق وجها للسلو جميلا

صورة من نثر الشهاب

للشهاب مقامة تدعى « المقامة الساسانية » ، جاء فيها :

حدثنا مالك بن دينار ، عن مسافر بن يسار ، قال : كنت والشباب غرابه لايطار ، وثمراته الجنية تجنى من رياض الأخبار ، أهوى السياحة والناس ناس والديار ديار ، والدهر غر لم يفطن لتلون الليل والنهار :

ولم أر يوماً فى ظلام مفارق   شهاب مشيب لاح فى الإثر منقضا

فسرت فى الأرض لأنظر آثار رحمته ، وأرى مآثر الطراز الأول فى أعلام حلته ، فإن من جد وجد ، ومن توانى فقد فقد ، رافعاً عصا التسيار ، على كاهل الاعتبار ، رافضاً الاستراحة فى مهد الدعة ، مشيعاً قلباً فارق حبيباً ودعه ، قاطعا أملا عن در أنس ارتضعه . أضرب كرة الأرض بصولجان الهمة ، لا أعبأ بقامة غير قائمة وهمة (٤) همة . أتدرع برد الليل ، لا تهأخنى للويل ، وأشق أديم النهار للسير ، ولم أقل ليس للعصاسير ، كهشيم ترفعه أعاصير ريح تدور ، وورق جف فألوت (٥)

---

(١) ٢٣٩-١   (٢) ١٤٣ السلافة لابن معصوم .
(٣) ٤٢٥ السلافة لابن معصوم .
(٤) الهم والهمة بالكسر : الشيخ الفانى . أى همة ضعيفة .
(٥) ألوت به : أى طارت به . والصبا والدبور : ريحان .

به الصبا والدبور . كأنى على غصن بانة خضل(١) ، تثنيه ريح الصبا هنا وهنا أو قذى فى عيون البلاد ، أو عير شرود ترميه الروابى للوهاد (٢) .

كأنى من الوجناء(٣) فى متن موجة رمتنى بحار مالهن سواحل

حتى أتيت كورة(٤) خراسان ، فاذا بها قيل(٥) نصب عرضه لسهام الهوان ، مقلدا فى ترجيح البخل مذهب سهل بن هارون ، كأنه لم يسمع قوله تعالى « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » فطويت حديثه على عره (٦) ، وأتيته لأقف على جلية أمره ، فلما جست خلال إيوانه ، قرأت عنوان حاله على وجوه غلمانه . وسمعته يقول لمن امترى أخلاف درته (٧) ، وشبع من خلته (٨) وحمضه برؤية جرته : ياهذا صناعتنا واحدة ، لو لم تدرج من عشك كانت الراحة فائدة !

ثم قال لى : أى البلاد تهدى سلامها ، وأى زهرة تحية فتحت لك النسمات أكمامها ؟ قلت : الكنانة المعزية ، والخطة التى هى فى حضانة نيلها محمية ، رياضها تحيا بأنهاره ، وأصابعه(٩) تشير لكنوز خصب تستخرج من معادن أقطاره ، إلا أن أصابع الناس فى الراحة (١٠) والأيادى ، وفى أصابعه أياد (١١) ، وراحة لكل حاضر وباد . فان سألت عن حالى ففؤادى بها فؤاد أم موسى فارغ من آمالى ، وما حال وردة فارقت نسمات القبول (١٢) ؟ لحداها السموم وقادها الذبول :

فتأمل كيف يغشى مقلة المجد نعاس ؟

فأما حال سكانها ومن ألق جرانه بأعطانها (١٣) ، فقد ذهب أرباب الهمم

---

(١) الخضل : الندى المبتل .
(٢) العير : الحمار . والروابى : الأمكنة العالية . والوهاد : الأمكنة الواطية .
(٣) الوجناء : الناقة الشديدة . (٤) الكورة : الناحية وتطلق على المدينة
(٥) القيل : الأمير المتولى أمور الكورة (٦) العر العيب والشر
(٧) امترى : جذب الضرع للحلب . والأخلاف جمع خلف وهو حلمة ضرع الناقة والدرة اللبن أو سيلانه وكثرته .
(٨) الخلة مافيه حلاوة من النبات . والحمض مافيه ملوحة .
(٩) فى الأصابع تورية لأنها تطلق على الأصابع المعروفة وعلى أجزاء بها النيل
(١٠) الراحة : الكف (١١) الأيادى هنا النعم والآلاء .
(١٢) القبول : ريح الصبا وهى تهب فى بلاد العرب من جهة المشرق
(١٣) العطن : مبرك الإبل . الجران مقدم عنق البعير من جهة صدره .

العالية ، ولم يبق إلا من يفتخر بالرمم البالية ؛ روح الشوم ونتيجة اللوم ، وخليفة البوم ؛ ويعين الله ما يصنع الليل والنهار ، ويستر الثوب والجدار ، وما يستتر فى ضمائر البيوت ، وإن طال التحمل والسكوت . فكم بكت السماء أرضا فقدت حبيبا ، وساعدتها سحب انتحبت بها نحيبا :

ولطمت الخدود بها بروق   وشققت الرعود بها جيوبا

فقل لمن افتخر بالعظام ، ماوراءك ياعصام ؟

ولنعطف على هذا النسق ، لبيان من بقى منهم طبق على طبق(١) ، من أصناف لاتعد وأجناس لاترسم ولا تحد : من كل سائل بالإلحاح التحف ، أو دار بمزمار ودف ، أو تغنى بأنكر الأصوات ، فنهق إذ رأى شيطانا يدعى الكرامات يقيم به المعتزلى دليل إنكار الكرامة ، ويقول : هل على بعد هذا ملامة ؟ أو حامل راية وعلم جعل القناعة علما لسقوط الهمم . ومنهم من كبر وتكسرت قواريره(٢) ، وخبا نوره حين هبت أعاصيره ، وهو أعظمهم جرما ، وأقلهم دينا وحزما ، حتى مستنفرة يقرءون القرآن فى بقاع مستقذرة ، بين رهط لا يتدبرون ولا يستمعون ولا يمتثلون قول الله : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » وتجار رأس مالهم الإفلاس يضربون الأخماس(٣) للأسداس ، يزكون كذبهم بالأيمان الفاجرة ، فيربحون خسارة الدنيا والآخرة إن خاشنت أحدهم فى تقاضيه ، بادر بالحلف على دينه فيقضيه :

يقول : استمع حلفتى كاذباً   إذا ما اضطررت ، وفى الحال ضيق

وهل من جناح على مسلم   يدفع بالله مالا يطيق(٤)

وقد فقد العلم لولا نفحة أنس من نفر بقايا ، فتح الله بهم خزائن كنوز هى خبايا فى الزوايا ، من كل نقى العرض أبيض السجايا ، إذا تدنست الأعراض فأعراضهم من العار عرايا :

أبدت مآثرهم نقص الزمان فنى   خد الربيع طلوع الورد من خجل

---

(١) الطبق من الناس : الكثير والجماعة

(٢) يقال للشيخ الكبير : كبر وتكسرت قواريره وهو من ألفاظ أهل بغداد ، كأنهم يعنون فرقة الظهر

(٣) يضرب أخماسا لأسداس أى يسعى فى المكر والخديعة وهو مثل يضرب لمن يظهر شيئا ويريد غيره (٤) البيتان لابن الرومى ، ويرويان ببعض اختلاف فى اللفظ

حت شوكتهم رياضا فى ربا الدين العوالى ، وأحيا الله بأنفاسهم العيسوية موات المعالى ، ولما شرح الله بهم صدر الدين ، وفتح ببصائرهم عين اليقين ، أيدهم بأبناء الأعيان من أمرائها ، فقالت(١) الخلافة تحت أفياء لوائها ، حتى حموهم من نوائب الحتوف ، وزهت جنة مثواهم تحت ظلال السيوف .

ابن منجك

المتوفى عام ١٠٨٠ هـ

شاعر رقيق ، قال فيه شهاب الدين الخفاجى فى ريحانة الألباء :

الأمير محمد بن منجك الجركسى أصلا ومحتدا ، الشامى منشأً ومولداً ، أديب أريب ، ونجيب وابن نجيب ، أورق عوده بالشام وأثمر ، فاذا عدت السجايا عرضاً فسجاياه جوهر ، نشأ بها والدهر أبيض أقمر ، ونادم العيش والعيش أخضر ، وللبقاع تأثير فى الطباع ، والعرق كما قيل ، لمغرسه نزاع ، ومن كان جار الرياض ، لبس طبعه برد نسيمها الفضفاض ، كما لبس النهر الجارى درع النسيم السارى :

وقد نسجت كف النسيم مفاضة   عليه وما غير الحباب لها حلق

وقد صحبنى بحلق ونسيمه سجسج ، وخيوط شبيبته بيد الكهولة لم تنسج ، ولازمنى إذ رأى انعطافى عليه ، وشبه الشىء منجذب اليه .

وقد اختار له الخفاجى طائفة كبيرة من الشعر ، نكتفى منها بالصور الآتية ، التى تدل على علو كعبه فى الشعر ، وأنه كان فيه نادرة عصره ، من ذلك قوله :

سقى الله يوم القصر إذ كان بيننا   حديث كرفض الجمان المنضد
بروض يجول الماء تحت ظلاله   كأيم مروع أو حسام مجرد
يلوح به قانى الشقيق وقد حكى   لواحظ مخمور كحلن بإثمد
ويهمى به قطر الندى فتخاله   مبدد عقد فى فراش زمرد
وريحانه الغض الشهى كأنه   مبادى عذار فوق خد مورد

وقوله :

لا تتهم بالسوء دهرك إنه   جبل يجيب صداك منه صداء
مرآتك الدنيا وفعلك صورة   فيها فما الشنعاء والحسناء ؟

---

(١) قال يقيل : نام وقت القائلة وهو الظهر

ومن شعره :

قصر الأمير بوادي النيرين سقى ... رباك عنى من الوسمى مدرار
كم مر لى فيك أيام هواجرها ... أصائل ولياليهن أسحار
حيث الشبيبة بكر فى غضارتها ... وللصبابة أخلاق وأنصار
حيث الرياض تغنيني حمائمها ... بالدف والجنك والمثور لى جار
حيث الخائل أفلاك بها طلعت ... زهر من الزهر والندمان أقار

وتوفى الشاعر سنة ١٠٨٠ هـ .

عبد الله الشبراوى
المتوفى عام ١١٧١ هـ

هو عبد الله (١) بن شرف الدين الشبراوى القاهرى ، من أكابر مشيخة الأزهر ، وهو شاعر رقيق جذاب ، فى شعره لين وسهولة ، وأغلبه فى المدائح النبوية ومدائح أهل البيت ، ومن شعره :

آل طه ومن يقل آل طه ... مستجيراً بجاهكم لا يرد
حبكم مذهبي وعقد يقيني ... ليس لى مذهب سواه وعقد
منكم أستمد بل كل من فى الـ ... ـكون من فيض فضلكم يستمد
بيتكم مهبط الرسالة والوحـ ... ـى ، ومنكم نور النبوة يبدو
ولكم فى العلا مقام رفيع ... ما لكم فيه آل ياسين ند
يا ابن بنت الرسول من ذا يضاهيـ ... ـك افتخارا وأنت للفخر عقد
يا حسينا هل مثل أمك أم ... لشريف أو مثل جدك جد

ومما قاله مؤرخا فى رثاء أحمد الدلنجاوى :

سألت الشعر هل لك من صديق ... وقد سكن الدلنجاوى لحده
فصاح وخر مغشيا عليه ... وأصبح ساكناً فى القبر عنده

ولما مات الشيخ الفيومى المالكى شيخ الجامع الأزهر عام ١١٣٧ هـ ، انتقلت المشيخة إلى الشافعية ، فتولاها الشيخ عبد الله الشبراوى . ويتحدث الجبرتى عن جاهه ومكانته ، ويذكر أسماء بعض شيوخه ، ومنهم : الشيخ خليل اللقانى ، والشهاب الخليفى ، ومحمد بن عبد الباقى الزرقانى ، وأحمد النفراوى ، والشيخ

---

(١) له ترجمة فى ريحانة الألباء صـ ٢٤١

منصور المنوفى ، وصالح الحنبلى ، وسواهم (١) وكان طلبة العلم فى أيام مشيخته فى غاية الأدب والاحترام .

ومن تأليفه : مفاتح الالطاف فى مدائح الأشراف ، وشرح الصدر فى غزوة بدر (٢) وتوفى سنة ١١٧١ هـ ، عن ثمانين سنة ، وصلى عليه بالأزهر (٣) .

وكان لأهل العلم فى مدته رفعة ومقام ومهابة عند الخاص والعام ، ولم يزل يملى ويدرس ويفيد ، حتى عد إماما عظيما . وكان مقبول الشفاعة ، وهاداه الأمراء ، وديوانه « مفاتح الالطاف فى مدائح الاشراف ، وهو ديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطيع ، وقد ذهب الجبرتى وغيره إلى أن مفاتح الألطاف هذا كتاب غير الديوان ، وليس كذلك فانه يقول نفسه فى مقدمه الديوان : « وسميته مفاتح الالطاف . . . » وهو القائل لهـــذه القصـــيدة العذبة التى تسيل عذوبة ورقة :

بحقك أنت المنى والطلب ... وأنت المراد وأنت الأرب
ولى فيك ياهاجرى صبوة ... تحير فى وصفها كل صب
أبيت أسامر نجم السما ... إذا لاح لى فى الدجى أو غرب
وأعرض عن عاذلى فى هـواك ... إذا نم يا منيتى أو عتب
أمولاى بالله رفقا بمن ... إليك بذل الغرام انتسب
فانى حسيبك من ذى الجفا ... ويا سيدى أنت أهل الحسب
ويا هاجرى بعد ذاك الرضا ... بحقك قل لى : لهـــذا سبب ؟
فانى محب كما قد عهدت ... ولكن حبك شىء عجب
متى يا جميل المحيا أرى ... رضاك ويذهب هـذا الغضب ؟
أشاع العذول بأنى سلوت ... وحقك يا سيدى قد كذب
ومثلك ما ينبغى أن يصد ... ويهجر صبا له قد أحب
أشاهد فيك الجمال البديع ... فيأخذنى عند ذاك الطرب
ويعجبنى منك حسن القوام ... ولين الكلام وفرط الأدب
وحسبك أنك أنت المليح الـــكريم الجدود ... العريق النسب
أما والذى زان منك الجبين ... وأودع فى اللحظ بنت العنب
لئن جدت أو جرت أنت المراد ... وما لى سواك مليح يحب

---

(١) ٧٣ ج ١ تاريخ الجبرتى طبعة ١٢٩٧ هـ

(٢) ٨٧ ج ١ الجبرتى . (٣) ٢٠٩ ج ١ الجبرتى

ابن الصلاحي الشاعر

كان ابن الصلاحي ناظماً وناثراً وعالماً من علماء العصر في القرن الثامن عشر، وكان تلميذاً للشيخ محمد الحفني المشهور (١١٠٠ — ١١٨١ هـ)، وأجازه ذلك الشيخ إجازة علمية قد يكون من الطريف أن ننقلها هنا . قال الشيخ . « نحمدك ياعليم يافتاح ، ياذا المن بالعلم والصلاح ، ونصلي ونسلم على أقوى سند ، وعلى آله وصحبه معادن الفضل والمدد . أما بعد فإن المولى العلامة الفهامة الحاذق ، الأديب ، واللوذعي الأريب ، مولانا الشيخ محمد الصلاحي السيوطي قد حاز من التحلي بفرائد المسائل العلمية أوفى نصيب ، بفهم ثاقب وإدراك مصيب ، فكان أهلا للانتظام في سلك الأعلام ، بإجازته كما هو سنن أئمة الاسلام ، فأجزته بما تضمنته هذه الوريقات ، من العلوم العقلية والنقلية المتلقاة عن الاثبات ، وبسائر ما تجوز لي روايته ، أو ثبتت لدى درايته ، موصياً له بتقوى الله التي هي أقوى سبيل للنجاة، وألا ينساني من صالح دعواته في أوقات توجهاته نفعه الله ونفع به ونظمه في عقد أهل قربه وأفضل الصلاة والسلام على أكمل رسل السلام وعلى أئمة الهدى وصحبه نجوم الاقتدا ، كتبه محمد بن سالم الحفناوي الشافعي ، ثامن جمادى الثانية سنة ثمان وسبعين ومائة وألف » وقد كان ابن الصلاحي فوق ذلك كاتباً حسن الخط كتب نسخة من القاموس بخط يده ، وقد كان للخط الحسن نهضة في ذلك العصر مثل سائر أحوال البلاد فقد نبغ من معلميه جماعة من أفاضل الكتاب مثل الضيائي والشاكري والجزائري والحامي ، ولكن أكبر ما امتاز به ابن الصلاحي ميله إلى فن الأدب ، فقد أخذ منه بالحظ الأوفر وقد اتصل بحلقة الأدب في بلاط الأمير رضوان ، ونال من خيره الشيء الكثير . على أنه كان غير منقطع اليه بل كانت له مجالس خاصة مع جماعة من أدباء عصره ومشيخة العلم فيه . ولعل خير ما قاله من قصائده ماجاش في نفسه في تلك المجالس الخاصة . قال يصف خطرات نفسه :

بثنا عن النائي الغريب جملا من الخبر العجيب

الخ ، وقال في بعض مجالسه :

هات لي قهوة الشفا من شفاهك ... واسقنيها عسلي نغامة جاهك
عاطنيها يا أوحد العصر لطفا ... وبديع المثال في أشباهك
ياغزالا لو صور البدر شخصا ... ليضاهيك في آلبها لم يضاهك

عاطنيها جهراً شفاها ولا تخـ ... ـش ملاما فلذتى فى شفاهك

وأرسل إلى صديق له :

ذكرتك لا أنى نطقت وإنما ... ذكرتك فى نفسى فكنت سميرها
ذكرتك فى روض تبسم عن شذا ... وقد فتحت كف النسيم زهورها
ذكرتك والأطيار تنطق عن هوى ... كأنك قد آويت منهما ضميرها
فلا خير فى أرض إذا لم تكن بها ... سميراً ولا فى روضة لن تزورها

من مشهورى الشعراء فى هذا العصر

من شعراء هـــذا العصر : بدر الدين بن الأزهرى شاعر القرن الحادى عشر (١) ، ونور الدين العسيلى (٢) ومحمد الابيارى القبانى (٣) والمقرى (٤) ، ومحمد بن يس المتوفى (٥) وعبد الوهاب المحلى الحنفى (٦) وعبد المنعم المحلى (٧)، وتقى الدين التميمى (٨) ويحيى الاصيلى (٩) ومحمد الدمياطى الحنفى (١٠) ، وسراج الدين عمر الفارسكورى الشاعر المجيد (١١) ، وتقى الدين عمر الفارسكورى (١٢) ، وإبراهيم المبلط (١٣) ومحمد الفارضى (١٤) وله مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد، وأبو المواهب البكرى (١٥)، وسواهم من الشعراء .

انتهى الجزء الثانى
من كتاب
قصة الأدب فى مصر

ويليه الجزء الثالث

---

(١) صـ ٢٦٦ الريحانة ط ١٣٠٦ هـ (٢) صـ ٢٩٦ المرجع (٣) صـ ٢٦٨ المرجع
(٤) صـ ٢٨٥ المرجع (٥) صـ ٢٦٨ » (٦) صـ ٢٢٢ »
(٧) صـ ٢٢٤ » (٨) صـ ٢٢٧ » (٩) صـ ٢٣٢ »
(١٠) صـ ٢٤٠ » (١١) صـ ٢٤٥ » (١٢) صـ ٢٤٦ »
(١٣) صـ ٢٦٥ » (١٤) صـ ٢٨٢ » (١٥) صـ ٣٠٦ »

فهرست الكتاب

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضـــوع